١

الاسكندر الاكبر فى نظر الرومان

دكتور عبد العظيم الراعى
كلية الآداب جامعة القاهرة

لا جدال فى القول أن الرومان لم يستطيعوا منافسة الاغريق فى المجالات الفكرية والفنية (١) ، لكنهم عوضوا ذلك عن طريق سيادتهم العسكرية على كل انحاء العالم المأهول . وعلى الرغم من أن روما تأثرت الى حد كبير بالنظم العسكرية الاغريقية والاتروسكية أيضا — الا أنه مع مرور الأيام عملت الدولة على تطوير انظمتها وحياتها العسكرية بما كان يتفق وأخلاق سكانها وحجم توسعاتها الداخلية والخارجية . كما أن روما لم تتأثر بأى أمه سبقتها فيما يخص شغف أهلها الدائم للقتال وبسالتهمفى ميدان المعارك (٢) ومرد ذلك يرجع الى مدى تمسكهم بعاداتهم وسنن أسلافهم واعتزازهم بقوميتهم (٤) . ومن ثم لم يتسامح الرومان مع أى أمه سواء فى الغرب أو فى الشرق بوجه عام قد تحاول منافستهم فى المضمار العسكرى — الأمر الذى دفعهم الى الانتقاص من حق البطولات العسكرية الاغريقية ومن بطولات الاسكندر الأكبر (٥) .

ومع التسليم بتفوق الاغريق على الرومان فكريا وفنيا — لكن هذا لم يمنع من ظهور حركات أدبية قومية لمناهضة التراث والفكر الاغريقى — بل والمناداة بوجود أدب رومانى نابع من صميم البيئة الرومانية قلبا وقالبا (٦) . مما دفع بزعماء روما الى اجهاض أى قوة أو نفوذ هللينى يمكنه ان آجلا أو عاجلا تهديد القومية الرومانية وتراثها . لذا كان الشرقالهللينى بالنسبة لايطاليا ذو أهمية بالغه ليس فقط من الناحية العسكرية بل أيضا من الناحية الفكرية . ولعل مما دفع الرومان الى أهمية الشرق من الوجهة العسكرية هو ظهور الاسكندر الأكبر على مسرح الأحداث العالميةومحاولة أحد أقاربه غزو ايطاليا .

ويحق لنا هنا التساؤل — هل كانت شخصية الاسكندر هذا دافعا قويا وراء كراهية الرومان للاغريق ؟ واذا سلمنا بهذا — فالى أى مدى بلغت هذه العداوة حدتها ومدى تأثيرها على المجتمعين الرومانيوالاغريقي؟ ثم ما الذى حدى بالرومان أخيرا وخاصة منذ القرن الثانى قبل الميلاد الى تغيير وجهة نظرهم تجاه الشرق الهللينستى واتخاذهم الاسكندر مثالا للبطولة والسير على منواله — سلوكا وعادات وتقاليدا وتقمصا لشخصيته ؟.

للاجابة على ماسبق ، ستمر بمرحلتين هامتين فى تاريخ الرومان والاغريق . اذ نلمس فى الأولى كراهية الرومان ودوافعها — للاغريقعامة وللمقدونيين بصفة خاصة . ففى هذه المرحلة كان الاغريق والمقدونيون فى قمة مجدهم السياسى على حين كان الرومان فى حالة توسع وخروج من عزلتهم الى عالم البحر المتوسط الغربى والشرقى . أما المرحلة الثانية — نجد أن المقدونيين والاغريق قد افل نجمهم السياسى وحل بهم الضعف ثم وقوعهم فريسة فى أيدى الرومان بعد ذيوع صيتهم كأعظم قوة عسكريةفى أوربا وآسيا . كما ندرك فى هذه الفترة تغيير وجهة النظر الرومانية ودوافعها نحو المقدونيين والاغريق . وعمل زعماء روما على محو آثار الكراهية وتسامحوا مع مواطنى المدن الاغريقية ومنحوهم أعز شيء لديهم — الحرية والاستقلال . ثم اتخاذهم أبطال الاغريق وبالذاتالاسكندر الأكبر مثلا أعلى لهم فى حياتهم العامة والخاصة المدنية منها والعسكرية .

حقيقة ان الباحث فى تاريخ وحياة الاسكندر تواجهه مشكلة صعبة الا وهى التأكد من فكرة كراهية الرومان له وهو على قيد الحياة ، أم ان هذه الفكرة جاءت نتيجة للدعاية السياسية التى راجت بعد وفاته . فمن المعروف أن قصة حياته نقلت الى مختلف لغات العالم وصادفت رواجا منقطع النظير خاصة فى العصور الوسطى . وعلى الرغم من أنها مليئة بالخارقات والأساطير — لكنها لاتبعد كثيرا عن جوهر حياته . ولعل ذلك يرجع الى أن معاصريه من الكتاب لم يكن فى استطاعتهم التعرف على جميع جوانب حياته العامة والخاصة . بل يقال ان الاسكندر لم يجد من بين رجاله من هم أجدر بتسجيل جلائل أعماله . أضف الى ذلك انالذين كتبوا عنه أثناء حياته قد فقدت أعمالهم ولم يتبق لنا سوى شذرات

موجودة في تقرير كتبه بطليموس الأول واعتمد عليه المؤرخ اريانوس . على كل من الصعب الجزم بأن الرومان كرهوا الاسكندر كراهية عمياء أثناء حياته . وانما من المعقول بعد وفاته وهذا راجع الى الهاله التى أحاطت بقصة حياته وبطولاته . وتجسدت عداوة الرومان للاغريق فى بداية الأمر كما أشرنا من قبل (٧) . ولنعود الآن الى شرح تفاصيل كل مرحلة من المراحل التى ألمعنا اليها آنفا .

المرحلة الأولى :

قبيل الدخول فى تفاصيل هذه المرحلة يجب القاء نظرة عابرة على العلاقات الرومانية اليونانية قبيل تفاهم الأمور بينهما وذلك ابان العصر الهللينستى . امدتنا المصادر الأدبية والآثار بمعلومات أكدت قيام علاقات بين الأمتين منذ القرن الثامن قبل الميلاد (٨) . وهناك ما يشير أن الرومان وخاصة البارزون منهم زاروا بلاد الاغريق اما لاغراض تجارية أو دينية وتعليمية (٩) . وفى عام ٤٥٥ سافرت بعثة رومانية الى أثينا لنسخ تشريعات صولون (١٠) . ويقال بأن تشريعات ملك روما الأسطورى نوما تأثرت بالأفكار الفيثاغورثيه (١١) . ولا سبيل الى الشك فى القول أناللغة اللاتينية قد تأثرت الى حد كبير باللغة اليونانية خاصة المصطلحاتالتجارية وأسماء البضائع (١٢) هذا اذا صرفنا النظر عن مدى تأثرها بالاجروميه اليونانية (١٣) .

ولكن يجب التوقع بأن العلاقات بين الغرب والشرق لم تكن دائما يسودها الوفاق . اذ تخللتها صراعات واحتكاكات عسكرية مباشرة وغير مباشرة . فلقد ساءت العلاقات بينهما عندما قامت مدينة كوماى بايواء تاركوينيوس المتغطرس آخر ملوك روما السبعة (١٤) . ويفهم من ليفوس أنه فى عام ٣٤٩ واجهت روما قراصنة اغريق عسكريا فور اغارتهم على شاطىء لاتيوم (١٥) .

كما أنه فى عام ٣٢٨ تفاقمت الأمور بين الرومان والاغريق بسبب أزمة مدنية **Palaepolis** (١٦) . وهناك قول يفيد بأن روما أرسلت سفارة الىالاسكندر الأكبر لتشكره علىتطهير الادرياتيكى من القراصنة(١٧) وعندما استنجدت تارنتم ببنى جلدتاه اغريق الشرق لانقاذها من الوقوعفى

قبضة الرومان ــ هب الاسكندر ملك ابيروس على رأس قوات عسكرية كان قد بعث بعضها اليه الاسكندر المقدونى . لنجدة اغريق الغرب(١٨) وفعلا تحركت القوات الابيروسية تجاه ايطاليا ونجح قائدها فى تحقيق البعض من أحلامه ــ لكن الأجل لم يمتد به كى يحقق كل ما كانت تصبوا اليه نفسه ــ خاصة وانه كان يحلم بحكم امبراطورية عالمية فى غربى البحر المتوسط لتنافس امبراطورية الاسكندر الأكبر فى الشرق (١٩) . أضف الى هذا تعلم الرومان درسا قاسيا من بجهوس ملك ابيروس الذى حاول جاهدا انشاء امبراطورية له على حساب الغرب تعويضا له عما فقده من ممتلكات فى مقدونيا (٢٠) .

ادرك الرومان وقتئذ أن الحكمة تقتضى اتخاذ أقصى التدابير اللازمة للوقوف ضد اى محاولة من قبل الشرق الهللينستى ــ وأصبح ماثلا فى أذهانهم بأن فى الشرق يكمن الخطر كل الخطر . ومن ثم عملوا بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للتصدى له مهما كلفهم الثمن . ويتضح هذا من خلال ماكتبه المؤرخ الرومانى ليفيوس ــ الذى اتخذ من حملة اسكندر ملك ابيروس مدعاة لالهاب شعور الرومان وتزكية روح البغضاء ضد اغريق الشرق ــ هذا على الرغم من أنه لم يكن معاصرا لهذه الحملة ــ ولقد حذر هذا المؤرخ روما من مغبة التهاون فى معاملة سكانه (٢١) . ولعل مما زاد من مخاوف الرومان هو انهم لمسوا فى فتوحات الاسكندر الأكبر بأنها تعد تهديدا غير مباشر لمصالحهم فى الغرب والشرق ايضا . وربما وضعوا فى أذهانهم أن الملك المقدونى بعد اخضاعه الشرق يحاول غزو الغرب ولم لا؟ وهو الذى ساعد اسكندر ابيروس فى حملته ضد ايطاليا .

وجدير بالذكر أن الخوف والرهبة من الشرق الهلليستى قد بلغتا حدتهما ابان مراحل الصراع الرومانى ــ المقدونى أو قل ان شئت منذ الربع الأخير من القرن الثالث (٢٢) . اذ انتاب الرومان احساس سيطر على زعماء روما وقادتها بصفة خاصة بأنهم يقاتلون ضد عدو شديد المراس وذلك أثناء اشتعال نيران الحروب المقدونية . ففى الحرب المقدونية الأولى والثانية أدرك الرومان بأنهم ينازلون الاسكندر الأكبر هذا مع العلم من أن فيليب الخامس كان وقتذاك ملكا متربعا على عرش مقدونيا (٢٣) . ولدينا ما نقوله أن غزوات الاسكندر فى الشرق ــ كانت وراء حماس الرومان

وأيضا المقدونيين أثناء الحرب المقدونية الثانية . اذ يحدثنا بلوتارخوس عن مدى استعداد كل منهما للقتـــال وبروح عالية لحاجة نفسهما (٢٤) . فلقد كان هدف روما الرئيسى هزيمة المقدونيين ـــ أولئك الذين ذاع صيتهم فى الآفق ـــ كرجال أقوياء وأصحاب جيش لا يقهر منذ مطلع القرن الخـــامس قبل الميلاد (٢٥) . وذلك لسببين ـــ القضاء على مقدونيا عسكريا ونسف انجازات الاسكندر أيضا ثم منع المقدونيين من التحالف مع ألد أعداء روما فى الغرب ـــ خاصة وانهم خبروا عن قرب خطورة تحالف فيليب الخامس مع هانيبـــال (٢٦) . أما المقدونيون ـــ فـــكانت كل اهتمامهم تنحصر فى القضاء نهائيا على روما ـــ تلك الدولة التى بدأت تدس أنفها فى شـــئون الشرق الهلليستى منذ القرن الثالث ـــ والتى كانت بالأمس تحت رحمـــة أحد أقارب الأسرة المقدونية الحاكمة ـــ ثم أصبحت تملى ارادتها عليهم . كما أنهم وجدوا فى قوة روما السياسية والعسكرية واتســـاع نشاطهـــا الاستعمارى فى الغرب والشرق ـــ بأنها لا تقل همجيـــة وشراســـة عن الفرس . وعليه حث رجالات مقدونيا فيليب الخامس على أن يؤكد أثنـــاء قتاله ضد الرومان ـــ أنه لا يقل عن الاسكندر قولا وعملا ـــ بل يفوقـــه عظمة وكفاءة (٢٧) . أضف الى هذا ـــ أنه بعد الحرب المقدونية الثالثـــة والتى أسفرت عن هزيمة برسيوس ـــ هلل الرومان على أثر وصول ملك مقدونيا هذا أسيرا الى المعسكر الرومانى ـــ وعم الجميع الفرح ليس فقط من أجل استسلامه ـــ بل أيضا لاحساسهم بأن امبراطورية الفاتح المقدونى ستصبح ملكا للشعب الرومانى (٢٨) .

ومع أن مقدونيا قد تحولت الى ولاية رومانية ـــ لـــكن الرومان لم ينسوا بين يوم وليلة أعداءهم المقدونيين . كما أن هؤلاء المقدونيين بالتالى لم يتغاضوا عمـــا فعله معهم الرومان بالامس القريب . وهكذا اشـــتدت المنافسة بين الغرب الرومانى والشرق الهللنستنى . ولعل مما ساهم فى الهاب شعور الرومان نحو الشرق ـــ ذلك الدور الذى قام به كتاب روما ونخص بالذات ليفيوس ـــ الذى نجح فى تحويل تصور الرومان الى حقيقة مثلت فى أذهانهم . هذه الحقيقة كما جسدها مؤرخنا كانت تكمن فى القول ـــ ماذا سيحدث للعالم الغربى لو أن الفاتح المقدونى ولى وجهه شـــطر الغرب قبيل الشرق ؟ أو ماذا سيكون مصير روما لو أن الاسكندر امتد به

الأجل وواصل زحفه نحو الغرب خاصة وانهم علموا بوصوله حتى الحدود الليبية (٢٩) ؟

وعليه يتبين بأن ليفيوس قد شن حملة شعواء على الاسكندر وعمل على تشويه سمعته لدى رومان عصره . ومهما اختلف آراء العلماء حول تفسير اسباب عداوة هذا المؤرخ للملك المقدونى (٣٠) ــ فلا شك أنه هو شخصيا كان معجبا بعظمة الاسكندر وقدرته السياسية والعسكرية (٣١)ــ الا أنه خشى على زعماء روما من خطورة التهاون مع الشرق مجسدا هــذا الخطر فى توسعات الاسكندر . كما أنه ككاتب رومانى كان متمسكا بالنعرة القومية الرومانية ــ تلك التى رفضت بشدة أن يكون للرومان أى منافس عسكرى ــ وعليه أفاد هذا المؤرخ بأن سمعة وشهرة الاسكندر مبــالغ فيها الى حد كبير ولدى الرومان ابطال يضارعوه شخصية وبطوله . فضلا عن هذا تأثر مؤرخنا هذا كغيره من كتاب عصره بالدعاية الاغريقيــة ــ وخشى على بنى قومه من التأثر بها ــ تلك الدعاية التى صورت للرومان أن الاسكندر الأكبر شخصية فريدة لا مثيل لها فى التاريخ وكان من الواجب عليه كفاتح عظيم دان له الشرق ــ اخضاع الغرب ــ زيادة على ذلك ــ تأثر ليفيوس ببعض الآراء الفلسفية الاغريقية ــ التى ساهمت بدورهــا فى تشويه سمعة الملك المقدونى ليس فقط العالم اليونانى بل أيضــا فى روما نفسها (٣٢) . ويبدو أن هذا المؤرخ قــد علم بما نشر من مخططات الاسكندر الخاصة بفتح افريقيا واوربا (٣٣) .

المرحلة الثانيــة :

منذ ان بسط الرومان سيادتهم على كل مقدونيا والدويلات الاغريقية ــ حدثت تغييرات جوهرية فى نظره كل منهما قبل الآخر . وجاء ذلك نتيجة لمــا جد من احداث سياسية وتطورات اجتماعيــة فى الغــرب والشرق الهللينستى . اذ بعد هزيمة فيليب وبرسيوس آلت الى الرومان مسئولية جسيمة ــ الا وهى حرية العالم الاغريقى سواء فى أوربا أو فى آســيا الصغرى (٣٤) . ولــكن كيف يتم لهم ذلك ؟ لابد وأن يبحث الرومان عن سبل شرعية فى نظر الاغريق على الأقل ــ كمحــاولة للتفــاهم معهم ــ لادراكهم أن الاغريق كما اشارت مؤلفاتهم يسمونهم « بالبرابرة » (٣٥) .

وهكذا كان على زعماء روما محو آثار هذه التفرقة ليمهدوا الطريق أمامهم لتدعيم نفوذهم .

وكان الحل الأمثل فى نظر الرومان هو الأخذ بأهداف الحضارة الهللينية واتخاذ أبطال وزعماء الاغريق نماذج يحتذى بها كل من يتولى منصبا فى هيئة الحكم والادارة الرومانية سواء فى الداخل أم فى الخارج. زيادة على ذلك . عرف الرومان عن كثب مدى شغف المدينة — الدولة الاغريقية الى حياة الحرية والاستقلال . ومن ثم أخذوا على عاتقهم مسئولية الدفاع عن نظم ودساتير تلك الدويلات — بل والحد من الحروب الطاحنة التى كانت تنشب دائما بينهم ، وهذا أبلغ ما كان يتمناه أى مواطن اغريقى — خاصة من كان يتولى منصبا قياديا أو يعمل بالاقتصاد (٣٦) . أضف الى هذا — أن روما استغلت وجود أنصار لها مؤيدون لسياستها فى العالم الاغريقى بهدف الدعاية السياسية والعسكرية لها (٣٧) . وخير برهان على ذلك — تحذيرات المؤرخ بوليبيوس لاغريق عصره — بأن روما دولة عسكرية من الطراز الأول ويجب عليهم عدم الوقوف أمامها (٣٨) . أما الاغريق فلم يكن لهم سوى حل واحد — وهو التسليم بسياسة الأمر الواقع ولم لا ؟ فهم بالامس كانوا تحت السايدة المقدونية (٣٩) . الا أن هذا لم يمنع من ظهور موجات السخط والكراهية ضد الرومان سمعنا صداها فى النبوءات اليونانية (٤٠). وعلى كل — نخلص بالقول أنه نتيجة لتلك التطورات التى طرأت على الرومان والاغريق — أصبح الرومان بعد توكيد سيادتهم على اغريق الشرق ورثة امبراطورية الاسكندر الأكبر — لذا شرعوا فى اتخاذ شخصية الفاتح المقدونى كشخصية عزيزة على قلوب اغريق الشرق مثالا يتسابق على احتذائها زعماء روما السياسيين . ومن ثم لانعجب عندما نرى قصة حياة وأعمال الملك المقدونى قد أضحت موضوعا رئيسيا فى التعليم الرومانى (٤١) .

ومن يقف على قصص الفتوحات الرومانية فى الشرق الهللينستى وسير عظماء الرومان يدرك أن شخصية الاسكندر كانت من أهم العوامل التى دفعت بجنرالات روما الى اتباع سياسة التوسع مقلدين اياه خاصة فى الشرق وفى روما أيضا . كما تبنى الرومان افكار ومبادىء الملك المقدونى والخاصة بمزج شعوب العالم فى بوتقة حضارية واحدة — بهدف ربط

كل شعوب ولاياتهم برباط واحد وثيق بصرف النظر عن قومياتهم . وتأكيد لهذه الأفكار بدأ الرومان رويدا فى منح الجنسية الرومانية لرعاياهم (٤٢) ومن ثم يمكن القول دون مبالغة أن أهداف وأمانى الاسكندر على الرغم من أن خلفاؤه قد تخلوا عنها — أخذت روما على كاهلها تحقيقها واجلالا لهذا الفاتح لقبوه بالاسكندر الأكبر (٤٣) . ولا نعجب أيضا عندما نرى كتاب وشعراء وفنانى وزعماء روما قد خلبهم جمال الاسكندر الأخاذ ونظرته الثاقبة — مما دفعهم الى التشبه فى صورهم وتماثيلهم (٤٤) .

وهكذا اتبع القائد الرومانى فلامينوس سياسة الاسكندر بكل من مقدونيا وبلاد الاغريق ومن ثم نودى به الها بمدينة خالكيس بعد تحريرها (٤٥) . كما ربط آل سكبيو أفريكانوس بين قصة ميلاد الاسكندر وسكبيو . فلقد قيل بأن والدة الأخير ضاجعها ثعبان مقدس فحملت منه سكبيو (٤٦) ، وتلك القصة دبجت أيضا بالنسبة لقصة ميلاد أوغسطس (٤٧) . وفى عام ١٩٠ زار لوكيوس سكبيو مدينة طروادة وقدم القرابين لربه أثينا مقلد فى ذلك مافعله الاسكندر فور وصوله الى تلك المدينة (٤٨) . وتبين من أعمال لوكيللوس فى آسيا الصغرى أنه ظهر هناك وكأنه راعيا للاغريق ولآدابهم وفنونهم اذ أعاد بناء مدينة اميسوس ووسع حدودها ومنحها الاستقلال الذاتى (٤٩) . وفى هذا لدليل على أنه سار على درب الاسكندر عندما أعاد الى تلك المدينة النظام الديمقراطى(٥٠)

وعندما كان بومبى فى الشرق عمل على اصلاح ما افسده الرومان من قبل (٥١) . لهذا رفع الى مصاف الآلهة ثم قلد لوكيللوس فى مصالحته للاغريق . وكان هذا الزعيم تواقا الى مقارنة نفسه بالاسكندر . وقيل انه يحمل شبها كبيرا من الفاتح المقدونى . خاصة شعر رأسه (٥٢) . ومما شجعه على ذلك — اغريق آسيا الصغرى الذين اعتبروه خليفة للملك المقدونى (٥٣) . ولقد سار بومبى على درب الاسكندر فى اغرقته لمنطقة بونطوس وسمى بعض المدن باسمه (٥٤) . وفى عام ٨١ أطلق بومبى هذا على نفسه لقب عظيم Magnus (٥٥) . ولم يتردد لحظة واحدة فى ارتداء عباءة الاسكندر (٥٦) . وكالاسكندر كان يثور لأتفه الأسباب — اذ يحدثنا سترابون أن الخطيب ايسخينيس عوقب بالنفى لتطاوله على بومبى (٥٧) .

ويخبرنا سيوتنيوس أنه أثناء وجود يوليوس قيصر فى أسبانيا شاهد تمثالا للاسكندر بمعبد هيراكليس فى مدينة قادش . عندئذ بكى الزعيم الرومانى نادبا حظه لأنه لم يحقق وهو فى عمر الاسكندر من أعمال مجيدة مثلما حقق الفاتح المقدونى . ويرى أن فكرة سيادة العالم اختمرت فى ذهن قيصر وقتذاك (٥٨) . وبهذا يتضح لنا من قوله ان قيصر اتخذ من شخصية الاسكندر مثالا وقدوه له فى حياته وأعماله — مثلما اتخذ الفاتح المقدونى اخيلليوس بطل الالياذه (٥٩) . وعليه نجد هذا الزعيم الرومانى أقيمت له عبادة خاصة فى آسيا الصغرى وببلاد الاغريق وكرمه أهل مدينة ديمترياس بمنطقة تساليا على اثر تحريرها . بخلعهم عليه لقب اله . كما امتدحه أهل افيسوس وأفادوا بأن شجرة نسبه ترجع الى آريس وافروديتى وكان فى نظرهم يعد ربا للخير ومنقذا للجنس البشرى بهذا أصبح قيصر خليفة للملك المقدونى المؤله وقام هذا الزعيم من جانبه بتعزيز ذلك الاعتقاد عن طريق توزيع بعض الأراضى على أهل طروادة ومنحها فى الوقت نفسه الحرية والاستقلال . ويرى ابيانوس أن قيصر كان كالاسكندر رجلا محبا للسلام وطموحا وماهرا فى فنون الحرب سريع التنفيذ فى اتخاذ الاجراءات . ويرفعه هذا المؤرخ الى درجة عالية عندما قارنه بالاسكندر . اذ يقول ان الزعيم الروماني شق طريقه الى الحكم بصعوبة وكان عليه كسب ود روما وهذا أمرا غير يسير وليس من السهل تحقيقه بالنسبة لأى شخص عادى . أما الاسكندر بنى مجده وشهرته على أساس ملكى ثابت وموروث. اذ آلت اليه مقدونيا وحكم الدويلات الاغريقية دون مشقة تذكر — فلقد ورث ذلك عن أبيه (٦٠) .

هلل المصريون لانطونيوس لاحترامه العادات والتقاليد المصرية ودخوله مجمع الآلهة المصرية ايضا ورعايته لكل ماهو اغريقى . وبهذا سار على نهج الاسكندر والبطالمة من بعده . ولقد زعم أنه سليل أوزيريس وديونيسوس وكليوباترا سلينى وايزيس (٦١) . فضلا عن هذا — أنه سمى ابنته من كليوباترا السابعة بالاسكندر هليوس . ويقال أنه غطى جثمان بومبى بعباءته مقلدا الاسكندر عندما غطى جسد داريوس (٦٢) . وفور وصول أوغسطس الى أرض وادى النيل تسامح مع السكندريين احتراما للاله سرابيس والاسكندر مؤسس الاسكندرية . وأبدى رغبة شديدة فى رؤية جثمان الملك المقدونى ووضع عليها اكليلا من الزهور وتاجا من

الذهب (٦٣) . هام أوغسطوس حبا بالاسكندر وشبه نفسه به ووافق على ظهور صورته على الأختـــام قبل ظهور صورته شخصيا عليها (٦٤) .ويشير سترايون أن أوغسطس لقب بصديق الاسكندر (٦٥) .

كان الامبراطور كاليجولا مولعا بتأليه نفسه ــ ومن ثم تشـــبه بالـه الشمس فى مدينة كيزيكوس . كما أراد أن يكون وريثا لمـكانة الاسكندر وميتراداتيس وانطونيوس وابنا للاسكندر هليوس (٦٦) . ولدينـــا مايؤكد بأنه حمل درع الاسكندر المقدونى (٦٧) . أبدى نيرون رغبة ملحة فىتشبيه نفسه بالملك المقدونى (٦٨) . وأعجب الامبراطور تراجانوس ايما اعجاب بالاسكندر وسار على دربه والطرق التى سلكها الاسكندر اثناء حملاته فى الشرق . وفى ١١٤ ذكر بأن هذا الامبراطور رغب فى الوصول حتى حدود الهند ووصل الى مدينة بابل وتكريما للملك المقـــدونى ــ زار الحجرة التى فاضت فيها روح الاسكندر وقـــدم القرابين (٦٩) . وعثر فىأنقره علىدرع وظهر عليه صورة هذا الامبراطور وكانت تحمل شبها كبيرا من الفـــاتح المقـــدونى (٧٠) . أما الامبراطـــور كومودس حمل لقب رئيس الصـــادين ــ نسبة الى عبـــادته للاله هيراكليس الذى شبه به الاسكندر كما وصف هذا الامبراطور بالقائد المنتصر الذى لايهزم ــ مقارنا نفســـه بهراكليس والاسكندر (٧١) . كما حمل جايوس بسكينوس لقب الاسكندر الجديد(٧٢) .

تأثر كاراكالا بالفكر والثقـــافة الاغريقيـــة وله مؤلفـــات باليونانيـــة أيضا (٧٣) . اقتنع هـــذا الامبراطور بأنه اسكندر عمره واتخذ الاسكندر المقدونى بطله المفضل ثم عمل على تقمص شخصـــيته باستخدامه أدوات الطعام والشراب التى كان يستعملها الملك المقـــدونى . كما شغف حبـــا باستخدام أسلحته الخاصـــة وذهب الىأبعد من ذلك ــ عن طريق اقامته تماثيل للاسكندر أمام معسكرات الجيش الرومانى وفوق الكابيوليوم .أعاد تشكيل فرقه العسكرية علىنظام الاسكندر العسكرى وسمى بعضجنرالاته بأسماء مقدونية خاصة أسماء كبار جنرالات الملك المقدونى (٧٤) . ثم قلد ملك مقدونيـــا فى زيارته لقبر اخيلليوس بطراوده . وخاطب مجلسالشيوخ بأن أوغسطس الشرق هو اسكندر مقدونيـــا (٧٥) . زد على ذلك انهاطهد بعض فلاســـفة المـــدرسة المشائيه وحرمهم من بعض الامتيازات لاعتقاده أن أ سطو قد تسبب فى وفاة الاسكندر . لقد ارتدى هـــذا الامبراطور

الملابس المقدونيـــة وزين رأسه بقرنى الاسكندر ــ الأمر الذى ثار سخرية السكندريين (٧٦) منه . أسس كاراكالا مدنا جـديدة وأعاد بنـاء البعض منها تيمنا بالاسكندر واتخذ لنفسه زوجة شرقية (٧٧) . كمـا تبنى فـكرة الاسكندر الخاصة بتوحيد العـالم وذلك عن طريق منح الجنسية الرومانية لمختلف شـعوب الامبراطورية الرومانيـة ــ مثلما فعل الاسكنـدر مع العناصر الغير يونانيـة والفرس أولئك الذين كانوا فى أيام الملك المقدونى ــ يعتبرون فى نظر أستاذه أرسطو برابرة (٧٨) .

مجد الاسكندر سفيروس اخيلليوس والاسكنـدر المقـدونى وسكت عملة ذهبية فى عصره وظهر عليها هذا الامبراطور شبيها بالاسكنـدر (٧٩) ــ وفى مدينة ازمير صدرت عملة من عهد آل سـفيروس ــ على احـد وجهيها أسطورة هوميروس (٨٠) . وهـذا يعد دليلا على اتخاذ الأباطره الرومان سلوك الاسكندر مناهجا لهملأننا وكما نعرفأن الاسكندر المقدونى ــ كان محبا للشاعر الخالد ــ هوميروس وحمل اليـاذته معـه فى كل رحلاته (٨١) . ومنذ عهد هذه الأسرة حتى أيام فيليب الثانى « العربى » ٢٤٩ ميلادية ــ ظهرت صور وتماثيل الاسكندر على عملة عاصمة الحلف المقـدونى (٨٢) . كما أن أحد الضباط الرومان وهو ــ تتيوس ماكريانوس الذى ثار ضده سيده جالينيوس قـد شبه نفسه بالاسكندر المقدونى (٨٣) وفى أيام دقلديانوس كان الرومان يزينون أقراطهم ودروعهم وملابسهمأيضا بكل شىء كان يرتديه الاسكندر المقـدونى (٨٤) . ولقد أنب يوحنـا « فم الذهب » اهل انطاكية لتحليهم بعملات برونزية عليها صور للاسكندر (٨٥) .

مجمل القول ــ لوحظ من خلال أعمال كتاب العصر الامبراطورىبأنهم جميعا ليسوا متعاطفينمع الاسكندر . اذ هاجم الفيلسوف سينكا ولوكانوس ملك مقدونيـا ووصـفوه بأنه طاغية ويرجع السبب فى ذلك الى تشيعهم بالأفـكار الرواقيـة (٨٦) . اضف الى هذا أن كوينتليانوس وجوفيناليس وجيليوس كانوا بدورهم يقللون من شخصية وأعمال الملك المقدونى (٨٧) . أما كورتيوس فكان موقفه ازاء الاسـكندر وسطا (٨٨) . لـكن الـكتاب الاغريق ــ مثل يوليبوس وبلوتارخوس ــ واريانوس كانوا بطبيعة الحال فى صف الإسكندر الأكبر (٨٩) .

الحواشى

(1) Hor., Ep., II I, 156 «Graecia capta ferum victorem cepit, et artes intulit agresti Latio», cf. A. J. Toynbee, Hannibal's Legacy. The Hannibalic War's Effects on Roman Life, London 1965, vol. II, PP, 435 sqq.

(2) Polyb., VI sqq. 25, 6, II sqq., cf. Diod., XXIII, 2. 1. Dio. V. 60, 2 sqq., X, 17, 5, XX, 6.1. H. Spencer. Descriptive Sociology, Romans, London 1934, S. V., Military - Weapons.

(3) Hor., Od., IV, 8.3, Liv., VII, 26, 10. XXVIII. 9. 10. Cic. Fin., II, 62, 65.

راجع ج.و.دف. تاريخ الأدب الرومانى — ترجمة د. محمد سليم سالم — مراجعة د. محمد صقر خفاجه . القاهرة ١٩٦٤ ، جا ص١٥٨ ج رقم ٢ .

(4) Virg., Geo., II, 167 sqq, Juv., II, 86 sqq.,

عن مفهوم كلمة mos لدى الرومان — انظر

D. Earl, The Moral and Political Tradition of Rome, London 1967, PP. 30 sqq.

(5) N. Petrochilos, Roman Attitudes to the Greeks, (Diss.) Athens 1974, PP. 93 sqq.

(6) Juv., III, 60 sqq. Cic., Pro Flaco, XVII, Plin., N. H., XXIX, 14 sqq.

يستشف من قول بلينيوس نقلا عن كاتو أن الرومان لم يثقوا فى الأطباء الاغريق كما كانوا فى نظر الاغريق البرابرة .

"Omnia conrumpet, tum etiam magis, si medicos sous hoc mittet. iurarunt inter se barbaros necare omnes medicina, sed hoc ipsum mercede faciunt, ut fides iis sit et facile disperdant. nos quoque dictitant barbaros et spurcius nos quam alios opicóo appellatione foedant,,.

راجع — دف — المرجع السابق — ص ١٥٤—١٥٥ .

(٧) سأقوم بدراسة هذه النقطة فى مقالتى التى ستصدر فى أعمال المؤتمر الثالث للدراسات المقدونية — بعنوان — « الاسكندر الأكبر فى المصادر العربية » ، محاضرة القيت فى هذا المؤتمر خلال شهر سبتمبر

١٩٧٧ . ويكفى هنـــا أن احيل القـــارىء الى أهـــم الدراســـات التى عالجت هذا الموضـوع .

M. Renault, The Nature of Alexander, London, 1975, PP. 40 sqq., L. L. Gunderson, Early Elements in the Alexander Romance, in Ancient Macedonia, at the First Intern. Symp. held in Thessaloniki, 26 - 29 August 1968, Thessaloniki 1973, PP. 353 - 375 (cited AMI).

(8) F. Heichelheim, An Ancient Economic History, Leiden 1964, PP. 35, 93, 97, cf. F. W. Walbank, Polybius and the Rome's Eastern Policy, JRS 53 (1963), esp. PP. 2 - 3.

(9) Liv., I, 6 sqq., cf. Petrochilos, op. cit., P. 15.

(10) Liv., III, 31, 8.

(11) Petrochilos, op. cit., P. 15, cf. P. Grimal et alii, Hellenism and the Rise of Rome, London 1968, P. 68.

(١٢) على سبيل المثـــال

Oleum, Oliva, ampulla, macina

(١٣) عن الموضـــوع برمته — انظر

J. Marouzeau, Quelques aspects de la formation du latin littéraire Paris 1949, PP. 125 sqq, cf. P. Boynoncé, La Connaissance du grec à Rome, REL 24 (1956) PP. 111 - 131.

(14) Petrochilos, op. cit., P. 15.

(15) Liv., VII, 25, 4 - 5, 26, 11 - 15, cf. Alfodi, Early Rome and the latins, Ann Arbor 1963, PP. 344 - 346.

(16) Liv., VIII, 22, 6, sqq., cf. Toynbee, op. cit., P. 443.

(١٧) يذكر بلينيوس نقلا عن كليتارخوس أن الرومان أرسلوا سفارة الى الاسكندر

N.H., III, 57 „Clitarchus ab eo preximus legationem tantum ad Alexandrim missam..", cf. Diod., XVII, 113, 1 - 4, Just., XII, 13, I., لـــكن أريانوس يرفض هذا القول (Anab., VII, 15, 4 - 6) وبالتالى رفض تارن أمر هذه البعثة ويرى انها مؤرخة فى القرن الأول ق.م. (P. 376)

Alexander the Great, Cambridge 1948, vol. II, PP. 21 - 26., 374 - 378.

ولـــكن هناك رأى حديث يؤكد صحة ارسال الرومان هذه السفارة.

P. Treves, Il mito di Alessandro e la Roma d'Augusto, Milano 1953, PP. 27 - 29, esp. fn. 7, cf. E. Borza, Cleitarchus and Diodorus' account of Alexander, PACA 2 (1968) PP. 25 - 45.

(18) U. Wilcken, Alexander the Great, transl. by G. Richards, with preface, An introduction to Alexander studies, Notes, and Bibliography by E. Borza, New York 1967, PP. cf. R.L. Fox, Alexander the Great, London 1973, cf., Grimal, op. cit., P. 68.

(١٩) يرى ليفيوس أنه لولا موته المبكر لسيطر على روما (VIII, 3. 6) وبخصوص منافسته لامبراطورية الاسكندر — انظر

Trog. Pomp. (in Junt. epit.) XII, 2. 1 sqq "Velut in divisione orbis terrarum Alexandre Olympiadis sarois suae filio Oriens, sibi Occidens sorte contigisset, non minorem rerum materiam in Italia Africa Siciliaque qua ille in Asia et in Perais habiturus".

(20) Plut., Pyrrh., 13 - cf. E. Will, Histoire Politique du monde Hellénistique, Nancy 1966, Tom. 1, PP. 103 - 113 ibid., Le monde grec et l'Orient, Paris 1975, Tom. II, PP. 365 - 370.

(21) Liv., VIII, 3, 6 : 17, 9 : cf. Petrochilos, op. cit., P. 99.

(٢٢) أول هذه المراحل تمثلت فى نشوب الحرب اللاليرية والذىيعتبر المؤرخ بوليبيوس مصدرنا الرئيسى عن احداثها . انظر

Walbank, A Historical Commentary on Polybius, vol. I. Commentary on Books I - VI, Oxford 1957, PP. 13 - 14, 153, 159, 165 - 166.

(23) Florus, I, 23, 3 "itaque quamvis tum Philippus regno praesideret, Romani tamen dimicare sibi cum rege Alexandro videbantur". (apud Petrochilos, op. cit., P. 99).

(24) Plut., Flam., 7, cf. Liv., XXXI, 6 - 9 "Pacem Punicam bellum Macedonicum excepit, periculo haudquaquam comparandum aut virtute ducis aut militum robore, claritate regum antiquarum

vetustaque fama gentis et magnitudine imperii, que multa quondum Europae, maiorem partem Asiae obtinverant armis, prope nobilius."

(25) A. Anthemides, Military Academics in Macedonia, Makedonika 13 (1973) PP. 117 - 152 (in Greek).

راجع للمؤلف — اضواء على تاريخ مقدونيا ابان القرن الخامس ق٠م دار الثقافة — القاهرة ١٩٧٨ ٠

(26) E. Bickerman, Hannibal's covenant, AJPh. 73 (1952) PP. 1 sqq., cf H. A. Chroust, International treaties in Antiquity : The diplomatic negociations between Hannibal and Ph. V of Macedon, Class. et Med. 15 (1954) PP. 60 - 107.

راجع للمؤلف — صفحة من تاريخ العلاقات الرومانية — اليونانية — ١٩٦ — ١٦٧ ق٠م دار الثقافة — القاهرة ١٩٧٨ ٠

(27) Petrochilos, op. cit., P. 98.

(28) Walbank, The Causes of the third Mecedonian war : Rlcent views, in AMII, Thessaloniki 1977, PP. 81 - 94.

راجع للمؤلف — صفحة من تاريخ العلاقات الرومانية — اليونانية — حيث درست بالتفصيل اسباب هذه الحرب ونتائجها على المجتمعين الرومانى واليونانى — كما فندت حجج بولبيوس التى اعتبرها الأسباب الرئيسية لهذه الحرب ٠ ومما هو جدير بالذكر أن العالم الايطالى

(P. Meloni, Persed, Rome 1953, ch, P. 5).

يعتقد ان روما ولأول مرة تحشد قواتها العسكرية لواجهة قوات برسيوس وحليفه الاليرى جنتيوس — ولولا هذه الاعدادات العسكرية الرومانية — لما استطاع الجنرال الرمانى لوكيوس ايميليوس باولوس انتزاع النصر٠ ومن هنا أدرك السناتو مدى قوة مقدونيا العسكرية وخطرها على العالم اليونانى وعليه كان جل اهتمام الرومان ينحصر فى تحطيم مقدونيا حتى يتمكنوا من تحقيق أحلامهم التوسعية — أنظر الوصف الرائع الخاص بموكب النصر فى كتاب

J. J. Pollitt, The art of Rome, C. 753 - 337 A. D., New Jersey 1966 PP. 44 - 45.

(29) Liv., IX, 16, 19 "quin eum parem destinant animis magno Alexandre ducem, si arma Asia perdomita in Europam vertisset." cf. M. Cary, A History of the Greek World 323 to 146 B. C, London P. 182.

(30) W. B. Anderson, Contributions to the study of the Ninth Book of Liv., TA Ph A 39 (1908) PP. 94 sqq.

(31) Liv., IX, 8, 6 "id vero periculum erat, quod levissimi ex Graecis, qui Parthorum quoque contra nomen Romanum gloriae favent".

امتدح ليفيوس عظمة البارتين العسكرية على حساب روما وجسد خطورة الشرق ممثلا فى شخص البارثين والاسكندر ويرى أن الرومان لم يكن فى استطاعتهم التفاهم مع البارثين أو حتى الاسكندر انظر التعليق الشيق عند

Petrochilos, op. cit., PP. 100 - 101.

(٣٢) تأثر هذا المؤرخ بآراء المشائين الذين كانوا يكنون العداوة للملك المقدونى .

IX, 18, 1. "Et Loquimor de Alexanro nondum secundis rebus, quarum nemo intolerantior fuit".

وترجع اسباب هذه العداوة الى القول أن الاسكندر كان (وراء اغتيال كاليستنيس) .

Cic. Tusc., III, 21 "Ut Theophrasttus interitum deplorans Callisthenis sodalis sui rebus Alexandri prosperis angitur, itaque dicit Callisthenem incidises in hominem summa potentia summ aque fortuna sed ignarum quem ad modum rebus secundis uti conveniret" cf. ibid., Att., XII, 28, 3. "quid, tu non vides ipsum illum Aristoteli discipulum, summo ingenis, summa modestia, postea, quam rex appellatus sit, superbum, crudelem, immoderatum fuisse?

وعن كراهية الرواقيين للاسكندر — انظر

Sen., N. Q., VI, 23, 2 - 3, cf. Tarn, op. cit., PP. 69, 131, 297 - 300., L. L. Gunderson, The Portrait of Alexander the Great in the Sibylline Oracles, in AMII, 1977, PP. 53 - 66, esp. 59.

(33) Diod., XVIII, 4, 1 - 3, Tarn, op. cit., PP. 396 sqq. (XVII, 4, 6).

ويرى ديودورس ان خلفاء الاسكندر قد تخلوا عن هذه الفكرة

(34) Polyb., XVIII, 46, 15, cf. Liv., XXXI, 15, 10 "egregium liberatae per se Graeciae titulum", Contra ibid., XXXIV, 23, 8 Vanum titulum libertatis". cf. Toynbee, op. cit., PP. 435 - 485.

(35) Liv., XXXI, 29, 15 "cum alienigenis, cum barbaris aeterum omnibus Graecis bellum est eritque, natura enim, quae perpetus est, non mutabilibus in diem causis hostes sunt," cf. Pliny, N. H., XXIX, 14 sqq, Walbank, op. cit., JRS 53 (1963) PP. 10 - 11.

انظر اعلاه حاشية ٦ — ومع هذا لم يطلق بوليبيوس هـذه التسمية على الرومان .
(XVII, 22, 5).

(٣٦) عن مسألة حرية العالم الاغريقى ومفهوم هذه الحرية فى نظر الرومان والاغريق أيضا ومدى جدية الرومان فى تطبيقها — أنظر رسالة دكتوراه للعـالم الأمريكى .

B. Forte, Rome and the Romans as the Greeks saw them, Rome 1972, PP. 25 - 56.

(37) Ibid., PP. 78 - 89, cf. Petrochilos, op. cit., PP. 108 - 111.

(38) I, 1., ibid., XXXIX, 8, cf., Toynbee, op. cit. I, P. 3, 11, P. 436 fn. 1.

وعن دور بوليبيوس فى روما وبلاد الاغريق وآرائه — انظر

T. R. Glover, Polybius at Rome, in springs of Hellas and other essays, Cambridge 1945, PP. 109 - 130. cf. Walbank, Polybius. London 1972, PP. 157 - 183.

(39) Ch. Patsavos, The Unification of the Greeks under Macedonian Hegemony, Athens 1973, PP. 25 sqq., cf., Ch. Pelekides, Quelques aspects de la relations entre Athenes et Macedoine, in AMII (1977). E. Will, op. cit. I, PP. 186 - 205.

(٤٠) كانت روما فى نظر الاغريق أما للذئاب وليس للبشر — أنظر

Orac. Sibyll., III, 350 - 355, 469 (apud Petrochilos, P. 110) cf. Forte, PP. 41 - 46, 78 - 79, Gunderson, op. cit., PP. 35 - 66.

وعن الحركات القومية المقدونية المناهضة للرومان — أنظر

Th. Sarikakis, The Mecedonian struggle against Rome, Thessaloniki 1969, PP. 15 - 29 (in Greek) cf. J. Briscoe, A Commentary on livy, Oxford 1973, PP. 166 sqq.

(41) Sen., Suas., I. "An Oceanum naviget", ibid. 4 "An Babylona intret ?" cf. Cic., Att., XIII, 28. 2. "nam quae sunt ad Alexandrum hominum versentur. adulescentem incesum cupiditate verissimae gloriae, cupientem sibi aliquid condili dari quod ad laudem sempiternam valeret, cohortantur ad decus". cf. M. H. Ibrahim, Graeco - Roman Education in Egypt from the first to the fourth century A. D., according to papyri, (diss.) Athens 1972 PP. 183, 194 (in Greek).

(42) M. Bieber, Alexender the Great in Greek and Roman Arts, Chicago 1964, PP. 13, 72, cf. Forto, PP. 212, 266, and passim

(43) Bieber, P. 72.

انظر اعلاه حاشية ٢٩ — أدناه حاشية ٤٦، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٨ .

(44) Ibid., PP. 14 - 15.

(45) Toynbee, P. 438.

(46) Liv., XXVI, 19, 7 "rettulitque famam in Alexandre Magno prius volgatum, et vanitate et fabula parem, anguis immanis aoncubitu conceptum, et in cubiculo matris eius visam persaepe prodigii eius speciem interventuque hominum evolutam repente atque ex oculis elapsam".

(47) Suet., Aug., 94, 2 - 5 "Velitris antiquitus tacta de caelo parte muri responsum est eius oppidi civem quandoque rerum pototurum qua fiducia Veliterni et tunc statim et postea saepius paene ad exitium sui cum populo R. belligeraverant, sero tandem documentis apparuit Ostentum illud Augusti potentiam portendisse." cf. Petrochilos, P. 103, cf. also D. Kienast, Augustus und Alexander, Gymnasium 76 (1969) PP. 430 - 456.

(48) Liv., XXXVII, 37, 2 - 3.

من الملاحظ أن معظم زعماء روما زاروا طرواده واولوها جل اهتمامهم ويعزى سبب ذلك الى القول بأن الجد الأكبر للشعب الرومانى كان من أصل طروادى وربما ترجع عداوة الرومان للاغريق الى أسطورة اينياس كما ذكر أن فرجيل نسج الانيادة لمناهضة النفوذ الاغريقى — وعن هــذا الموضــوع انظر :

Petrochilos, P. 139, Forte, PP. 5, 126.

(49) Plut., Luc., XIX, 3 - 4, cf. Dio, XXXVI, 16, cf. also W. Lacey R. Wilson, Res Publica, Roman Politics and society according to Cicero, Oxford 1970, PP. 71 - 72.

(50) App. Mith., XII, 83, cf. Forte, P. 128.

(51) D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, Princeton 1950, vol. I, PP. 368 - 377, II, PP 1231 - 1240.

(52) Plut., Pomp., 2, cf. Pliny, N. H., XXXVII, 14 "illa relincino honaro grata". Florus, VII. eadem gratia relincinae frontis" (apud Petrochilos, P. 103), Sallust., Hist., III, 88, "sed pompeius a prima edulescentia sermone fautorum similem se fore credena Alexandro regi, facta consultaque eius quidem aemulus erat". cf. D. Michel, Alexander als Vorbild fuer Pompeius, Caesar und Marcus Antonius, Bruxelles 1967, PP. 35 - 66.

(53) Ibid., PP. 45 - 47, Forte, PP. 194 - 195.

(54) Magie, op. cit., II, P. 1232, fn. 35, cf. A. H. M. Jones, The cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford 1971, PP. 167 - 168.

(55) Bieber, op. cit., P 69, Michel, op. cit., PP. 44 - 45.

(56) App. Mith., XVII, 117.

(57) Strabo, P. 635, Forte, P. 135.

(58) Suet., Jul., VII, Quaestori ulterior Hispania obvenit, ubi mandatu praetoris iure dicundo conventus circumiret Gadisque Venisset, animadversa apud Herculis templum Magni Alexandri imagine ingenvit et quasi pertaesus ignaviam suam, quod nihil dum a se memorabile stum esset in aetate, qua iam Alexander orbem terrarum subegisset, missionem continus efflegitavit ad captandas quam primum maiorum rerum occasions in urbe.." cf. Michel, PP. 67 - 107.

(59) Cic., Att., XIII, 27, I., XIII, 28, cf. A. R. Anderson, Heracles and his successors, HSCP 39 (1928) PP. 39 - 42 J. R. Hamilton, Plutarch : Alexander, A Commentary, Oxford 1969 PP. XLIX - LI, P. 3. fn. I.

(60) B. C., II, 149 - 154, cf. Forte, PP. 359 - 360.

(61) Dio, XLVIII, 39, 2, Plut., Ant. LX, 2 - 3, cf. Michel PP. 109 - 132.

(62) Dio, LXXVIII, 7, Plut., Ant., XXII, Brut., LIII.

(63) Dio, Li 16, Plut. Ant., LXXX, 2 - 3, Suet., Aug., XVIII, I. "Per idem tempus conditorium et corpus Magni Alexandri, cum prolatum e peostrali subiecisset oculis, corona aurea imposita ac floribus aspersis veneratus est consultusque, num et ptolemaeum inspicere vellet, regem se voluisse ait videre, non mortuos." cf. R. Syme, The Roman Revolution, Oxford 1952, PP. 305 - 441.

(64) Suet., Aug., L. "in Diplomatibus libellisque et epistulis signandis initio spinge usus est, mox imagine Magi Alexandri, novissime sua, Dioscuridis manu scalpta, qua signare insecuti quoque principes perseverarunt."

(65) P. 594.

(66) C. Vermeule, Roman Imperial Art in Greece and Asia Minor, Cambridge 1968, PP. 194 - 195, 386 - 387, Forte, PP. 210 - 211.

(67) Dio, LIX, 17, 3, Suet., Cal., L II, "Veneris cultu conspectus est. triumphalem quidem ornatum etiam ante expeditionem assidue gestavit, interdum et Magni Alexandri thoracem repetitum e conditorio eius."

(68) Suet., Nero, XTX, 2, "parabat et ad Caspias portas expeditione conscripta ex Italicis senum tironibus nova legione, quam Magni Alexandri phalanga appellabat." cf. Pollitt, op. cit., P. 145.

(69) Dio, LXVIII, 30, cf. Forte PP. 288 - 289.

(70) M. Grant, The World of Rome, London 1960, P. 283.

(71) S. Weinstock, Victor and invictus, HTR 50 (1957) PP. 211 - 247.

(72) Dio, LXXV, 6, 2, cf. Forte, P. 4554.

(73) Dio, LXXVIII, 8, 4, Forte, P. 463.

(74) Ibid., P. 463, cf. Grant, The Climax of Rome, London 1968, PP. 112, 125, 156.

(75) Forte, PP. 463 - 464.

(٧٦) لعل السبب فى ذلك يرجع الى القول أن أرسطو قد تآمر مع انتيبانزوس ضد الاسكندر لخروجه عن طاعته — أنظر

Gunderson, op. cit., AMI (1973) esp. PP. 363 - 367.

(77) Grant, op. cit., PP. 285 - 286, cf. Forte, PP. 463 - 464.

(78) R. Taubenschlag, The Law of Greco - Roman Egypt, Warsowa 1955, PP. 40, 90, cf. P? Garnsey, Social status and legal privll ege in the Roman Emp.re, Oxford 1970, PP. 266 - 270.

(79) Pollitt, op. cit., P. 200.

(80) Magie, op. cit., P. 889.

(81) R. Pfeiffer, History of Classical Scholarship from the beginnings to the end of the Hellenistic Age, Oxford 1968, P. 71.

(82) Bieber, op. cit., P. 77.

(83) Pollitt, op. cit., 204 - 205, Bieber, P. 80.

(84) Ibid., P. 80.

(85) Ibid., PP. 80 - 81.

(86) Sen, N. Q., VI, 23, 2 - 3, Lucan, X, 20.

(87) Quint., I, 1. 9, "Nec minus error eorum nocet moribus, siquidem Leonides Alexandrie paedagous, ut a Babylonis Diogene Traditure, quibusdam eium vitus iambu.t, quae robustum quoque et iam maximum regem ͱb illa institutione puerili persecut", Juv., X, 168.

"Unus Pellaeo iuveni non sufficit orb.s,

Aestuat inflex angusto limite mundi.."

(88) Curt., IV, 7, 29 "sed fortuna quos uni sibi credere coegit magna ex parte avidos gloriae magis quam capaces facit", cf. ibid., X, 5, 26.

(89) Polyb., VIII, 10, 7, Diod., XVII, I. 3, Arrian, Anab., VII, 28 - 30.



٢

فى ذكرى مرور ستة قرون
على اتمام ابن خلدون للجزء الأول من تاريخه

الإغريق عند ابن خلدون

(١) من بداية أيامهم الى موت الاسكندر الأكبر

تحقيق وتعليق دكتور : فوزى مكاوى
أستاذ التاريخ القديم
ـ بجامعة محمد بن عبد الله ـ فاس

عندما نتحدث عن ابن خلدون (*) فأول مايثب الى الذهن عنه أنه منشىء علم الاجتماع الانسانى ، ولكن لا يغيب عن اذهاننا كونه مؤرخ كبير وضع سفرا فى تاريخ الأمم والشعوب كان فريدا فى عصره ، وما يزال حتى الآن مرجعا أصيلا لتاريخ كثير من الدول والعصور .

وابن خلدون لا يقارن به أحد ممن عاصروه أو سبقوه ، فهو مؤرخ تنطبق عليه صفات الباحث فى ميدان علم التاريخ كما نراها فى العصر الحديث ، ويكفى أن نرى ماكتبه هو نفسه عن صفات المؤرخ اذ يقول : ان المؤرخ « .. يحتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط » (١)

« ... (و) يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار (العصور) فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة مابينه وبين الغائب من الوفاق أو بون مابينهما من الخلاف وتعليل المتفق منهما والمختلف والقيام على أصول الدول والملل والمبادىء وظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل خبرة وحينئذ يعرض خبر المنقول على

ماعنده من القواعد والأصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه (أى حكم بزيفه) واستغنى عنه ... » (٢) .

وهذه القواعد هى ما نتطلبه فى العصر الحديث فى البـــاحث فى ميدان علم التـــاريخ (٣) .

الف ابن خلدون كتابه فى التاريخ لأن عصره (يحتاج) « ... من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التى تبدلت لأهلها ويقفو مسلك السعودى ليكون أصـــلا يقتـــدى به من يأتى من المؤرخين من بعده ... » (٤)

والسؤال الآن .. هل نجح ابن خلدون فى مسعاه ؟.. أو هـــل صحيح أن مستوى التأليف التاريخى عند ابن خلدون كان دون مستواه فى تأليفه للمقدمة ؟ وللاجابة على هذا السؤال نشير الى أن ابن خلدون كتب كتابه مرتكزا على أخبـــار المغرب ثم تحدث أو بحث فى أخبار من عاصر دولهم من الحضـــارات العالمية . ولذلك كان تأليفـــه فى دائرة اهتمامه الأولى عالى المستوى جديرا بالنسبة الى ابن خلدون وكلما ابتعـــدنا عن مركز هذه الدائرة تسرب التشويش وازداد اختلاط الحقيقة بالخيال واقترب من مستوى مصـــادره بل وفى أحيـــان كثيرة اكتفى بالنقل عنها أو وقع فى أخطاء أخذها هو على المؤرخين السابقين ولامهم عليها . وقد اعتذر عن ذلك عندما كتب « ... أنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه (.. من أحوال الخليقة .. الخ) فى هذا القطر المغربى اما صريحا أو مندرجا فى أخباره وتلويحا لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغـــرب وأحوال أجيـــاله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ماسواه من الأفكار ، لعـــدم اطلاعى على أحوال الشرق وأممه وان الأخبار المتناقلة لاتفى كنه ما أريده منه .. » (٥)

وهكذا نجد تاريخ الاغريق بعيد بعض الشىء عن مركز دائرة اهتمام ابن خلدون ومن ثم نجد كتابته فيه لا تخضع لـــكل القواعد التى وضعها ابن خلدون فى مقدمته وطبقها فى أجزاء كثيرة من عمله .

ورغم أن الاطار العـــام لتاريخ هذه البلاد صحيح الا أن تفاصـــيل أحداث هذا التاريخ بها خلط وأخطاء لا مبرر لها فى بعض الأحيان .ولست

فى مجـــال الدفاع عن عمل ابن خلدون ولا فى مجال البحث عن أســـباب لأخطائه ، ولـــكن هذا لا يمنع أن نشير الى أن كبر حجم عمله وابتعـــاد تاريخ الاغريق عن مركز دائرة اهتمامه وقصور مصادره عن هذا التاريخ كانت فيما يبدو أسبابا لمـــا أورده من أخطاء . ومع ذلك يبقى عمل ابن خلدون عن الاغريق أو غيرهمشيئا جديدا اذا قورن بما ساد قبله أو عاصره من النقل دون تمحيص وخلط الأخبار بالأساطير دون تدخل من المؤرخ برأى او برفض لشىء غير منطقى (٦) .

ذكر ابن خلدون اسمى هرشيوش وابن سعيد كمصـــدرين لمعلوماته عن الفترة التى نحن بصددها ، ويبدو أنه كان يحس مافى حـــديثهما من الخلط وعدم الدقة فكتب هو فى بداية الفصـــل مجملا لمـــا صـــدقه من اخبارهما ثم أعقبه بأقوال كل منها ، ويعتبر هذا المجمل هو أصح ماذكر فى هذا الجزء .

يقول ابن خلدون فى موجزه عن (دولة يونان والاسكندر منهم وما كان لهم من الملك والسلطان الى انقراض أمرهم) أن بلادهم تقع فىالناحية الشمالية من المعمور فى المنطقة المحصورة بين الأندلس غربا وبلاد الترك شرقا وتقع بلاد الاغريق الى الغرب من بلاد اللاتين ويفصل بينهما خليج. وأشار ابن خلدون الى أن تاريخ الاغريق ســـابق على تاريخ الـــلاتين . وأشار الى نجاح الفرس فى الاستيلاء على مدن اغريقية كثيرة خضعت له ودفعت الجزية للخزانة الفارسية .

ثم تحدث عن نجاح أثينا فى فرض سيطرتها على بلاد الاغريق بعـــد هزيمتها للشعب اللاكيدايمونى (الأســـبرطى) وكيف كانت أثينـــا مكانا لاجتماع الحكماء والمفكرين الاغريق . ولـــكن أيام أثينا ولت وقامت دولة مقدونية ــ استطاع ملكها فيليب أن يزهم كل الاغريق ويضم بلادهم لملكته، ثم فكر فى السير لحرب الفرس الذين كانوا مايزالون أصحاب سيطرة على بعض المدن الاغريقية (مدن أيونيا) ولـــكنه قتل قبل القيام بهذه الحرب ، فخلفه ابنه الاسكندر الأكبر الذى نجح فى الابقاء على سيطرة مقدونيـــا على بلاد الاغريق والذى دوخ دارا ملك الفرس وصارعه حتىمقتله وقضى على دولته ونجح فى ضم الأناضول والشام ومصر وبابل وفارس وولاياتها حتى البنجاب ، وحارب فى الأخيرة الملك بورس Porus وهزمه . ثم عاد

الى بابل حيث مات هناك ولم ينس ابن خلدون أن يشير الى بناء الاسكندر لأكثر من مدينة باسم الاسكندرية ، كما اشار الى تتلمذ هـذا على ايدى أرسطو اكبر حكماء الخليقة (٧) .

والجدير بالملاحظة أن هـذه الأخبار التى ذكرها ابن خلدون كلهـا صحيحة سواء التحديد الجغرافى لمكان بلاد الاغريق أو تطور الأحـداث التاريخية . ولـكن ابن خلدون لم يكتب ذلك فقط بل ذكر تفاصيل معارك وأحداث ، وأسماء رجال ومدن ، وقـدم فى بعض الأحيـان أرقاما عن أعداد الجيوش أو السنوات عندئذ تسلل الخطأ الى عمله ووضح التشويش والخلط فيما كتبه نقلا عن مصادره .

ومع ذلك فلا يجب أن نقسو فى نقد ابن خلدون فانه يبقى من أكثر المؤرخين دقة اذا قورن بغيره من المؤرخين الذين عاصروه أو سبقوه حتى بأعظم مؤرخى الاغريق والرومان خلال فترات ازدهار حضارتهم .

توقفت عند هذا الحد فى هذا المقال على أن نكمل عـرض وتحقيق ماذكره ابن خلدون عن أخبار الاغريق فى المقال الثانى باذن الله .

وقبل أن انهى هذا التمهيد تجدر الاشارة الى الجهد الممتاز الذى بذله ابن خلدون فى محاولة كتابة الأسماء اقرب مايكون الى اصلها وهو أمـر يعلى من شأن عمله اذا قيس بما كان يفعله معاصروه .

الخبر عن دولة يونان والاسكندر منهم
وما كان لهم من الملك والسلطان الى انقراض مرهم (*)

هؤلاء اليونانيون المتشعبون الى الغريقيين (٨) واللطينيين (٩) كمـا قلنـاه ، اختصوا بسكنى النـاحية الشمالية من المعمور مع اخوانهم من سائر بنى يافث كلهم كالصقالبة والترك والفرنجة من ورائهم وغيرهم من شعوب يافث (١٠) ولهم منها الوسط مابين جزيرة الأندلس الى بلاد الترك بالمشرق طولا ، وما بين البحر المحيط والبحر الرومى عرضـا فمواطـن اللطينيين منهم فى الجـانب الغربى ومواطن الغريقيين منهم فى الجـانب الشرقى والبحر بينهما خليج القسطنطينية (١١) .

وكان لــكل واحد من شعبى الغريقيين واللطينيين منهم دولة عظيمة مشهورة فى العالم، اختص الغريقيون باسم اليونانيين وكان منهم الاسكندر المشهور الذكر أحد ملوك العــالم (١٢) . وكانت ديارهم كما قلنا بالناحية الشرقية من خليج القسطنطينية (١٣) بين بلاد الترك ودروب الشام (١٤) ، ثم استولى على ماوراء ذلك من بلاد الترك والعراق والهند ثم جال ارمينية وما وراءها من بلاد الشام وبلاد مقدونية ومصر والاسكنـــدرية (١٥) وكان ملوكهم يعرفون بملوك مقدونية (١٦) .

وذكر هرشيوش (١٧) مؤرخ الروم من شــعوب هؤلاء الغريقيين بنو لجدمون (١٨) وبنو انتناش (١٩) قال : واليهم ينسب الحكماء الأنتاشـــيون وهم ينسبون لمدينتهم أجرة أنتـــاش قال ومن شـــعوبهم أيضا بنو طمان ولجدمون كلهم بنو شمالا بن ايشاى وقال فى موضـــع آخر لجدمون أخو شمالا (٢٠) .

وكانت شعوب هذه الأمة قبل الفرس والقبط وبنى اسرائيل متفرقـــة بافتراق شعوبها (٢١) وكان بينهم وبين اخوانهم اللطينيين فتن وحروب (٢٢) ولما استحفل ملك فارس لعهد الكينية أرادوهم على الطاعة لهم فامتنعوا وغربهم فارس الفرس (٢٣) فاستصرخوا عليهم القبط فسالموهم الى محاربة الغريقيين (٢٤) حتى اذلوهم وأخذوا الجزى منهم وولوا عليهم (٢٥) .

ويقال ان افريدون ولى عليهم ابنه وأن جدة الاسكنـــدر لأبيـــه من أعقابه (٢٥) ويقال أن بختنصر لـــا ملك مصر والمغرب أنفوه بالطاعة (٢٧) وكانوا يحملون خراجهم الى ملك فارس عددا من كرات الذهب أمثال البيض ضريبة معلومة عليهم فى كل سنة (٢٨) .

ولـــا فرغوا من شأن أهل فارس وأنفوا ملكهم بالجزى والطـــاعة صرفوا وجوههم الى حرب اللطينيين (٢٩) ثم استحفل أمر الايشائيين من الغريقيين ولم يكن قوامهم الا الجرمونيون فغلبوهم (٣٠) وغلبوا بعـــدهم اللطينيين والفرناسيين والأركادين (٣١) واجتمـــع اليهم ســـائر شـــعوب الغريقيين واعتز سلطانهم وصار لهم الملك والدولة (٣٢) .

وقال ابن سعيد : ان الملك استقر بعد يونان فى ابنه اغريقش فى

الجانب الشرقى من خليج قسطنطينية وتوالى الملك فى ولده (٣٣) ، وقهروا اللطينيين والروم(٣٤) ودال ملكهم فى أرمينية وكان من أعظمهم هرقل الجبار بن ملكان بن سلقوس بن اغريقش ويقال انه ضرب الأتاوة على الأقاليم السبعة وملك بعده ابنه يلاق واليه تنسب الأمة اليلاقية ، وهى الآن باقية على بحر سودان . واتصل الملك فى عقب يلاق الى أن ظهر اخوانهم الروم واستبدوا بالملك وكان أولهم هردوس ابن منطرون بن رومى ابن يونان فملك الأمم الثلاثة ، وصار اسمه لقبا لكل من ملك بعده . وسمت به يهود الشام كل من قام بأمرها منهم (٣٥) .

ثم ملك بعده ابنه هرمس : فكانت له حروب مع الفرس الى أن قهروه وضربوا عليه الأتاوة ، فاضطرب حينئذ أمر اليونانيين وصاروا دولا وممالك وانفرد الاغريقيون برئيس لهم ، وصنع مثل ذلك اللطينيون ، الا أن اللقب ملك الملوك كان لملك الروم . ثم ملك بعده ابنه مطربوش فحمل الاتاوة لملك الفرس (٣٦) لاشتغاله بحرب اللطينيين والاغريقيين . وملك بعده ابنه فيلفوش (٣٧) ، وكانت أمه من ولد سرم من ولد افريدون الذى ملكه أبوه على اليونان فظهر (٣٨) وهدم مدينة اغريقية وبنى مدينة مقدونية (٣٩) فى وسط الممالك بالجانب الغربى من الخليج (٤٠) وكان محبا للحكمة ، فلذلك كثر الحكماء فى دولته (٤١) .

وقال هروشيوش ان أباه فيلفوش انما ملك بعد الاسكندر بن تراوش أحد ملوكهم العظماء (٤٣) وكان فيلفوش صهرا له على أخته لينبادة بنت تراوش (٤٤) وكان له منها الاسكندر الأعظم .

قال وكان الاسكندر بن تراوش لعهد أربعة آلاف وثمانمائة من عهد الخليقة ولعهد أربعمائة أو نحوها من بناء رومة . وهلك وهو محاصر لرومه قتله اللطينيون عليها لسبع سنين من دولته (٤٥) .

فولى أمر الغريقيين والروم (٤٦) من بعده صهره على أخته لينبادة فيلفوش ابن آمنته بن هركلش (٤٧) .

واختلفوا عليه فافترق أمرهم وحاربهم الى أن انقادوا اليه وغلبهم على سائر أوطانهم (٤٨) وأراد بناء القسطنطينية فمنعه الجرمانيون بما

كانت لهم فقاتلهم حتى استلحمهم (٤٩) ، واجتمع اليه سائر الروم والفريقيين من بنى يونان . وملك مابين المانية وجبال أرمينية (٥٠) .

وكان الفرس لذلك العهد قد استولوا على الشام (٥١) ومصر ، فاعتزم فيلفوش على غزو الشام ، فاغتاله فى طريقه بعض اللطينيين وقتله بثأر كان له عنده (٥٢) .

وولى من بعده ابنه الاسكندر ، فاستمر على مطالبة بلاد الشام (٥٣)، وبعث اليه ملوك فارس فى الخراج على الرسم الــذى كان لعهد أبيــه فيلفوش فبعث اليه الاسكندر أنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض الذهب وأكلتها (٥٤) .

ثم زحف الى بلاد الشام واستولى عليها ، وفتح بيت المقدس وقرب فيه القربان وذلك لعهد مائتين وخمسين من فتح بختنصر اياها (٥٥) وامتعض أهل فارس لانتزاعه اياها من ملكتهم (٥٦) فزحف اليه دارا فى ستين الفا من الفرس ، ولقيه الاسكندر فى ستمائة الف من قومه (٥٧) ، فغلبهم وفتح كثيرا من مدن الشام ، ورجع الى طرسوس فزحف اليه دارا ولقيه عليها فهزمه الاسكندر وافتتح طرسوس (٥٨) ومضى ، وبنى الاسكندرية (٥٩) ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله ، وتخطى الى فارس فملك بلادها ، وهدم مدينة الملك بها وسبى أهلها (٦٠) .

وأشار عليه معلمه أرســطو بأن يجعل الملك فى أســافلهم لتتفرق كلمتهم ، ويخلص اليه أمرهم . فكاتب الاسكندر ملوك كل ناحية من الفرس والنبط والعرب وملك كل ناحية وتوجه ، فصاروا طوائف فى ملــكهم . واستبد كل واحد منهم بجهة كان ملكها لعقبه (٦١) .

ومعلمه أرسطو هذا من اليونانيين ، وكان مسكنه أثينا ، وكان كبير حكماء الخليقة غير منازع . أخذ الحكمة عن أفلاطون اليونانى . كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس ، فسمى تلاميذه بالمشائيين (٦٢) .

وأخذ أفلاطون (٦٣) عن سقراط ، ويعرف بسقراط الذي بسكناه في

دن من الخزف اتخذه لرهبانيته وقتله قومه اهل يونان مسموما لمـــا نهاهم عن عبادة الأوثان (٦٤) .

وكان هو اخذ الحكمة عن فيثاغورس (٦٥) منهم. ويقال أن فيثاغورس اخذ عن تاليس حكيم ملطية (٦٦) .

واخذ تاليس عن لقمان (٦٧) ومن حكماء اليونانيين دوميقراطيس (٦٨) وانكستثياغورس (٦٩) وكان مع حكمته مبرزا فى علم الطب ، وبعث فيـــه بهمن ملك الفرس الى ملك يونان ، فامتنع من ايفاده عليه ضنانة به .

وكان من تلامذته جالينوس لعهد عيسى عليه السلام ، وماتبصقلية ودفن بهـــا (٧٠) .

ولمـــا استولى على بلاد فارس تخطاها الى بلاد السند فملكها وبنى بها مدينة سماها الاسكندرية (٧١) ثم زحف الى بلاد الهند فغلب علىاكثرها وحاربه فور ملك الهنـــد فانهزم ، وأخذه الاسكنـــدر أسيرا بعـــد حروب طويلة (٧٢) ، وغلب على جميـــع طـــوائف الهنـــود ، وملك بلاد الصين والسند (٧٣) وذللت اليه الملوك وحملت اليـــه الهـــدايا والخراج من كل ناحية . وراسله ملوك الأرض من أفريقية والمغرب ، والأفرنجة والصقالبة والسودان ثم ملك بلاد خراسان والترك ، واختط مدينة الاسكندرية عند مصب النيل فى البحر الرومى (٧٤) ، واستولى على الملوك يقال علىخمسة وثلاثين ملكا (٧٥) ، وعاد الى بابل فمات بها يقال مسموما سمه عامله على مقدونية لأن امه شكته الى الاسكندر ، فتوعده فأهدى اليه سما وتناوله، فمات لاثنتين واربعين سنة من عمره ، بعد أن ملك اثنتى عشرة سنةسبعا منها قبل مقتل دارا وخمسا بعده .

خاتمـــة

يساهم هذا البحث فى لفت انظار الدارسين الى ماكتب ابن خلدون غير المقدمة وتاريخ البربر ، فابن خلدون يعتبر ظاهرة فريدة بين المؤرخين المسلمين ، قرأ ودرس ، قارن ونقد ، وافق ورفض ، واستطاع فى النهاية أن يقدم عملا جيدا ، ويكفى أن نقول ان ماذكـــره ابن خلدون فى تاريخ الاغريق لايقل فى مستواه عما كتبه المؤرخون الأغريق أو اللاتين أنفسهم، واذا كان قـــد تسلل الى عمله بعض الخلط أو الأساطير ، فقد تسلل الى أعمالهم . ولا يعتبر هذا عيبا فى كتـــابة ابن خلدون اذ كان ذلك طبيعـــة مصادره ومع ذلك نجح ابن خلدون فى كثير من الأحيان أن يقلل من تسلل مثل هذه الأساطير الى عمله .

وبدراستنا للمعلومات الواردة عند ابن خلدون عن الاغريق يتضح لنـــا أنه نجح الى حـــد كبير فى الالمام بأهم أيامهم والتعرف على أشـــهر أحداثهم ، دون أن يذكر شيئا مثيرا أو مجهولا من قبل للباحثين المحـــدثين اللهم الا اذا صدق ما قاله عن موت فيثاغورس فى صقلية وهو خبر كان مجهولا من قبل .

وأخيرا يعتبر ماذكره ابن خلدون عن الاغريق نموذجا للمعلومات التى اتيحت لقراء القرن الرابع عشر الميلادى وهى معلومات جيدة تستطيع أن تقدم صورة واضحة ع نواحدة من أهم الحضارات القديمة .

* * *

الحـــواشى

(*) ولد ابن خلدون بتونس سنة ١٣٣٢ م ومات بالقاهرة ١٤٠٦م.

أنظر التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا منشورات دارالكتاب اللبنـــانى .

(١) ابن خلدون ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، روجعت وقوبلت على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء ، المكتبة التجارية الــكبرى ، القاهرة د.ت. ، ص ٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٨ .

(٣) راجع حسن عثمان ، منهج البحث التاريخى ، ط٣ ، القـــاهرة ١٩٧٠ . المقدمة وفيها بحث فى صفات المؤرخ ، والفصل الأول عن العلوم المساعدة ، والفصول من الرابع الى الثامن فى نقد المادة العلمية ، والفصل الثانى عشر فى الاجتهاد ويمكن مقارنة ذلك بما جاء فى مقدمة ابن خلدون ، الطبعة المذكورة ، من ص ٣ الى ص ٣٣ .

(٤) ابن خلدون ، نفس المرجع ص ٣٣ .

(٥) نفس المرجع ص ٣٣ .

(٦) للمقارنة بين منهجيـــة ابن خلدون ومن سبقوه أو عاصروه من الــكتاب المسلمين أنظر : حسن الساعاتى ، علم الاجتماع الخلدونى ، بيروت ١٩٧٢ . وقد أورد مقارنة بين منهج كل من الطبرى والمسعودى والمقريزى وابن خلدون .

(٧) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، القسم الأول ، المجلد الثانى بيروت ١٩٥٦ صص ٣٧٨ — ٣٨٣ .

(*) ذكر ابن خلدون فصلا عن تاريخ الاغريق حتى سقوط آخر الدول الهلينستية فى يد روما خلال القرن الأول ق.م وهذا البحث يتعرض بالبحث للجزء الأول من هذا الفصل وهو الذى يشمل تاريخ بلاد الاغريق حتى موت الاسكندر الأكبر .

(٨) ذكر ابن خلدون نسب الاغريق واللاتين حسبما جاء عند النسابين وما جاء فى التوراة وليس هذا جديد ، ولكن مايهمنا هنا هو أن ابن خلدون عرف كلمتى الاغريق واليونان والأولى اسم أطلقه الرومان على الـ Graioi وهم جماعة من سكان بيوتيا فى بلاد اليونان ، وكانوا قد اشتركوا مع أهل

خالكيس فى بناء مستوطنة كوماى Cumae فى غرب ايطاليا ، ثم اتسع مدلول هذا الاسم بالزمن لكى يشمل جميع سكان بلاد اليونان . أما الكلمة الثانية (اليونان) فهى تحريف عــربى للفظ (أيونيون Iones) الذين كانوا أول من احتك من سكان بلاد اليونان ببلاد الشرق القديم ، وان كان يلاحظ أن ابن خلدون اعتقــد بأن الاغــريق فرع من اليونانيين استأثروا بالاسم دونهم والجدير بالذكر أن كلا الاسمين يعبران فى الوقت الحاضر عن مضمون واحد .

عبد اللطيف احمد على ، التاريخ اليونانى جا بيروت ١٩٧٣ ص٨ .

(٩) اللطينيون هم سكان سهل لاتيوم وهم من مجموعــة الشعوب الايطاليــة التى تضم بالاضــافة اليهم Umbri والسابيليون Sabeili كان اللاتين انشط المجموعات الثلاثة وقد استطاعت احدى مدنهم (روما) أن تتصدر كل المدن الأخرى فى ايطاليا وأن تفرض سيطرتها على شــبه الجزيرة خلال القرن الثالث ق.م ثم على منطقة البحر المتوسط كله خلال القرن الثانى والطريف هنــا أن ابن خلدون كتب اســم هــذا الشعب مستخدما حرف (ط) فكتب اللطينيون كما يفعل أهل المغرب حتى اليوم وقد تكرر استخدام ابن خلدون لحرف (ط) فيما ينطق فى المشرق (ت) فــكتب انطيوخس وكليوباطره وطيطوس ... الخ وهذا يعطى دليلا هاما على أن استخدام المغاربة المحدثين لهذا النطق ليست تأثيرا فرنســيا كما يبــدو للبعض ولــكنه أصيل فى المنطقة من قبل الاستعمار الفرنسى بعدة قرون للقراءة عن اللاتين ، انظر

ديورانت ، ول ، قصــة الحضــارة ، ترجمــة محمد بدران ج ٩ القــاهرة ١٩٧٣ .

والجدير بالذكر هنــا أن ابن خلدون قــد أكد على نسبة الاغريق واللاتين الى أصل واحد ، وهذا فى الواقع غير مؤكد تاريخيــا وان كان يتفق مع ما ذهب اليه المؤرخون الرومان من ربط تاريخهم بتاريخ الاغريق الأعلى ثقافة .

ومن المؤكد أن أشهر الأساطير الرومانية تقول ان أنياس Aenas أحد أبطال طروادة جال فى البحر بعد سقوط مدينته حيث أرسى فى قرطاج وقد هامت به ديدو مؤسسة قرطاج ولــكنه هجرها الى ساحل ايطاليــا حيث نزل بسهل لاتيوم وأسس مدينة Lavinium ثم أسس ابنه Ascanius مدينة البالونجا وقد أسس أحد أحفاد الأخير مدينة روما بعد بضعة أجيال . والواضح أن ابن خلدون قــد تأثر فى هــذا الرأى بما قرأه عن مصادره غير العربية وبخاصة هروشيوش .

عن الأسطورة اقرأ :

عبد اللطيف احمد علي ، روما ، القاهرة ١٩٥٨ صص ٢٢–٢٣ .

(١٠) هذه التقسيمات تتفق مع ماذهب اليه النسابون من رفع نسب الشعوب فى العالم كله الى نوح عليه السلام وقد ظلت هـذه النظرية سائدة لدى المؤرخين حتى بداية العصور الحديثة ، ولـكن ماتزال تأثيرات هـذه النظرية واضـحة فى تسمية بعض المجموعات اللغـوية كالسامية والحامية الخ .

(١١) المعروف أن الاغريق سـكنوا بلاد اليونان وجزر بحر ايجـة والسواحل الغربيـة لآسـيا الصغرى بالاضـافة الى مستعمراتهم على الشواطىء المختلفة ، أما اللاتين فقد سكنوا منطقة سهل لاتيوم فى وسط غرب ايطاليا وان امتد نفوذ مدينـة روما اللاتينيـة بعـد ذلك على كل ايطاليا . ومن هذا نلاحظ أن التحديد العام للموقع الجغرافى لبلاداليونان وايطاليا صحيح مع ملاحظة أن عرض هذه البلاد بأنه مابين البحر المحيط (المحيط الاطلنطى) والبحر الرومى (البحر المتوسـط) متأثر بالخرائط الجغرافية التى كانت معروفة فى زمن ابن خلدون والتى كانت تصـور البحر المحيط ممتدا شمال اليابس فى القارة الأوربية . ولـكن وقع ابن خلدون فى خطأ عنـدما اعتقد أن خليج القسطنطينية هو الذى يفصل بين الأرضين . واذا بدأنا بتحديد مكان خليج القسطنطينيـة فاننى أرجح أن يكون ابن خلدون قـد قصد به بحر ايجه الذى قامت بالقرب من طرفـه الشمالى مدينـة القسطنطينية ولـكن المعروف أن بحر الادرياتيـك هو الذى يفصل بلاد اليونان عن ايطاليا وليس بحر ايجه .

وأخيرا أعتقد أن ابن خلدون قصد ببلاد الترك شبه جزيرة الأناضول حيث كان الأتراك العثمانيين قد بدأوا الاستقرار فيها .

(١٢) يقصد الاسكندر الأكبر (٣٥٦ — ٣٢٣ ق.م) .

(١٣) أنظر الحاشية رقم ١١ .

(١٤) اشارة النص هنـا الى وقوع بلاد الاغـريق بين بلاد الترك ودروب الشام خطأ جغرافى لا يتفق مع فقرة سابقـة وردت فى النص حددت وقوع تلك البلاد مابين جزيرة الأنـدلس (غربا) الى بلاد الترك (شرقا) والمرجع أن هذه خطأ فى النسخ فمن المستبعد أن ينـاقض ابن خلدون نفسه فى صفحة واحدة .

(١٥) من الواضح أن ابن خلدون لايذكر البلاد التى خضعتللاسكندر الأكبر حسب تواريخ خضوعها ولـكنه استطاع أن يحصى أغلب الأقطار التى خضعت للاسكندر دون ترتيب اذا ما استثنينا أرمينية الى ربما أعلنت خضوعها دون أن يسير اليها — ومع ذلك يلاحظ أن ابن خلدون لم يذكر خضوع بلاد فارس نفسها وان كان هذا مفهوما بداهة ، خاصة انه ذكره على لسان هرشيوش بعد ذلك (راجع الحاشية رقم — ٦١) .

تبقى ملاحظة هامة وهى ان ابن خلدون أشـار الى أن الاسكنـدر « جال فى مصر والاسكندرية » .

ورغم أن هذا الاسم يتفق مع ماعرفت به مصر خلال العصر الهلنيستى اذ كان ينظر الىالاسكندرية كجزء منفصل عنمصر وكانيقال (الاسكندرية القريبة من مصر Alexandria Ad Ægyptum الا أن الصواب جانب ابن خلدون فى ذكره للاسكندرية حيث يفهم من هـذا الخبر ـ خطأ ـ أن الاسكندرية كانت قائمة وقت قدوم الاسكندر الى مصر . ولـكن الثابت تاريخيا أن الاسكندر أمر بتخطيط مدينة الاسكندرية وقد أشار ابن خلدون الى ذلك فى نفس النص فى مكان آخر (راجع الحاشية رقم ٧٥) .

ديورانت ، ول ، المرجع السابق ، ص ٥٢٧ .

(١٦) من المعروف تاريخيا أن بلاد الاغريق خضعت لسيطرة مقدونيا منذ عهد فيليب الثانى والد الاسكندر ، وهذه الحقيقة التاريخية تتفق تماما مع ماذكره ابن خلدون فى هـذه الفقـرة من أن ملوكهم (أى ملوك بلاد الاغريق) كانوا يعرفون بملوك مقدونية . وقد أكد ابن خلدون ذلك فى فترة أخرى تالية نسبها لابنسعيد أشار فيها صراحة الى أن فيليبالمقدونى قد هدم مدينة اغريقية وأقام مدينة مقدونية (أنظر الحاشية رقم ٣٩) .

(١٧) هرشيوش أهم مصدر غير عربى لابن خلدون فيما ذكره عن الاغريق واللاتين ومصدره الوحيد فيما ذكره عن القوط . وقد ورد اسـم هذا المؤرخ لدى ابن خلدون ـ أو ناسخى عمله ـ فى عدة صور منهـا (أهرشيوس ـ هيروشيوس ـ هروشيوس ـ هرشيوش) .

واذا كان من السهل علينا أن نتعرف على مصادر ابن خلدون العربية من أمثال المسعودى والطبرى والبيهقى وابن سعيد وابن العميد وغيرهم فان التعرف على هرشيوش هـذا أمر صعب فى ظل المعلومات القليلة التى أوردها ابن خلدون عنه .

وقد شاع بين الباحثين الربط بين هرشيوش هذا وباولوس أوروزيوس Paul Orosus مؤرخ أسـبانيا الـذى ولد فى Tarragona فى عام ٣٩٠ م والتحق بالـكنيسة كاهنـا وشارك بحماس فى صراعات عصره حول حقيقة الايمان . واتصل بالقديس أوغسطين فى أفريقيا ونال تقديره والف كتابا فى تاريخ العالم بعنوان Historiarum libri Vii Contra Paganos الا أن هذا الربط فيـه نظر من واقع ماذكـره ابن خلدون نفسـه عن هرشيوش الذى اعتمد عليه . فبينما اختفى أوروزيوس من الحياة العامة حوالى عام ٤١٨ م ولم يعد أحد يذكره نجد أن هرشيوش قد ذكر أحداثا عن القرن السابع الميلادى نقلها ابن خلدون مثل قوله عند ذكره لتـاريخ الهجرة المحمدية « .. وقال هرشيوش أن ملك هرقل كانت الهجرة فى تاسعته وسماه هرقل ابن هرقل ابن انطونيوس لستمائة واحدى عشرة من تاريخ المسيح ، ولألف ومائة من بناء رومه .. » ص ٤٥٩ جـ ٢ كمـا نقل ابن خلدون معلوماته عن القوط من كلام هرشيوش اذ يقول « ..هذه سياقة الخبر عن هؤلاء القوط نقلته من كلام هرشيوش .. وهو أصـح مارأيناه فى ذلك .. » ص ٤٩٣ جـ٢ وتابع ابن خلدون ماذكره عن القوط

معتمداً على هرشيوش حتى عهد زدريق « .. وهو الـذى دخل عليـه المسلمون وغلبوه على ملك القوط ، وملكوا الأندلس . ولذلك العهد كان الوليد بن عبد الملك حسبما نذكره عند فتح الأندلس ... » ص ٤٩٣ جـ٢ .

وهكذا نرى أن المفروض ــ فى ضوء المعلومات التى يقـدمها ابن خلدون ــ أن يكون هرشيوش مؤرخاً عاصر فترة الصراع الأولى بين دولة الاسلام والدولة البيزنطية، بينما اختفى أوروزيوس منذ الربع الأول للقرن الخامس الميلادى .

ومع ذلك فهناك احتمال بأن يكون المقصود هنا هو أوروزيوس نفسه ولـكن أضيفت الى أعماله أجزاء جديدة ليست من تأليفه وتم ذلك فىوقت لاحق . وهذا الاحتمال لا يمكن استبعاده اذ أن ابن خلدون يشير الى أن « .. خبر هرشيوش مقدم لأن واضعيه مسلمان كان يترجمـان لخلفـاء الاسلام بقرطبة وهمـا معروفان ووضعا الـكتاب ص ٤٥٢ جـ٢ ... » رغم أن ابن خلدون لم يوضح صراحة اذا كان المقصود بالوضع فى هذه الفقرة هو مجرد الترجمة أم الاضافة .

على كل حال فأيا كانت حقيقة شخص هرشيوش فالواضح أنهمؤرخ جيد يقترب من الصواب فى كثير مما يذكره ولـكن هـذا لا يمنع تسلل الأساطير واختلاطها بالأحداث التاريخية عنده فى بعض الأحيان حيث كان ذلك هو طبيعة الـكتابة التاريخية فى ذلك العصر .

والحديث عن هرشيوش يجعلنا نتساءل كيف وصل عمله أو أعماله الى ابن خلدون وفى أى اللغات قراها ؟ ومرة أخرى نعود لمـا ذكره ابن خلدون من شذرات فنجد انه أشـار صراحـة الى ان عمل (أو أعمال) هرشيوش قد ترجم الى اللغة العربيـة ثلاث مرات مرة للحكم المستنصر من بنى امية (ت أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) وترجمه له قاضى النصـارى وترجمانهم فىقرطبة ، مرة ثانية ترجم للمأمونحينما بحث عن علومالاغريق التى ذهبت الا مابقى بأيدى حكمائهم فى كتب خزائنهم . وهناك ترجمـة ثالثة ــ ربما الحقت بها اضافات ــ وهى التى اطلع عليها ابن خلدون ، اتمها رجلان مسلمان كانا يعملان فى بلاط ملوك الاسلام فى قرطبة .

عن باولوس أوروزيوس راجع :

(أ) حسين مؤنس ،فجر الأندلس، القاهرة ،١٩٥٩ . صص٣٠ــ٣١

La Rouse Xxeme Siecle.

(ب)

(جـ) وراجع أيضا ابن خلدون ، المرجع السابق المجلد الثانى صص ١٦٩ ، ٣٨٨ ، ٤٠٢ .

(١٨) من الواضـح أن لجـدمون تحـريف لكيدايمون Lacedaimon وهو سهل فى شبه جزيرة البيلوبونيز ، خضع لسيطرة الدوريين فى القرن

الحادى عشر ق.م حيث أنشأوا فيه مدينة أسبرطه التى صارت أسطورة عسكرية بما خطته لنفسها من نظام صارم فى الحياة . وقد عرف مواطنو هذه المدينة بالأسبرطيين ولكنهم كانوا يعرفون أيضا باللاكيدامونيين .

(١٩) أن ربط بنو لجدمون بسكان سهل لكيدايمون يدفعنا الى الربط دون مجازفة بين أنتناش التى ذكرت فى المتن وأثينا حيث كانت الأخيرة هى المنافس التقليدى لاسبرطة . ويرجح هذا الربط حديث ابن خلدون عن الحكماء الانتاشيون والمعروف أن أثينا كانت جامعة بلاد الاغريق وملتقى مفكريها ومشرعيها . ومع ذلك يلاحظ أن ابن خلدون ذكر أثينا بعدة قراءات فذكر اثينا مثلا فى ص ٣٨٢ جـ٢ وذكرها باسم اثينوس فى ص ٤١٨ جـ ٢ كما ذكرها أنتناش فى النص الذى نحن بصدده ، وأرجح أن يكون ذلك بسبب اختلاف مصادره وناسخيه .

(٢٠) لم استطع تحقيق الأسماء المذكورة باستثناء لجدمون وأنتناش، ولكن المؤكد أن هذه الأسماء لها أصل حرفت عنه ، وهو مانلمسه فى كل ماكتبه ابن خلدون .

(٢١) من المعروف أن التاريخ الاغريقى يتسم بعدم تحقيق أى وحدة سياسية بين أجزاء تلك البلاد حتى عهد فيليب الثانى ٣٥٧ ق.م. ولذلك فان كل تاريخ هذه الأمة السابق على ذلك الوقت هو تاريخ استقلال المدن الاغريقية ، وبالطبع يدخل فى ذلك التاريخ المبكر لتلك البلاد الذى عاصر مصر القديمة أو قيام دولة بنى اسرائيل أو وقت المد الفارسى . وعلى ذلك يمكن أن نؤكد صحة ماذكره ابن خلدون عن افتراق شعوب الاغريق .

(٢٢) وقع ابن خلدون فى الخطأ عندما أشار الى وجود مثل هذه الفتن والحروب المبكرة بين الاغريق واللاتين ، والمعروف أن أول اتصال للاغريق بايطاليا كان خلال القرن الثامن ق.م عندما بدأوا فى انشاء مستعمراتهم على الشاطىء الايطالى فى الغرب والجنوب ، وقد حدثت مواجهات بين الاغريق فى ايطاليا واللاتين ولكن كان ذلك فى القرن الثالث ق.م كما تعرضت بلاد الاغريق نفسها للتدخل الرومانى بل وسقطت بلاد الاغريق فى أيدى الرومان خلال القرن الثانى ق.م.

ومع ذلك فالمعروف أن أهل فوكايا Phocaea فى آسيا الصغرى قد اضطروا الى الهجرة جميعا الى مساليا (مرسيليا) عندما سقطت مدينتهم فى أيدى الفرس عام ٥٤٤ ق.م. وكانت مساليا مستوطنة أنشأها بعض ابناء فوكايا فى أوائل القرن السادس ق.م ولكن هذا التوسع لم يعجب الحلف الأترورى القرطاجى فتحرش بالأسطول الفوكايى وهزمه فى معركة الاليا Alalia فى عام ٥٣٥ ق.م وبذلك قضى على أى أمل للاغريق فى توسيع نطاق سيطرتهم فى الغرب .

Hatzfeld, J., Histoire de La Grèce Ancienne, Paris, 1975, P. 118.

ولا أستطيع أن أؤكـد أن ابن خلدون كان يشـير الى ذلك الصراع الاغريقى الاتروري وأنه أشار خطأ الى صراع بينهم وبين اللاتين .

(٢٣) قال ابن خلدون أن الكينية هى دولة الفرس التى غزت الاغريق والمعروف أن هذه الدولة كانت تسمى بالاخمينية (أو الاكمينية) ولا أدرى اذا كانت السكينية تحريف مقبول لهذا الاسم أم لا . على كل حال فان ابن خلدون يعلل تسميته تلك الدولة بالكينية بأن كل ملك من ملوكها كان يضاف الى اسمه (كى) والمضاف عند العجم متأخر عن المضاف اليه .

والمعروف أن الدولة الأخمينية قامت على أنقاض دون الميديين ،وقد استطاع قورش الثانى القضاء على استقلال ليديا تماما وهـدم عاصمتها فى عام ٥٤٦ ق.م ثم ثنى ببابل التى كانت تعانى من سوء الادارة وانتشار المجاعة فهزم ملكها بال شار أوصر وانتهى دور بابل كدولة مستقلة فى عام ٥٣٩ ق.م ، وقد استولى الملك الفارسى قمبيز الثانى على مصر فى عام ٥٢٥ ق.م وقد اصطدمت المصالح الفارسية بمصالح اغريق بلاد اليونان عندما حرضت أثينا — الجمهورية الفتية — اغريق آسـيا الصغرى على الثورة ضد الفرس . صمم دارا على غزو بلاد الاغريق ، وسير لهم جيشا وأسطولا . وقد لاقى الفرس مقاومة شديدة خاصة فى معركة مارثون عام ٤٩٠ ق.م التى انتصر فيها الاثينيون . وقد دفعت تلك المعركة الفرس الى الانسحاب مؤقتا دون أن يفقدوا مراكز ارتكازهم على الشاطىء الاسيوى ثم عادوا الى حرب أثينـا فى عام ٤٨٦ ق.م بتحالف مع اسبرطة ،ولكنهم هزموا فى معركة سلاميس عام ٤٨٠ ق.م مما ادى الى انسحابهم تماما من حلبة الصراع تاركين الفرصة لأثينا لبناء امبراطوريتها .

ولـكن يعود الفرس الى التـدخل فى شـئون بلاد الاغريق خلال النصف الثانى من الحروب البيلوبونيزيه (٤١٣ — ٤٠٤ ق.م) ولاتتوقف دولة الفرس عن التدخل فى الشئون الاغريقية الا حينما يغزوها الاسكندر الأكبر فى عام ٣٣٤ وما تلاها . والمرجح أن اشارة ابن خلدون فى المتن الى غزو الفرس لبلاد الاغريق مقصود به هنـا غزو مملكة ليديا فى عهد قورش الثانى فى عام ٥٤٦ ق.م ، وذلك لاشارته الى استغاثتهم بمصر وكانت ماتزال دولة مستقلة خلال الأسرة ٢٦ ، ولـكنها خلال الصراعات التالية كانت قد أصبحت ولاية فارسية .

هامرتن ، جون أ. ، تاريخ العالم ، ترجمة ادارة الترجمة بوزارة المعارف ، جـ٢ القاهرة ، د.ت.ص‌ص ٣٩٢ — ٤١٦ .

(٢٤) المقصود هنـا بالقبط المصريين ، ورغم أن هذه الكلمة تشير فى الوقت الحالى الى المسيحيين المصريين ، الا أن الواضح أن ابن خلدون يستخدمها فى هذه الفقرة لتدل على المصريين قبل المسيحية .

وهذا الاسم تحريف للاسم الاغريقى لمصر Ægyptus الـذى كـان تحريفا فيما يبدو لاسم مدينة قفط Coptos فى مصر العليا .

والعلاقة بين مصر وبلاد الاغريق فى العصور الفرعونية كانت علاقات صداقة ومودة خاصة فى العصر المتأخر من تاريخ مصر الفرعونية .

وقد شهدت العلاقات الاغريقية المصرية عدة تطورات ودية سابقة على الامتداد الفارسى فى غرب آسيا من ذلك استعانة بسماتيك الأول (٦٥٥ ق.م) وخلفائه بالمرتزقة الاغريق (كالكاريين والأيونيين) للعمل فى جيشه . كما اقام الاغريق مستوطنة نقراطيس بالقرب من العاصمة المصرية (سايس) لكى تكون مركزا للوجود الاغريقى فى مصر ، هذا بالاضافة الى معاهدة التحالف التى عقدت بين جيجس ملك ليديا وبسماتيك الأول تعهد فيها كل طرف بتقديم المساعدة للطرف الآخر فور احتياجه لها ، وتذكر المصادر أن مصر أعدت العدة لمساعدة الملك (جيجس) فى صد الغزو الأشورى الا أن سقوط هذا الملك سريعا حال دون اتمام هذه المساعدة .

وعندما قامت الدولة الفارسية الاخمينية وظهرت تطلعاتها الى التوسع ودب الخوف فى قلوب حكام العالم القديم ؛ سعى أحمس الثانى (٥٦٨ — ٥٢٦ ق.م) الى التحالف مع كرويسوس (قارون) ملك ليديا وبوليكراتيس طاغية ساموس وقيل أن اسبرطة وبابل شاركتا فى هذا الحلف ورغم أن هناك قصة تشير الى مشاركة مصر بعشرة آلاف جندى فى معارك حليفها الا أن ذلك مجرد احتمال ينفيه سقوط كرويسوس السريع ويبدو أن مصر شأنها فى ذلك شأن بابل وساموس نفضت يديهما من حلف صديقها كرويسوس خوفا من الفرس ومن غير المعروف اذا كانت مصر قد صنعت ذلك بنصيحة فارسية كما يشير ابن خلدون أم أنها اتخذت هذا الموقف دون تدخل أحد الأطراف . ولكن هذا الموقف لم يعف مصر من أن تصبح هى نفسها فريسة للغزو الفارسى فى عهد قمبيز عام ٥٢٥ق.م.

وبدراسة الفقرة التى أوردها ابن خلدون تبرز حقيقة اتفاقها مع الواقع التاريخى من حيث تعرض الاغريق للغزو الفارسى ثم استنجاد هؤلاء بالمصريين وموقف المصريين من الغزو الفارسى لليديا . ولكن تجدر الاشارة الى أن ابن خلدون ذكر هنا بداية الصراع الفارسى الاغريقى ، مع أغريق الشرق ولكنه لم يتابع تطورات هذا الصراع (أنظر الهامش ٢٣) . هامرتن ، جون ، أ ، المرجع السابق ص ص ٣٩٥ .

راجع عبد العزيز صالح ، الشرق الأولى القديم ، جـ١ مصر والعراق القاهرة ١٩٧٦ ص ص ٢٨٢—٢٨٣ وقد نقل رواية هيرودوتت وأشار الى

Herodotus, I, 77, II, 69 - 70, III, 39.

(٢٥) المعروف أن جزءا من العالم الاغريقى صار خاضعا للامبراطورية الفارسية ، فجميع المدن الاغريقية وآسيا الصغرى سواء كان أهلها دوريين أو أيوليين أو أيونيين كانت جزءا من مملكة ليديا — فيما عدا ميليتوس Miletus — ولما سقطت ليديا فى أيدى الفرس عام ٥٤٦

ق.م حاولت تلك المدن الاستقلال ولكن فشلت محاولتها واستطاع هارباجوس Harpagus نائب الملك الفارسى قورش الثانى أن يخمد ثورتهم بينما أعلنت ميليتوس ولاءها للفرس دون قتال .

وهكذا نلاحظ أن اشارة ابنخلدون الى خضوع الاغريق لحكام منالفرس ودفعهم للجزية ينطبق على ماحدث لاغريق آسيا الصغرى ولكنالمؤكد أيضا أنالفرس لم يستطيعوا فرضسلطانهم علىبلاد الاغريقالأصلية ماعدا تركيا ومقدونيا . ورغم أن الفرس حاولوا احتلال بلاد الاغريق الأصلية منذ عهد دارا فى ٥١٤ ق.م بل وقاموا بحملتين بريتين على تلك البلاد الأولى فى عام ٤٩٠ ق.م وقد هزمت فى مارثون كما انسحب الأسطول الفارسى دون أن يخوض المعركة بعد أن نجا من خدعة حاكها لاثينيون للايقاع به . أما الحملة الثانية فقد عبرت مضيق البسفور فى ٤٨٠ ق.م وقد تصدى لهذه الحملة حلف الاغريق بقيادة اسبرطة ورغم الدفاع البطولى للأغريق فقد سقطت أغلب بلاد الاغريق فى أيدى الفرس حتى أنهم دخلوا اثينا ودمروها الا أن نجاح الأسطول الاثينى فى الايقاع بالأسطول الفارسى فى معركة سلاميس ٤٨٠ ق.م غير الوضع تماما فأحبط الفرس واندفع الاغريق يحررون بلادهم حتىاستطاعوا مطاردة الفرس فىآسيا الصغرى وهزموهم فى معركة موكالى بالقرب من ميليتوس بآسيا الصغرى عام ٤٧٨ ق.م ولكن الواضح أن ابن خلدون يشير الىاغريق آسيا الصغرى ويتضح ذلك فى اشارته الى الاستعانة بالمصريين والى دفع الجزية للفرس ، وهما امران ينطبقان على ماحدث فى آسيا الصغرى دون بلاد الاغريق الأصلية .

انظر الحاشية رقم (٢٣) .

احمد فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ط ٢ القاهرة ١٩٦٣ صص ٢١٦ — ٢٢٩ .

فوزى مكاوى ، تاريخ العالم الاغريقى وحضارته ، الدار البيضاء١٩٨٠

(٢٦) المفروض أن افريدون هو نوح عليه السلام عند الفرس كما قال ابن خلدون فى ص ٣١٤ جـ٢ وهو بذلك سابق على عهد الاستعمار الفارسى لآسيا الصغرى فى عهد قورش ٥٤٦ ق.م ويعتبر ذكره هنا اقحاما له فى الخبر فى غير موضعه. والمفهوم من سياق الخبر أنافريدون كان أحد أسلاف الاسكندر الأكبر ، وبالبحث بين هؤلاء الاسلاف نصادف (فيدون) ملك ارجوس الذى اسس الدولة المقدونية فى عام ٨٠٣ ق.م ، والمرجح أن افريدون هو تحريف لفيدون ، وعلى ذلك فالصياغة الصحيحة للخبر تكون أن ((فيدون ولى عليهم ابنه) ، وهنا يكون الخبر غير متعلق

بالتدخل الفارسي فى شئون الاغريق ولـكنه حديث عن أخبار مقدونية ، ومن ثم يعتبر هذا الخبر نقله فى رواية ابن خلدون من حديث عن أخبار منطقة الى ذكر أخبار منطقة أخرى من بلاد الاغريق . وكثيرا مايلاحظ مثل هذه النقلات عند ابن‌خلدون نظرا لأنه لايفرق بين‌مناطق الاغريق ولا يعزل أخبار كل منها عن الأخرى .

(٢٧) بختنصر هو نبوخذنصر ٦٠٤ ــ ٥٦٢ ق.م الملك البابلى الذى أرتبط اسمه بسبى العبريين الى بابل . وقد دخل فى عدة حروب ضد الوجود المصرى فى غرب آسيا كان أولها فى عام ٦٠٥ ق.م عندما كان وليا للعهد وقد هزم الجيش المصرى فى قرقميش ثم تقدم نحو العريش . وهناك علم بموت أبيه فعاد سريعا الى بابل حيث تقلد زمام السلطة ثم سار فى اتجاه الشام حيث أخضع‌مدنه مثل دمشق وصور وصيدا وأورشليم ودمر عسقلان ، كما دخل معركة فى عام ٦٠١ ق.م ضد مصر التى كانت تشجع المتمردين على حكمه ولـكننا لا نعرف نتيجة هذه المعركة .

كما تذكر المصادر حملة أخرى له فى اتجاه مصر فى عام ٥٧١ ق.م ولـكننا لا نعرف الى أى مدى نجحت هذه الحملة أيضا وان كان هيرودوت يذكر أن الملك المصرى نخاو عقد معاهدة صداقة مع نبوخذنصر وأنه اتبعها بنسب تزوج بمقتضاه الملك البابلى بأميرة مصرية صارت ملكة على بابل .

وحديث ابن خلدون عن هذه الفترة جدير بالمناقشة اذ أنه يذكر نجاح نبوخذنصر فى الاستيلاء على مصر ــ وهذا أمر لم يتأكد تاريخيا ــ ولـكن المؤكد أنه استطاع أن يحيد مصر ويخرجها من حلبة الصراع فى غرب آسيا سواء بهزيمتها أو بالاتفاق معها . ومن ثم فليس هناك مايمنع من الوجهة المنطقية أن تخضع له ليديا ــ التى سبقت أن خضعت للاشوريين قبل نصف قرن وأن تدفع له الضرائب واشارة ابن خلدون الى المغرب مقترنا بمصر ليس فيها تجاوز كبير ، اذ كانت برقة تدور فى فلك النفوذ المصرى، خلال حكم ابريس وأحمس الثانى (٥٨٨ ــ ٥٢٦ ق.م) طـه باقر ، مقدمه فى تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ صص ٥٤٦ـ٥٤٩

عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

(٢٨) الجزية التى دفعتها ولايات آسيا الصغرى لدولة الأخمينيين الفارسية بلغت ١٧٦٠ تالنت من الفضة سنويا ، وتالنت وزنه تساوى ٦٠ منا والأخير وزنه قريب جدا من الرطل الانجليزى أى مايقرب من نصف كيلوجرام . وليس هناك مايدل على أن هذه الكمية من الفضة كانت تدفع على شكل كرات أم لا .

احمد فخرى ، المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٢٩) ربما كانت الاشارة هنا تعنى الصدام الاغريقى مع الاتروريين وليس اللاتين (انظر الحاشية رقم ٢١) .

(٣٠) اذا صح الربط بين أنتناش واثينـــا (أنظر الحاشية رقم ١٧) فالواضح أن اشارة النص الى (الجرمونيون) خطأ املائى وأن المقصود بها الـــ (لجدمونيون) أو (بنو لجدمون) الذين سبقت الاشارة اليهم وهم اللكيدامونيون أى أهل أسبوطه . والنص هنـــا يشـــير الى احداث بلاد الاغريق الأصيلة مما يعتبر نقله جديدة مفاجئة من آسيا الصغرى الى بلاد الاغريق .

والنص يشير الى التنافس الذى شهدته بلاد الاغريق بين كل من أثينا واسبرطة فى أعقاب نجاح الاغريق فى طرد الفرس من بلادهم .

فقد تفاخرت أثينا بتضحياتها من أجل حرية الاغريق مما أدى الىحنق اسبرطه عليها . وقد دفع هذا الحنق على أثينـــا ملك اسبرطه المتحالف مع الاثينيين الى محاولة خيانتهم بالاتفاق مع الفرس فى عام ٤٧٨ ق.م ، ولـــكن الأثينيين فضحوا أمره واضطروا الاســـبرطيين الى محاكمته وبذلك خرجت اسبرطه من حلبة التفاخر بالأمجاد تاركين لأثينا الفرصة لكى تصبح زعيمة لبلاد الاغريق .. وقد دفع هذا الموقف الجديد الاثينيين الى السعى للجمع بين الدفاع عن حرية الاغريق والمصلحة الخاصة بأثينـــا . وهكذا نشأت امبراطورية أثينـــا الأولى ولـــكن هذه السياسة الاستعمارية التى اتبعتها أثينا أدت الى وقوع واحدة من أكبر الحروب التى شملت العـــالم الاغريقى كله واستمرت لمدة سبعة وعشرون عاما (٤٣١ — ٤٠٤) أقصد بها حروب البيلوبونيز .

ديورانت ، المرجع السابق جـ٧ ، ص٦ وما بعدها .

واذا عدنا لنص ابن خلدون نجده يقرر واقع ماحدث حيث استفحل أمر الأثينيين الذين لم يكن منافسا لهم فى القوة ســـوى الأسبرطيين . وعندما نجح الأولون فى اخراج الاسبرطيين من حلبة الصراع انفتح أمامهم باب السيطرة على بقية اجزاء بلاد الاغريق .

(راجع هذه الحاشية من أولها) .

(٣١) هنـــا نصل الى أسماء الشـــعوب التى ذكرها ابن خلدون : اللطينيون وهم لم يدخلوا هذا الصراع أصلا (أنظر أيضا الحاشية رقم ٢٢) ثم الفرناسيين ولم أستطع تحقيقهم وربما كانوا الفرساليين اى أهل فرسالوس Pharsalus فى تسالیـــا ومن المحتمل جدا وقوعهم تحت نفوذ الأثينيين وأخيرا الأركاديين وهم أهل أركاديا فى وسط شبه جزيرة البيلوبونيز ومن المؤكد انهم وقعوا تحت النفوذ الأثينى .

(٣٢) السيد أحمد الناصرى ، المرجع السابق ص ٢٥٣ وما بعدها .

(٣٣) ماذكره ابن خلدون عن أصل الاغريق على لسان ابن ســـعيد هنـــا يتفق مع مايتردد عند النسابين ويتفق كذلك مع ماأخذ به ابن‌خلدون فى موجزه الذى ذكره فى البداية .

(٣٤) الحديث عن قهر اللاتينيين والروم يوضح شيئين : الشيء الأول أن ابن خلدون ذكر قهر الاغريق للاتين فى ملخصه متأثرا بما ذكره ابن سعيد . أما الشيء الآخر أن ابن خلدون قد استبعد حدوث الصراع مع الروم ولعله أدرك أن الروم الذين عرفهم المسلمون قد خلفوا الاغريق ولم يعاصروهم . والمعروف أن (الروم) هو الاسم الذى أطلقه المسلمون على الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

(٣٥) الفقرة السابقة تشير الى علو شأن ابن خلدون مقارنا بمصادره ، فبينما نجد ابن سعيد يخلط الأمور ويتحدث عن أشياء خرافية كخضوع كل العالم المعمور للاغريق ، والحديث عن الدولة اليلاقية ، ثم أسماء الملوك الذين لا يمكن التحقق من صحتهم نجد أن ابن خلدون يقدم الموضوع بموجز من عنده يذكر فيه الملامح الرئيسية لتاريخ الاغريق دون أن يبتعد كثيرا عن الحقيقة التاريخية المعروفة فى الوقت الحاضر .

(٣٦) ماذكره ابن خلدون فى هذه الفقرة على لسان ابن سعيد اسطورى فى أغلبه ومن الصعب التحقق من صحته .

(٣٧) تبدأ كتابات ابن سعيد تقترب من الواقع التاريخى من حديثه عن اعتلاء فيلفوش للعرش . وفيلفوش هذا هو دون شك فيليب الثانى والد الاسكندر الأكبر الذى اعتلى عرش مقدونيا بعد فترة اضطربت فيها الأمور فى تلك البلاد . وقد تولى الحكم فى عام ٣٥٩ ق.م بعد أن أزاح ابن أخيه الطفل أمونتاس الثالث . ذكر ابن خلدون اسمه فى ثلاثةقراءات هى فيلفوس (ص ٢٢٧ جـ ٢) نقلا عن وهب بن منبه ، وفليبس علىلسان هشام بن محمد الذى ذكره الطبرى (ص ٣٢٧ جـ ٢) وأخيرا ذكره فيلفوش على لسان ابن سعيد وهروشيوش . ولا أدرى لماذا لم يربط ابن خلدون بين الأسماء الثلاثة ويحاول معرفة أصح الأسماء بينها ، وليس هناك تفسير لذلك الا انه لم يربط بين أحداث تاريخ الشعوب المختلفة ، ولعله رأى كل منها منفصل عن الآخر .

(٣٨) أنظر الحاشية رقم (٢٦) .

(٣٩) هذه الفقرة التى ذكرها ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد تشير الى الحقيقة التاريخية التى سادت بلاد الاغريق فى ذلك الوقت ،فالمعروف أن فيليب الذى اعتلى عرش مقدونيا وهى دولة مفككة الأوصال ، استطاع خلال حكمه الذى استمر من عام (٣٥٩—٣٣٦ ق.م) أن يجعل منها سيدة بلاد الاغريق وقائدة لحلفهم بعد انتصارات مشهورة استولى على أمفيبولس عام ٣٥٧ق. وبدنا وبوتيدايا ٣٥٦ق.م وفى عام٣٥٥ استولى على ميتونى وفى عام ٣٤٧ ق.م استولى على أولينثوس وبذا أتم سيطرته علىالشاطيء الأوربى لبحر ايجه الشمالى . واستولى على فوكيس فى عام٣٤٦ .وأصبح زعيما للحلف الامفكتيونى فى دلفى ورأس الالعاب البيثية ، وانتصر على أثينا فى عام ٣٣٨ . وأصبح زعيما لبلاد الاغريق كلها .

عن جهود فيليب لبناء مقدونية راجع :

السيد أحمد الناصرى ، المرجع السابق صص ٤٦٩ وما بعدها .

(٤٠) اشارة ابن سعيد هنا الى أن مقدونيا تقع وسط الممالك فى الجانب الغربى من الخليج تثير مسألة أى خليج يقصد الكاتب ؟ لقد رأينا ابن خلدون من قبل يشير الى أن الاغريق يقيمون على الشاطىء الشرقى من خليج القسطنطينية بينما رأى أن اللاتين يقيمون على الجانب الغربى ومن ثم رجحنا أن يكون القصد بحر الادرياتيك وليس بحر ايجه (أنظر الحاشية رقم ١١) وكيف لم يلاحظ ابن خلدون ان اشارة ابن سعيد الى الجانب الغربى من الخليج كمكان لملكة مقدونيا يحمل تناقضا لما قال هو به ؟

ولكن الواقع أن اشارة ابن سعيد هنا صحيحة تماما ولعله كان يدرك أن الاغريق أقاموا على جانبى خليج القسطنطينية (بحر ايجة) .

(٤٢) هذه الفقرة تتفق مع الحقيقة التاريخية المعروفة تماما . والمعروف أن ارسطو ولد فى استيجيرا عام ٣٨٤ ق.م وانتقل الى اثينا فى عام ٣٦٨ ق.م حيث تتلمذ على افلاطون وظل ملازما له حتى وفاته فى عام ٣٤٨ ق.م .

هاجر ارسطو من اثينا الى اسوس Assus فى آسيا الصغرى وتزوج ابنة حاكمها ولكن اغتيال هذا الحاكم فى ٣٤٤ ق.م أدى الى رحيله عن تلك البلدة .

وقد تلقى دعوة من فيليب الثانى فى عام ٣٤٣ ق.م كى يأتى الى بيلا عاصمة مقدونيا . وهناك اشرف على تربية الاسكندر . ويبدو أن الفيلسوف حظى باحترام الأب كما حظى باحترام الابن فاستجاب الى طلبه باعادة بناء مدينة استيجيرا ، وكانت قد خربت أثناء حرب لفيليب مع أولينثوس Olynthus . وكلفه فيليب بالاشراف على اعادة بنائها وطلب اليه أن يعد دستورها .

وفى عام ٣٣٤ ق.م عاد ارسطو الى أثينا حيث افتتح مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة وبقى هناك حتى عام ٣٢٢ق.م حيث اضطر أن يغادرها ارسطو الى خاكليس حيث مات بعد مرض دام ثلاثة أشهر ، وقيل انه انتحر لأنه لم يعرف سر المد والجزر .

اغسطنيس برباره البوليسى ، المرجع السابق ص‌ص ١ — ٥٠ .

(٤٣) كان سلف فيليب المباشر يدعى برديكاس الثالث ، وهو أبو الطفل امونتاس الذى ازاحه فيليب عن العرش ، ولكن المعروف أن عددا من ملوك مقدونيا حملوا اسم الاسكندر من بينهم اثنان سبقا فيليب على العرش . الاسكندر الأول وقد حكم فى عام ٤٩٦ ق.م واستطاع أن يتلقى اعتراف الاغريق به وبشعبه كاغريق وليسوا برابرة ، وذلك بعد أن أثبت لهم بأن نسبه يمتد الى هرقل أول من وضع فكرة الألعاب الأولمبية ، ومن ثم سمحوا له بالاشتراك فى هذه الألعاب .

أما الاسكندر الثانى فقد تولى العرش فى عام ٣٦٩ ق.م بعد اغتيال أبيه امونتاس الثانى فى ظروف غامضة ، ولكنه هو الآخر سرعان ماتعرض للاغتيال على يد عشيق أمه .

ولعل حديث هروشيوش عن الاسكندر أحد ملوكهم العظام يشير الى الاسكندر الأول لا الثانى رغم بعد الزمن بينه وبين فيليب ، فالكثير من الأعمال تنسب الى الاسكندر الأول منها على سبيل المثال انتزاعه اعتراف الاغريق بانتساب المقدونيين للاسرة الاغريقية ، واجادته للغة الاغريقية باللهجة الاتيكية وأخيرا نجاحه فى احراز النصر فى ساحة الألعاب الأولمبية . كل ذلك ساعد على وصفه بالعظمة حتى أن الشاعر الاغريقى الشهير بندار تغنى بانتصاره فى الألعاب الأوليمبية . أما الاسكندر الثانى فقد بقى فترة قصيرة على العرش لم تسمح بابراز مواهبه . ولكن ليس لدى ماأذكره عن (تراوش) الذى ذكر هروشيوش أنه أباه .

السيد احمد الناصرى ، المرجع السابق صص ٤٥٣ — ٤٥٧ .

(٤٤) المعروف تاريخيا أن زوجة فيليب الثانى وأم الاسكندر تدعى أوليمبياس Olympias وكانت أميرة من أبيروس Epirus وقد تزوجها فى عام ٣٥٨ ق.م وقد اشتهرت هذه السيدة بايمانها بعبادات وعقائد ذات طقوس سحرية تتميز بالصخب والمجون وقد وصل الهوس بهذه السيدة أن أعلنت أنها تحملجنينا أبوه زيوس والمعروف أن الاسكندر الأكبر كان متعلقا بأمه أكثر من تعلقه بأبيه حتى نسب اليه بعض المؤلفين اصابته بعقدة أوديب . وتتضح عمق الرابطة بين الابن والأم من حرص الاسكندر علىأن يخبر أمه بأسرار زيارته لمعبد آمون سيوه ، بل أعلن فى الرسالة أنهعرف أسرارا هامة سيفضى بها اليها عندما يعود الى مقدونيا .

ولا أستطيع الربط بين أم الاسكندر المعروفة تاريخيا وبين الاسم الذى ذكره ابن خلدون على لسان هروشيوش وهو لينبادة .

Henri Van Effenterre, L'age grec, Histoire Universelle, Larousse, Paris, 1968. PP. 349 - 353.

(٤٥) حكم الاسكندر الأول — كما سبقت الاشارة — حوالى عام٤٩٦ق.م وحكم الاسكندر الثانى فى عام٣٦٩ . وتحديد حكم الاسكندر بنتراوشلعهد أربعمائة (عام) أو نحوها من بناء روما يعنى أنه حكم حوالى ٣٥٣ق.م وهذا يحصر الاشارة فى الاسكندر الثانى ، كما أن الاشارة الى أن مقتله بعد سبع سنين من اعتلائه العرش يتفق مع قصر مدة حكم ذلك الملك . ولكن سبقت الاشارة فى النص — على لسان هرشيوش نفسه — بأن الاسكندر بن تراوش هذا كان أحد ملوكهم العظام وهو مايتفق مع مكانة الاسكندر الأول لا الثانى .

أما الحديث عن مقتل الاسكندر بن تراوش ــ سواء صح الأول او كان الثــانى ــ أثناء حصاره لروما فهو أمر غير صــحيح من الناحيــة التاريخية ، ولعل أول ملوك الاغريق الذى سعى لمهاجمــة الرومان فى ديارهم كان بيرهوس ملك ابيرس الذى جاء الى هنــاك عام ٢٨٠ ق٠م واضطر الى مغادرة ايطاليا بعد هزيمته فى Beneventum فى عام ٢٧٥ دون أن يحقق هدفه . راجع :

عبد اللطيف أحمد على ، روما ، القاهرة د.ت صص ٤٨ ــ ٥١ .

(٤٦) من الواضح أن هنــاك خلط فى النص بين الموقع الجغرافى والتتابع التاريخى . فالحضارة الاغريقية قامت فى نفس الموقع الجغرافى الذى خلفتها فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وهى التى اعتاد العرب أن يسموها بالروم ، ورغم أن هــذه المعلومة منســوبة لهروشيوش (مؤرخ الروم) فانى أعتقد بأنها اضــافة من ابن خلدون أو مترجمى هروشيوش حيث لم يكن أســم (الروم) شــائعا بين مؤرخى الغرب .

(٤٧) فيلفوش بن أمنته بن هركلش : ذكر هروشيوش نسب فيليب المقدونى صحيحا تماما ، اذ كان فيليب ابنــا للملك أمونتــاس الثــانى Amyntas الذى اعتلى عرش مقدونيــا بعد مصرع الملك ارخيــلاوس فى عام ٣٩٩ ق٠م وظل على العرش حتى مصرعه فى عام ٣٦٩ ق٠م. وقد رزق هذا الملك بثلاثة أبنــاء اعتلوا العرش جميعا وهم الاسكندر الثانى ثم برديكاس الثــانى الذى خلفه ابنه الطفل أمونتاس الثالث تحت وصاية عمه فيليب . وما لبث الأخير أن أزاح الطفل وأعلن نفســه ملــكا على مقدونيا .

أما اشارة هروشيوش الى هركلش فهى كناية محرفــة لهركليس (هرقل) . وهذا النسب يتفق مع ماسبقت الاشــارة اليــه من ادعاء الاسكندر الأول للشعوب الاغريقية بأنه ينتسب الى هرقل أول من فــكر فى اقامة الألعاب الأوليمبية ، وقد قبل الاغريق هذا الادعاء وسمحوا له بالاشتراك فيها ، كما رفعوا عنه لقب بربرى بناء على ذلك .

(راجع الحاشية رقم ٤٣) .

(٤٨) عندما اعتلى فيليب عرش مقدونيا فى عام ٣٥٧ ق٠م بذل جهده لتحقيق هدفين : الأول هو القضاء على الفتن فى بلاده مقدونيا واقامة دولة متحدة قوية فيها وقد نجح فى ذلك نجاحا باهرا . أما الهدف الثانى فهو تحقيق سيطرته على بلاد الاغريق وقد سلك لتحقيق هــذا الهدف مسالك مختلفة منها التقرب الى كهنة أبولو فى دلفى (وقد ساعده هذا الأسلوب على احتلال مقعــد فوكيس فى الحلف الأمفكتيونى) . ورشــوة رجالات السياسة والحرب فى المدن الاغريقية كلما اســتطاع ذلك ، وأخيرا كان

يلجأ الى القتال اذا عجز عن بلوغ اهدافه باستخدام الوسيلتين السابقتين.
وقد استطاع فى عام ٣٣٨ ق.م أن ينتصر على الحلف الاغريقى المضاد له بقيادة أثينا ، ثم استطاع فى نفس العام أن يعقد حلفا فى كورنثا اعترف فيه الاغريق — باستثناء اسبرطة — بقيادته لقوات هذا الحلف . ثم عقد اجتماعا لأعضاء حلف كورنثا فى العام التالى ٣٣٧ ق.م قرر فيه القيام بحمله ضد الفرس عدو الاغريق المشترك وحصل على موافقة أعضاء الحلف على هذا القرار . ولكن القدر لم يسمح له للقيام بتلك الغزوة فاغتيل فى عام ٣٣٦ ق.م ، وقد تحقق هدفه بضرب الفرس فى عهد ابنه اسكندر الأكبر .

Hetzfeld, Jean, Histoire dé la Grèce Ancienne, Paris 1975 P. 24.

(٤٩) المعروف أن مدينة القسطنطينية لم تعرف بهذا الاسم الا بعد عام ٣٢٣ م عندما اختارها قسطنطين الأكبر مقرا لحكمه . ولكن كانت المدينة نفسها قائمة قبل هذا التاريخ بقرون وكانت تسمى بيزنطه . قامت هذه المدينة منذ أواسط القرن السابع قبل الميلاد كمستوطنه لأهالىميجارا. وقد ساهمت تلك المستوطنة بدورها فى أحداث المنطقة فأيدت الفرس أثناء حملتهم ضد بلاد الاغريق ولكنها عادت عن ذلك بعد قليل ، مما أدى الى احتلال الفرس لها وضمها الى الأملاك الفارسية . ونجحت فى طرد الفرس بمساعدة اسبرطة عام ٤٨٧ ق.م. ومنذ ذلك التاريخ تقلبت بين المعسكرين الاغريقيين تارة مع اسبرطة والأخرى مع اثينا . وعندما أراد فيليب المقدونى الاستيلاء عليها اضطر الى القتال العنيف ضد مقاومتها المستميتة بمعونة أثينا ، والمعروف أنه لجأ الى عزلهابالاستيلاء على السهول الوسطى من بلاد اليونان مما دفعها الى الانكفاء على الذات وانكماش دورها السياسى .

والنص الذى ذكره ابن خلدون على لسان هروشيوش هنا يشير الى هذه الأحداث ولكن ينسب بناء المدينة لفيليب وهذا أمر غير صحيح تاريخيا والصحيح ((الاستيلاء وليس البناء)) . ويشير النص الى أن فيليب واجه مقاومة من ((الجرمانيون)) ولعل المقصود (لجدمانيون) وهم بنولجدمون الذين سبقت اشارة ابن خلدون اليهم .

(أنظر الحاشية رقم ١٨) أى (الاسبرطيون) . ورغم صلة الاسبرطيين بأهل بيزنطة وسيطرتهم عليها فترات طويلة الا أن الثابت تاريخيا أن اثينا لا أسبرطة هى التى ساعدت بيزنطة أثناء تعرضها للغزو المقدونى ، أما الفقرة الثانية فهى صحيحة تاريخيا اذ تقول : « ... فقاتلهم (فيليب) حتى استلحمهم .. » وهذه حقيقة تشير الى عنف مقاومة أهل بيزنطة فى دفاعهم عن مدينتهم كما أنها اشارة دقيقة لم تحدد المنتصر وهى بذلك تتفق معحقيقة فشل فيليب فى الاستيلاء عليها.

السيد أحمد الناصرى ، المرجع السابق صص ١٦٧ — ١٧٠ .

(٥٠) استخدم ابن خلدون — على لسان هروشيوش — لفظى الروم والغريقيين والمعروف أنهما اسمين لمدلول واحد مع اختلاف العصر التاريخى لكل منهما — وقد تكرر هذا الخطأ اكثر من مرة فى النص — كما استخدم ايضا كلمة المانية للاشارة الى الحدود الغربية لأملاك فيليب رغم أنها لم يكن لها وجود فى ذلك التاريخ ، والمرجح أنها تحريف لاسم منطقة اغريقية لم أوفق فى تحديدها .

وحديث النص هنا يشير الى أملاك فيليب وفى الواقع أن هذا التحديد غير دقيق اذ المعروف تاريخيا أن فيليب نجح خلال فترة حكمه التى امتدت حوالى عشرين عاما من فرض سيطرة مقدونيا على اغلب بلاد الاغريق القارية من خلال حلف كورنثا ولكن المؤكد أيضا أن قوات فيليب كانت على وشك العبور الى آسيا الصغرى عندما قتل وهو مايؤكد بأن سيطرة فيليب لم تصل أبدا الى أرمينيا .

Hatsfeld, Jean, op. cit., PP. 248 - 261.

(٥١) الاشارة الى استيلاء الفرس على الشام ومصر اشارة صحيحة تاريخيا (راجع أيضا الحاشية رقم ٢٢) .

(٥٢) لم يعرف على وجه اليقين أن فيليب قد خطط لغزو الشام أم لا ، ولكن المعروف انه كان قد خطط لمحاربة الفرس فى اجتماعات حلف كورنثا ٣٣٧ ق.م وانه سير جيشين لهذا الغرض أحدهما بقيادة أنتيباتر Antipater والثانى بقيادة أتاللوس .

وعندما قتل فيليب كان الجيش الثانى قد عبر مضيق الدردنيل بالفعل . على كل حال فان اشارة النص الى عزم فيليب على محاربة الفرس حقيقة تاريخية كما أن الاشارة الى عدم قيام هذه الحرب بسبب مقتله أمر صحيح أيضا .

والاشارة الى اغتيال فيليب معلومة صحيحة تبين الطريقة التى انتهت بها حياته ، ولو رفعت كلمة (اللطينيون) من النص لأصبح محتمل الصحة من الناحية التاريخية ، وذلك لأن اللطينيين اقحموا على النص فلم يكونوا طرفا فى اى صراع سياسى مع الاغريق فى ذلك الوقت . والمعروف أن اغتيال فيليب تم على يد أحد الضباط المقدونيين ، ويدعى بوزنياس اثناء احتفال فيليب بزفاف ابنته كليوباترة .

Briant, Pierre, Alexandre Le Grand, Presses Universitaises de France, 1974. PP. 8 - 9.

(٥٣) الثابت تاريخيا أن الاسكندر لم يحد مطلقا عن هدف أبيه فى ضرب الامبراطورية الفارسية واذا كانت بداية الزحف قد تأجلت من عام ٣٣٦ ق.م الى عام ٣٣٤ ق.م فان ذلك كان بسبب الظروف التى نشأت عن الموت المفاجىء لفيليب المقدونى وما تلا ذلك من اضطرابات عمت

بلاد اليونان . وقـــد أجل الاسكندر القيـــام بتلك الحملة حتى قضىنهائيا على كل دواعي التمرد على سيطرة مقدونيا . وهكذا نلاحظ أن اشارة ابن خلدون على لسان هرشيوش صحيحة .

Hatzfeld, Jean, op. cit., PP. 263 - 265.

(٥٤) ليس هنـــاك أدلة على أن مقدونيـــا كانت تـــدفع أية ضرائب للفرس على عهد فيليب أو الاسكندر ويبدو أن هذه الرواية الواردة فى النص ماهى الا محاولة للبحث عن أسباب الصدام الجديد بين الفـــرس والأغريق . وقـــد حاول كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن يصلوا الى السبب الحقيقى الذى حدا بفيليب ومن بعده الاسكندر الى البدءبحرب الفرس . ويرى بوليبيوس أن الأسباب التى دعت فيليب للتفكير فى حرب الفرس كانت الرغبة فى الحصول على الغنائم ، وقد ساعدت المعلومات التى كانت متاحة أمام فيليب على اتخاذه لقرار الحرب وذلك لأن اكسنفون وجنوده الذين انسحبوا عبر آسيا الصغرى وهى بلاد معادية لم يتعرضوا لأى محاولة من جانب البرابرة للهجوم عليهم أو اعاقتهم وكان أمامهماتجربة أجزيلاوس Agesilaus ملك اسبرطة الذى لم تواجهه أى عوائق فى تحقيق أهـــدافه فى آســـيا الصـــغرى ولـــكنه اضـــطر للعودة بسبب الاضطرابات فى بلاد الاغريق نفسها وبالاضافة الى هذا وذلك فان فيليب كان يحس بكفاءة جنوده العسكرية اذا قورنوا بجبن وعـــدم كفاءة الفرس لـــكل هذه الأسباب أعلن فيليب للاغريق أنه قرر حرب الفرس وأعلنلهم ان ذلك يتم انتقاما لسوء معاملتهم للاغريق وقـــد خلفـــــه الاسكـــندر فى تحقيق هذا الهدف .

Polybius, The Histories, London, 1975, BK III, 6. 12 - 14.

(٥٥) اشارة ابن خلدون عن مسئولية الأسكندر عن بدء القتالاشارة صحيحة تاريخيا .

والاشارة هنـــا الى فتح بيت المقدس صحيحة ولـــكنها لا تأتى فى ترتيبها التاريخى المعروف (أنظر الحـــاشية رقم ٦٠) والمعروف أن بيت المقدس خضعت للاسكندر أثناء عودته من مصر فى عام ٣٣١ ق.م وهـــو تقـــدير قريب جدا مما قال به ابن خلدون (أنظر الحاشية رقم ٣٦) .

(٥٦) اشارة ابن خلدون الى سخط الملك دارا على الاسكندر بسبب سقوط القدس أمر مبالغ فيه ، فالحرب كانت دائرة بين القوتين منذ عام ٣٣٤ قبل سقوط القدس بثلاث سنوات . وافتراض تحرك الفرس بسبب سقوط القدس قائم على أساس خاطىء بافتراض قدسية تلك المدينة لدى الفرس المجوسيين . والمرجح أن هذا التصور هو انطبـــاع هرشـــيوش المسيحى (أنظر الحاشية رقم ١٧) عن الموضوع .

(٥٧) من الواضح أن أرقام الجنود مبالغ فيها والمعروف أن قوات الاسكندر لم تزد عن ٤٠ الف جندى مشاه وفرسان يعززهم اسطول يضم ١٦٠ سفينة بينما يقال ان دارا كان قادرا على تجنيد ١٠٠ الف جندى والاشارة هنا منسوبة الى هرشيوش أيضا ، لقد قال ابن خلدون رأيه مرتين الأولى فى المقدمة عندما شجب ذلك الأسلوب الذى يلجأ اليه بعض المؤرخين لاجتذاب اهتمام القارىء على حساب الحقيقة ، والمرة الثانيةفى اجماله الذى ذكره فى بداية الفصل وهو لم يشر مطلقا الى مثل هذه الأعداد مما يوحى بعدم اقتناعه بها .

(٥٨) المعروف تاريخيا أن فتح الاسكندر لطرسوس كان سابقا على معركة ايسوس ولم يعد الاسكندر لطرسوس بعد فتحه لبيت المقدس (انظر خط سير الاسكندر الحاشية رقم ٦١) .

(٥٩) الاشارة هنا الى بناء الاسكندرية تثير قضية تأسيس الاسكندر لعدة عشرات من الاسكندريات على طول خط سيره (انظر الخريطة) ولكن لم تبق منهما سوى الاسكندرونة شمال الساحل الفينيقى والاسكندرية فى مصر . والمرجح أن الاشارة هنا الى بناء الاسكندرونة نظراً لأنها أقرب الاسكندريات الى طرسوس .

(٦٠) ماذكره ابن خلدون هنا يختلف بعض الشيء عن المعروف عن خط سير الاسكندر فى الشرق الأدنى القديم لقد سيطر الاسكندر على أغلب آسيا الصغرى بعد انتصاره فى ايسوس Isos فى نوفمبر٣٣٣ وكانت خطوته التالية هى السيطرة على مدن الساحل الفينيقى فاستسلمت له ارادوس وبيبلوس وتريبولس وصيدا
Arados - Byblos - Tripolis - Sida.
دون مقاومة تذكر ولكن صور لم تسلم له قيادها الا فى اغسطس ٣٣٢ بعد حصار دام سبعة شهور . تقدم الاسكندر بعد ذلك نحو الجنوب على الطريق الساحلى حيث نجح فى الاستيلاء على غزة فى نوفمبر عام ٣٣٢ ق.م بعد مقاومة عنيفة .

واخيرا وصل الى الحدود المصرية التى وجدها مفتوحة أمام جنوده، اذ استقبله المصريون كمحرر لبلادهم من براثن الفرس ، قضى الاسكندر فى مصر شتاء عام ٣٣١ ، وفى خلال تلك المدة قام بالعديد من الأعمال.

ثم غادر مصر متوجها الى صور التى وصلها فى صيف ٣٣١ ق.م. وفى الطريق استولى على بيت المقدس التى استسلمت له دون مقاومة . ثم اتجه الى دمشق واستولى عليها ثم عبر الفرات ودجلة واخيرا التقى بعدوه دارا فى معركة جاوجميلا وهزمه هزيمة ساحقة هرب دارا بعد المعركة من مكان الى مكان الى ان قتله أحد جنوده فى باكتريا .

أما الاسكندر فقد اندفع بجنوده فى اتجاه مدينة بابل التى فتحت أبوابها لاستقباله فبقى فيها بعض الوقت حتى استراح جنوده ، ثم اتجه

بهم نحو الجنوب الشرقى فى اتجاه سوسا المقر الصيفى لملك الفـرس واستولى عليها ، ثم اتجه نحو العاصمة برسيبولس Persipolis ونجح فى الاستيلاءعليها وقد نسب الىالاسكندر حرقه قصر اكسركسيس وهو ثمل.

الا أن هذا الخبر مشكوك فيـه وفى صحته فالثـابت تاريخيا أنه أحسن معاملة كل من استسلم له أو اعترف بسيادته بل انه ثبت عدداكبيرا من حكام الأقاليم الفارسية فى أعمالهم وان أشرك معهم مقدونيين كمـا شجع جنوده المقدونيين على اتخاذ زوجات فارسـيات ويقال انه احتفل بزواج عشرة آلاف من جنوده على فتيـات فارسيات فى يوم واحد كما أنه تزوج روكسا نابنة حاكم باكتريا وهى التى ولدت له ابنه الاسكـندر بعد وفاته .

واذا عدنا الى النص الذي ذكره ابن خلدون فاننـا نلاحظ اختـلافا لخط سير الاسكندر عما هو ثابت تاريخيا فاستيلائه على طرطوس سابق على دخوله الى أرض الشام وسقوط بيتالمقدس فى يديه كان أثناء عودته من مصر ، والاشـارة الى قتل الاسكندر لدارا غير ثابت تاريخياوالمعروف أنه قتل بيد أحد ضـباطه .

Paul Petit, Précis D'Histoire Ancienne, Paris, 1965. PP. 155 - 158.

(٦١) اتبع الاسكندر سياسة ادارية ارتكزت على اقرار أغلبالحكام المحليين فى وظـائفهم على أن يقصر مسئوليـاتهم على النواحى الادارية فقط ، أما قائد الحامية العسكرية فكان فى كل الحالات مقدونيا ،ويشارك الاثنان موظف مكلف بالشئون المالية وجباية الضرائب. وقد هدف الاسكندر من هذا التقسيم أن يأمن خطر انفراد شخص واحد بالسلطة مما قد يغريه بالتمرد عليه . واشارة ابن خلدون هنـا عن تأثير أرسـطو على فـكر الاسكندر أمر غير منكور ولـكن التساؤل هنـا عما اذا كان أرسطو قد اقنعه بجعل الحكم فى أسافلهم ؟ وهو أمر غير مؤكد تاريخيا .

(٦٢) المعلومة التى أوردها هنـا ابن خلدون عن أرسطو صحيحة تاريخيا . ورغم أن ارسطو لم يكن اثينيا بالمولد الا انه عاش هناك فترات هامة من حياته خاصة فترة تتلمذه على أفـلاطون من عام ٣٦٨ الى موت أستاذه عام ٣٤٨ ، كما عاد للحياة فى أثينا فى عام ٣٣٥ ق.م حيث بقى يعلم فيها الى وفاة تلميذه الاسكندر الأكبر . عند ذلك رأى أعداء الاسكندر الأكبر فى أثينا الفرصة سانحة للانتقام من أستاذه فحرضوا عليه كبير كهنة ديميتر لكى يرفع ضده الدعوى أمام القضاء متهما أياه بالزندقة فاضـطر لمغادرة أثينا فى عام ٣٢٢ دون أمل فى العودة اليها ثانية .

وقد أنشأ أرسطو مدرسته الفلسفية الشهيرة أثناء اقامته فى اثينـا فى منطقة كانت تعرف باسم لكين . وقد اشتهرت مدرسة أرسطو بهـذا الاسم نسبة الى المكان الذى قامت فيـه كما عرفت باسم المشائيينللسبب الذى ذكره ابن خلدون . وأهم مؤلفات أرسطو التى وصلت الينـا هى

كتب ماوراء الطبيعة والاخلاقيات والسياسة ودستور أثينا من بين تصنيف كتاب الدساتير ، أما مالم يصل الينا فهو كثير (راجع الحاشية رقم ٤٢) وايضا اوغسطينس بربارة البوليسي ، السياسيات ، لأرسطو ، مقدمة المترجم بيروت ، ١٩٥٧ . ص ص ١ ـ ٥٠ .

(٦٣) ولد أفلاطون فى أثينا عام ٤٢٧ ق.م وتتلمذ على سقراط حتى وفاة الأخير فى عام ٣٩٩ ق.م ، ثم سافر فى رحلات مختلفة الى خارج بلده فزار قورينة Cyrène ومصر ومناطق الاستيطان الاغريقى فى غرب البحر المتوسط . وقد زار سيراكوز ولكن آراؤه أغضبت ديونيسيوس طاغية المدينة ومن ثم القى القبض عليه وعرضه للبيع فى سوق الرقيق حتى افتداه أحد أصدقائه وعاد به الى أثينا حوالى عام ٣٨٧ ق.م وفى أثينا افتتح الفيلسوف مدرسة على صخرة مقدسة تعرف باسم بطل يدعى أكاديموس ومن هنا عرفت بالأكاديميا .

وعاد أفلاطون لزيارة صقلية مرتين فى عام ٣٦٧ و٣٦١ ق.م وقد استطاع أن ينال ثقة ديونيسيوس الأصغر الذى سمح له بأن يحاول تطبيق نظريته عن المدينة الفاضلة هناك ، ولكن فشل أفلاطون فاضطر لمغادرة سيراكوز عائدا الى أثينا التى أقام بها حتى مات فى عام ٣٤٧ق.م واشتهر آثار أفلاطون العلمية هى المحاورات التى عرضت آراء سقراط وآراءه شخصيا فى الميتافيزيقا . هذا فضلا عن كتاب الجمهورية التى كان يرى أن بتحقيقها يتحقق الخير الأسمى للبشر . والف أيضا كتاب القوانين لكى يتلافى مثالب فشل تطبيق نظريته عن المدينة الفاضلة فى سيراكوز .

(٦٤) ولد سقراط فى أثينا فى عام ٤٦٩ ق.م ، وقد عاش فقيرا وضبط نفسه أمام اغراء الماديات . اشترك فى حروب البيلوبونيز وقد اشتغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل تزوج اثنتين فى حياته وهو يعتبر نقطة تحول فى الفكر اليونانى الذى اهتم فيما سبق بالبحث العلمى فقط لأنه بنى أبحاثه على أساس التأمل الواقعى الأخلاقى للناس . لم يترك سقراط وراءه مؤلفات تشرح فلسفته ولكن تلاميذه ـ خاصة أفلاطون ـ سجلوا هذه الأفكار وقد وجه الاثينيون الاتهام لسقراط ـ لأنه لايؤمن بالدين وانه يساعد على افساد الشباب . وجاء فى نص الاتهام « أن سقراط مذنب عام لأنه لايعترف بالآلهة التى تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية وانه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب » وجرت المحاكمة أمام مجلس الخمسمائة ورغم دفاع سقراط عن نفسه فقد صدر الحكم بقتله . وقيل أن سقراط كان فى وسعه أن يهرب من السجن بعد رشوة أصدقائه للحراس ولكنه رفض واخيرا شرب السم ومات فى عام ٣٩٩ ق.م .

واشارة ابن خلدون على لسان مصدره ـ بادانة سقراط بسبب دعوته لعدم عبادة الأوثان ـ تتفق مع ماجاء فى مسرحية السحب لأرسطوفان والتى اتهم فيها سقراط بعدم الاعتراف بالهة الاغريق كما تتفق مع

ماجاء فى قرار الاتهام الصادر فى حق سقراط من أنه لايعترف بالهة بلاد الاغريق ولـكن الاشارة فى المتن تدفع على الظـن بأنه دعى الى دين سماوى ولـكن المؤكد انه مارس الطقوس الدينية الاغريقية ولم تكن له أية صلة بأى دين سماوى فهو لم يعتنق اليهودية كما أنه كان سابقا على المسيحية بأربعة قرون ويؤكد ذلك ماذكره أفلاطون على لسانه من أنه قال « ... تقولون اولا انى لا أومن بالالهة ثم تقولون بعدئذ انى أومن بأنصاف الالهة ــ ان مثلكم فى هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينـكر وجـود الخيل والحمير » .

ولعل ابن خلدون خلط بين خبر سقراط وما عرف تاريخيا عن ديوجين الكلبى من سكنه فى دن (قـدر) فى ساحة معبد سيبيل بأثينا ، خاصة وان افلاطون قد أطلق عليه لقب (سقراط الهائم) .

راجع : بنيامين جوبت ، محاورات أفلاطون ، ترجمـة زكى نجيب محمود ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٦ وما بعدها . وأيضا

Larouse Xxeme Siecle.

(٦٥) فيثاغورس ، بن منيسارخوس ولد فى ساموس حوالى عـام ٥٦٦ ق.م واشتهر أمره خلال حكم بوليكراتيس بها (مات عام ٥٢٢ ق.م) رحل عن ساموس مثل الكثيرين من سكان المنطقة تحت ضـغط الفرس لغرب آسيا الصغرى وزار خلال السنوات التالية مليتوس Miletus حيث تعرف بتاليس وربما تتلمذ عليه ، ثم زار فينيقيا وعاش فى مصر مدة طويلة تعلم خلالها من علم المصريين وخبرتهم ، ترك مصر الى بابل حوالى عام ٥٢٥ ق.م حيث درس الحساب والموسيقى . عاد الى ساموس وهو فى الخامسة والستين من عمره ، ولـكنه لم يلبث أن رحل الى ديلوس وكريت وبلاد الاغريق نفسها وأخيرا استقر فى كرتون Corotone فى ايطاليا حيث أسس مدرسة هنـاك وبقى هنـاك حتى اضـطر الى الرحيل الى بونتيوم القريبة من كروتون وبقى فيها السنوات الأخـيرة من حيـاته الى موته عام ٤٩٧ ق.م .

نجح فيثاغورس فى اكتشاف عدة نظريات هندسـية هـامة ونادى بكروية الأرض واعتقد بخلود الروح واختلاف أقدار الأرواح حسب سلوك صـاحبها فى الحيـاة وأن أرواح الأشرار تحل فى أجساد الحيوانات وقد أدى به ذلك الاعتقاد الى تحريمه اكل اللحم على تلاميـذه كما كان منهج الدراسة فى مدرسته يضم دراسات فى الموسيقى .

واشارة النص عند ابن خلدون الى تتلمذ سقراط عليه أمر صـعب التصديق الا اذا كان المقصود قراءة سقراط لأعمـاله دون التتلمـذ عليه شخصيا فقد مات فيثاغورس فى عام ٤٩٧ ق.م بينما لم يولد سقراط الا فى عام ٤٦٩ ق.م ، على أن الأقرب الى الصواب أن يكون هنا تحريف فى الاسم الذى ذكره ابن خلدون ولعله قصد بروتاغوراس وليس فيثاغورس والأول هو أشهر الفلاسفة السفسطائيين وكان معاصرا لعصر سقراط ،

كما أن سقراطنفسه كان معجبا فى شبابه بالسوفسطائيين ، فضلا عن أن أفلاطون كتب محاورة دارت بين سقراط وبروتاغوراس .

أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية ، ط٦ ، القاهرة ١٩٦٦ صص ١٩ــ٢٥ .

(٦٦) تاليس ، ولد حوالى عام ٦٢٤ ق.م قيل انه كان من اصل فينيقى ومات حوالى عام ٥٤٥ ق.م. درس الفلك والرياضيات فى مصر التى كانت ماتزال مخزنا للثقافة القديمة . وكان أحد أشهر سبع حكماء يمثلون الحكمة القديمة ونسب اليه انه صاحب القول المأثور (اعرف نفسك) .

ترجع شهرة تاليس الي تنبوءه بحدوث كسوف للشمس يوم ٢٨مايو سنة ٥٨٥ ق.م وقت المعركة بين الليديين والفرس ويقال انه أدخلالعلوم الرياضية والفلكية الى بلاد الاغريق . وقد أشار هيردوت الى صلة تاليس وكرويسوس (قارون) ملك ليديا .

والنص الذى ذكره ابن خلدون دقيق فقد ذكر أن تاليس كان منحكماء ملطية وهو لقب يتفق تماما مع حقيقته فقد كان من ملطية Miletus ولقبه مواطنوه بالحكيم Sophos

سارتون ، جورج ، نفس المرجع صص ٣٥٩ ــ ٣٦٦ .

(٦٧) عرفت أنساب الخليقة عددا من الرجال كان اسم كل منهم لقمان . وأشهرهم لقمان الحكيم الذى جاء ذكره فىالقرآن الكريم (سورة لقمان) ويقول بن جوزى الكلبى فى كتاب التسهيل لعلوم التنزيل القاهرة ١٣٥٥ هـ ، جـ٣ ص ١٢٦ .

« ... ان لقمان رجل ينطق بالحكمة واختلف هل هو نبى أم لا وفى الحديث لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا حسن اليقين أحب الله فأحبه فمن عليه بالحكمة ، روى أنه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته .. » .

والفقرة السابقة تشير الى ارتباط لقمان بأيوب الذى عاش بعد ابراهيم وقبل موسى عليهما السلام ، وهذا التحديد الزمنى يبعده تماما عن أن يكون أستاذا لتاليس الذى عاش فى القرن السابع ق.م.

ومن ثم نعيد البحث فيمن يكون لقمان الذى تتلمذ عليه تاليس حكيم ملطية ونصادف اثنين من الاغريق صلتهما بتاليس ليست بأقرب من صلة لقمان الحكيم به . الأول هو الكمان Alcmanos وكان شاعرا من ليديا ولد فى سارديس فى القرن السابع وسكن اسبرطه قبل تحولها الى قوة عسكرية فتغنى بها وبجمال بناتها وتوفى هناك . وهو الوحيد الذى يذكر من أهل الأدب بتلك المدينة التى اعترفت بفضله فدفنته مع أبطالها المجددين .

وهذا الرجل رغم تعاصره مع تاليس الا أن اختلاف اهتماماتهماتجعل من المستبعد الربط بينهما علميا . وأما الثانى فهو الكيمايون .Alcmean وكان طبيبا وفيلسوفا أغريقيا تتلمذ فى مدرسة فيثاغورس ولد فى القرن السادس ق.م فى مدينة كروتونا فى ايطاليا ، ولكننا لا نملك الا أن نستبعد احتمال أخذ تاليس عنه لأنه كان تاليا لتاليس فى الزمن . وليس لدينـا تفسير الا أن يكون قد حدث خلط فأخذ التلميـذ فى نص ابن خلدون مكان الأستاذ والعكس بالعكس .

(٦٨) دمقراطيس ، ولد فى أقليم تراقيا بشمالى بلاد الاغريق ، كان مادى التفكير وقال بأن المادة تتكون من ذرات صغيرة لا ترى وهى دائمـة الدوران حول نفسها ، ودعا الناس الى نبذ الأساطير الدينية القديمة ، مات فى عام ٣٨٠ ق.م تقريبـا .

(٦٩) اناكسا جوراس Anaxagoras عاش بين سنتى ٥٠٠ ق.م و٤٢٨ ق.م ، قـدم الى أثينا فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان من تلاميذه بركليس أبو الديموقراطية الأثينية . توصل الى أن المادة تتكون من ذرات صغيرة من صنع العقل الأكبر .

ذكر اناكساجوراس أن الشمس جرم سماوى كبير من المعادنالملتهبة وأنها مصدر الطاقة والقوة . نفى فى عام ٤٥٠ ق.م بسبب آرائه وصداقته لبركليس .

أحمد أمين ، زكى نجيب محمود ، قصـة الفلسفة اليونانيـة صص ٥٤ ـ ٦١ . أما شهرته فى الطب فهى غير معروفة ولعل ابن خلدون (أو مصـدره) خلط بين أناكسـا جوراس وهيبـوقراطيس Hippocrates أشهر أطباء عصره والذى عرفبالعربية باسم ابقراط فهو الذى كانأردشير ملك الفرس وبرديكاس ملك مقدونيا من مرضاه ، كما كان جالينوس أشهر أطبـاء عصر الرومان من تلاميذه .

(٧٠) كان جالينوس من برجاموم اهتم أول الأمر بدراسة الفلسفة ثم اتجه بعد ذلك الى الطب . تعلم فى قليقية وفينيقيـا وفلسـطين وقبرص وكريت وبلاد اليونان والاسكندرية . عمل طبيبا فى مدرسة المجالدين فى روما ١٦٨ ـ ١٦٤ ق.م حتى تركها هاربا تحت ضغط أعدائه ولـكنه عاد بعد قليل للعناية بكمودوس بن ماركوس أوريليوس .

وقد حاول أوريليوس أن يصحبه فى احدى حملاته لـكنه اسـتطاع أن يعود مسرعا الى روما ، ومن ذلك الوقت لانعـرف عنه غير مؤلفـاته ولذلك فما ذكر فى النص عن دفنه بصقلية يعتبر معلومة جـديدة عنـه ان صحت .

الف حوالى ٥٠٠ عملا بقى منها ١١٨ تضم نحو عشرين الف صفحة. آمن بما قال ابقراط عن الاخلاط الأربعة التى تحكم الجسم (الدم والبلغم

والسائل الصفراوى الأسود والأصفر) ، وظلت أفكاره سائدة بين أطباء العصور التالية وتمتع بتقدير المسيحيين والمسلمين لايمـــانه بالوحدانيـــة فى الدين .

(٧٢) اتجه الاسكندر الى أراضى شبه القارة الهنـــدية بعـــد أن نجح فى السيطرة على الامبراطورية الفارسية وبعد ان امن ظهر قواته بانشاء العديد من المدن فى المناطق الاستراتيجية وضمان ولاء كثير من أمراء الفرس، وبعد أن تخلص أيضا من القادة المعارضين لسياسته .

بدأ الاسكندر زحفه على حوض نهر السند بعد أن قسم جيشه الى ثلاث وحدات الأولى قادها بنفسه وقاد الثانية هيفيستون Hepheston وكانت الثالثة تحت قيادة برديكاس Perdicas كانت مهمة كل وحـــدة هى احتلال جزء من اجزاء وادى نهر كوفن Cophen أحد روافد الأندوس .

حققت قواته المنـــاط بها بعد الكثير من الصعوبات والمتاعب .واخيرا تجمعت قوات جيش الاسكندر من جديد فى شمال غرب الهنـــد فى ربيع ٣٢٥ ق.م.

وهنـــاك قرب نهر الهيداسب Hydaspe تقابل فى يوليو سنة ٣٢٥ ق.م مع الملك بورس Porus ملك البنجاب وهو الذى يشـــير اليه ابن خلدون باسم فور. وصحيح أن الاسكندر هزم ذلك الملك كما جاء فى النص. ولـــكن الصحيح أيضا أن هذا لم يتم الا بعـــد أن تكبد الجنود المقدونيون الـــكثير من الخسائر خصوصا وهم يقابلون فيل القتال لأول مرة فى جيش بورس . والمعروف تاريخيا أن بورس عقد صلحا مع الاسكندر وصار حليفا له بعد ذلك .

Henri Van Effenterre, op. cit., PP. 357.

والمزيد من المعلومات عن فيل القتال وأثر هذه المعركة فى ادخال فيل القتال فى جيوش العالم القديم اقرأ :

فوزى مكاوى ، الفيل الأفريقى ودوره فى الحروب القديمة ، مجلة الددراسات الأفريقية ، ١٩٧٧ .

(٧٣) المعروف أن الاسكندر غلب على أغلب العالم القديم وأنه كان يرغب فى الزحف شرق نهر Hyphasus أحد روافد نهر الهندوس ولكنه صادف تمردا من جنوده أدى به الى طرح هذه الفكرة نهائيا وبدأ التفكير والاعـــداد للعـــودة الى بابل ومن ثم فان حـــديث ابن خلدون عن فتحـــه للصـــين غير دقيق .

(٧٤) بناء الاسكندر للاسكندرية على مصب أحد الروافد الغربيـــة للنيل على البحر الرومى (البحر المتوسط) حقيقة تاريخية سبق أن أشرت

اليها (راجع الحاشية رقم ١٥) ولـــكن ذكرها فى هذا المكان من النص ليس صحيحا فقد سبق بناؤها الحملة على بلاد الفرس والهند .

(٧٥) تحديد عدد الملوك الذين خضعوا للاسكندر بخمسة وثلاثين ملكا أمر غير ثابت تاريخيا ولــكنه غير مستبعد فقــد سيطر الاسكنــدر على الامبراطورية الفارسية التى كانت تضم ٢١ اقليما (مرزبية) بالاضـــافة الى المناطق الشرقية التى كانت خارجـــة عن نطـــاق تلك الامبراطورية . وحديث ابن خلدون عن تهافت ملوك العالم على استرضاء الاسكندر والكتابة اليه من أفريقيا والمغرب والفرنجة والصقالية والسودان أمر غير مستبعد تاريخيا ، فقد أرسل الاسكندر وكليستنيس حفيد أرسطو الى النيل الأعلى فى سنة ٣٣١ ق.م كما أرسل نيارخ وارشياس وأندروستنيس وهيرون الى سواحل الخليج الفارسى ٣٢٣ ق.م وارسل جورجوس للتعرف على الموارد المعدنية لملكة سوبيتيس بالهند . ولذلك بقى الاسكندر علامة هامة فى تراث كثير من الشـــعوب التى لم تطئهـــا قـــدميه مثل بلاد العـــرب الجنوبيـــة وأثيوبيـــا وغيرهمـــا .

(٧٦) مات الاسكندر الأكبر فى بابل يوم ١٣ يونيو ســـنة ٣٢٣ ق.م بسبب اصـــابته بحمى المستنقعات ، وليست هنـــاك أدلة قوية على موته مسموما ولـــكن اشارة ابن خلدون تعتمد على ماثير عن ذلك عند بعض المؤرخين . كان عمر الاسكندر الأكبر يوم وفاته اثنتين وثلاثين سنة تولى الحكم منها ثلاثة عشر عاما قضى منها احدى عشرة سنة خارج بلاده . وقد قتل دارا فى عام ٣٣٠ ق.م بعد أربع سنوات من بداية حملة الاسكندر على الشرق . قارن معلومات ابن خلدون وهى قريبة للمعروف تاريخيا .

٣

العلاقة بين دولة الصليحيين والخلافة الفاطمية

الدكتور محمد أمين صـــالح
استاذ التاريخ الاسلامى المساعد
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

اذا كان عهد المستنصر بالله الفاطمى ٤٢٧ــ٤٨٧ / ١٠٣٦ــ١٠٩٤ قد شهد ضياع بعض أملاك الفاطميين بالشام ، بجانب ضـــعف سلطان الخليفة ذاته بالقاهرة وبدء عهد الوزراء العظام ، فانه قد شهد اكتساب ارض جديدة للنفوذ الفاطمى واعنى بها اليمن .

ولم تأت تبعية اليمن للخلافة الفاطمية عن طريق الغزو العسكرى وفرض السيادة كما حدث فى الشام ، بل جاءت بجهود الدعاة الذين ظلوا يتولون واحدا بعد الآخر أمر الدعوة الاسماعيلية باليمن وبطريقة سرية بعد تدهورها الشنيع منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ســـواء بانشقاق على ابن الفضل احد دعاتها ، أو بضعف أهل مسور بعد وفاة ابن جوشب كما عرضنا فى بحث سابق (١) . فاستمر الدعاة على اتصال بالخلفاء الفاطميين بالمغرب ثم بمصر يرسلون اليهم هـــدايا وأموال أتباعهم ، ويطبقون مبادىء الدعوة فيما بينهم الى أن تولاها على بن محمد الصليحى فنهضت على يديه من جديد .

ولسنا بسبيل دراسة تاريخ الدولة الصليحية ذاتها قدر التركيز على العلاقات بين هذه الدولة الناشئة والخلافة الفاطمية . ولدينا وثائق معاصرة هى رسائل الخلفـــاء الفاطميين الى الحكام الصليحيين . تعرف باســـم السجلات المستنصرية ، عبارة عن ٦٦ ســـجلا منقولة عن الأصل الذى أرسل من ديوان الانشاء بالقاهرة الى حكام اليمن . نشرها وعلق عليهـــا الاستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد بعنوان « سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا

الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، الى دعاة اليمن وغيرهم . قدس الله أرواح جميع المؤمنين » . وتتضمن هذه السجلات سياسة الفاطميين باليمن وانحاء الجزيرة العربية ، فضلا عن تناولها الأحداث السياسية فى كل من مصر واليمن . ونستطيع على هديها بجانب غيرها من المصادر تتبع العلاقات بين مصر واليمن في هذه الفترة الهامة من تاريخ البلدين .

فقد بدأ على بن محمد الصليحى الدور العملى للدعوة منذ أن احتل مع جماعة من اتباعه حالفوه على الموت جبل مسار أعلى ذروة فى جبال حراز عام ٤٣٩/١٠٤٧ . ولم يلبث أن جاءه مجيبو الدعوة من مختلف انحاء اليمن خاض بهم معارك ظافرة الى أن سيطر على جميع اليمن سهله وجبله من مكة الى حضرموت جنوبا آخر عام ٤٥٥/١٠٦٤ (٢) .

وداب على بن محمد الصليحى على الكتابة بأخباره اولا بأول الى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بمصر ، فيأذن له بالجهر بالدعوة أو غزو تهامة ، ويبعث له الرايات والألوية . كما كان الصليحى يرسل الهدايا الى دار الخلافة . ففى عام ٤٣٩/١٠٤٧ أرسل الصليحى هدية تشمل سبعين سيفا ذات مقابض من عقيق (٣) . وهدية أخرى عظيمة القدر عام ٤٥٤/١٠٦٢ لم يسمع بمثلها وفيها فنون كثيرة من الذهب والفضة والسلاح والوشى والمسك والعنبر والكافور والعود الهندى الرطب ، والأستاذين والجوارى ، وكثير من الأمتعة يبعد حصرها ويعظم أمرها (٤) . كذلك كان الخليفة المستنصر يكتب بأخبار دولته الى الصليحى أمير اليمن . ففى صفر ٤٥٢/ مارس ١٠٦٠ أخبره بولادة أبنه ابى القاسم أحمد كى يذيع هذا النبأ فى انحاء اليمن (٥) . كما أخبره فى رمضان ٤٥٤/١٠٦٢ بأحداث انقلاب المعز ابن باديس الصنهاجى بأفريقية على الخلافة وكيفية التغلب عليه (٦) . كذلك كان المستنصر الفاطمى يرسل اليه رايات الخلافة والويتها وملابسه الخاصة كبركة له ولأولاده ، ويكتب لهم تعويذات ويدعو لهم (٧) . ويرسل ايضا اللحوم مقددة فتفرق من وزن نصف درهم الى ربع درهم على سبيل البركة (٨) .

وكان على بن محمد الصليحى المساعد الأيمن للخـلافة الفاطميـة للاحتفاظ بنفوذها فى منطقة الحجاز . صحيح أنه دعى للخليفة المعز لدين الله الفاطمى على منابر الحرمين منذ عام ٩٦٨/٣٥٨ (٩) ، الا أن الأشراف الحكام المحليين بمكة المكرمة والمدينة المنورة كانوا أحيانا يقطعون الخطبة للفاطميين ويدعون للعباسيين . ففى عام ٤٥٤ / ١٠٦٢ مثلا انتزع الشريف محمد بن جعفر من الهواشم حكم مكة من يدى بنى سليمان ودعا للخليفة القـائم العبـاسى (١٠) ولجأ بنو سليمان الى اليمن ومعهم أمتعة الـكعبة من قنـاديل وستور وصـفائح الذهب من البـاب والميذاب (١١) . فكان أن عهد الخليفة المستنصر الفاطمى الى الصليحى داعيته والحاكم فىاليمن بمهمة اعادة النفوذ الفاطمى الى الحجاز . ويشيد المؤرخون (١٢) بما قام به الصليحى من أعمال طيبة فى مكة عام ٤٥٥ هـ . بدأ بكسوة الـكعبة بثيـاب بيض ، ورد أمتعة الـكعبة بعد أن اشتراها من بنى سليمان . وفضلا عن نجاحه فى اعادة النفوذ الفاطمى بالحجاز ، فانه اظهر العدل فى الأهالى برفع ظلم من تقدم من الأشراف الحكام ، والاحسان بما وزعه عليهم من الأموال وفرقه من الأقوات ، كما أدب القبائل التى كانت تعتدى على الحجاج . وهكذا استمال الصليحى أهل الحجاز وطابت قلوبهم له كما رخصت الأسعار وساد الأمن والطمأنينة .

وعاد الصليحى الىاليمن فى ربيع الآخر١٠٦٣/٤٥٥مواصلا مراسلة الخليفة الفاطمى الذى أرسل يشكره على افعاله الحميدة ويبدى ارتياحه للخدمات الجليلة التى قام بها فى سبيل اقامة الدعوة له وتوطيد نفوذه فى بلاد اليمن والحجاز ، وانعم عليه بلقب « عمدة الخـلافة » علاوة على القابه الأخرى (١٣) .

هذا وقد رغب الصليحى وقد صار له هذا الملك الـكبير من مكة الى حضرموت ، أن يجعل الحكم وراثيا فى أسرته وكان له من الأولاد ثلاثة، واثقا من رضـاء الخلافة الفاطمية عليه . فطلب عام ٤٥٦ / ١٠٦٤ عقد ولاية العهد لابنه الأكبر محمد فوافق الخليفة ولقبه بالأمير الأغر يدعى له به على المنابر بعد والده وأرسل سجلا بهذه التولية (١٤) . لـكن محمدا توفي بالحمي في حيـاة أبيـه ، فـكتب الخليفة رسالتين فى ربيع الأول

٤٥٨ / فبراير ١٠٦٥ الأولى الى الصليحي يعزيه فى وفاة ولده ، ويجعل ولاية عهده لابنه الأوسط « وهو اليوم الأكبر » . والثانية الى الأمير المكرم احمد بتقليده ولاية العهد (١٥) .

كذلك أراد الصليحى الذهاب الى القاهرة والحظوة بلقاء الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . فأرسل وفدا برئاسة القاضى عمران بن الفضل برسالة يستأذن فيها بالقدوم . فعاد الجواب فى ربيع الأول ٤٥٩هـ بأن امير المؤمنين يود ذلك ويهواه الا أنه يرجح مقامه خشية الكدح والتعب ، وخوفا من اضطراب الأحوال فى دولته وقت غيابه ويقول « والذى تأمل بلوغه براى العين ، فانك بالغه والحمد لله برؤية القلب ، ونائله من امام زمانك على ظهر الغيب » (١٦) .

وكان الصليحى قد ذكر فى رسالته السابقة شيئا عن سوء الأحوال فى مكة ، ويطلب الاذن لاصلاح الفساد فى البلد الأمين . ولم يعترض الخليفة على هذا الطلب وان أوصاه « بتأليف القلوب وتجنب سورة الحروب » (١٧) .

خرج الصليحى من صنعاء فى الموسم ومعه أخوه عبد الله وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب ، مستخلفا ابنه المكرم أحمد فى الحكم ، ومستصحبا معه أمراء اليمن خوفا من تآمرهم أثناء غيبته ، غير أن الصليحى لم يكمل طريقه الى مكة اذ قتل هو وأخوه واهله ، واسرت زوجته ، فى كمين أعد له فى الطريق عند مدينة الكدراء بتهامة فى ذى القعدة ٤٥٩ / أكتوبر ١٠٦٧ (١٨) .

وكانت وفاة الصليحى خسارة كبيرة للفاطميين ، وتقديرا لخدماته واقرارا بوجود ولى عهده المكرم احمد فى حكم اليمن ، بعث المستنصر الفاطمى اليه برسالة عبر فيها عن اسفه لوفاة والده ، ويجمع اليه أمر الدعوة أيضا بعده (١٩) .

نخلص مما تقدم الى ماكانت عليه العلاقات من مودة وتعاون بين مصر واليمن على عهد على بن محمد الصليحى الداعى الفاطمى وأمير اليمن . والنتيجة أن الخلافة الفاطمية فى هذه المرة الثانية التى عاد فيها

اليمن الى نفوذها تلافت خطأها السابق بفصل أمر الدولة عن الدعوة كما حدث من قبل بعد وفاة ابن حوشب ، انما جمعت بينهما وجعلتهما بالوراثة فى بيت علي بن محمد الصليحي . فاستقرت تبعية اليمن للخلافة الفاطمية نحو قرن من الزمان . فهي تبعية روحية سياسية تتمثل في الدعاء باسم الخليفة الفاطمي فى خطبة الجمعة ، واقامة شعائر الشيعة الاسماعيلية، ثم ارسال الأموال والهدايا السنوية دون تدخل مباشر من جانب الفاطميين فى حكم اليمن. ولعل هذا يعطي نموذجا طيبا للعلاقة بين السلطة المركزية والسلطات المحليـــة فى الأقاليم التابعة لها ، دون محاولة فرض السيادة اى الحكم المباشر أو التدخل فى الشئون الداخلية فى وقت نضجت فيـــه الروح الاقليمية فىسائر جهات العالم الاسلامى. فتجنبت الخلافة الفاطمية مشاكل الحركات الانفصـــالية أو الثورات من جانب القوى المحليـــة كما نراها فى الشـــام . وانما توثقت العـــلاقات بين مصر واليمن على عهود المـــكرم احمد بن على الصليحى وزوجته ســيدة بنت احمد ، والخلفـــاء الفاطميين بمصر : المستنصر فالمستعلى ثم الآمر . وسارت على منوالها السابق ونراها فى وجوه عدة .

فقد واجه المـــكرم أحمد بعد مقتل أبيه انقـــلابات خطيرة من جانب رجالات اليمن ، علاوة على وجود أمه السيدة أسماء بنت شهاب فى أسر بنى نجاح فى زبيد . وأبدى المـــكرم فى بداية أمره شجاعة فائقة سواء فى انقاذ أمه من الأسر ، أو فى استعادة ملك أبيـــه الســـابق فى أنحاء اليمن . ثم رأى الاعتكاف . فكان أن فوض أمور الدولة الى زوجته سيدة بنت أحمد التى طلبت بدورها أن تسعفه من نفسها بقولها : « ان امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير أمر . فدعنى وما أنا بصدده » . كما نقلت عاصمة الدولة الصليحية من صنعاء الى ذى جبلة (٢٠) .

ولم تتدخل الخلافة الفاطمية فى هذه الشئون الداخلية انما نجـــد الخليفة المستنصر بالله يستمر فى تشجيع المـــكرم أحمد لمواجهة مشاكله، ويرسل اليه الشعارات والتشاريف ، وملابسه الخاصة على سبيل البركة كما فعل مع أبيه من قبل ، ويمنحه الألقاب التى فاقت القاب أبيه (٢١) . كما يمنح زوجته سيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى الألقـــاب منها : السيدة ، الحرة ، السديدة ، المـــكينة ، ذخيرة الدين ، عمـــدة

المؤمنين ، كهف المستجيبين ، صنيعة أمير المؤمنين (٢٢) . ثم يخاطب السيدة الحرة راسا بعد تفويضها بالحكم ويبين لها وسائل الحكم المثالية (٢٣) ويعتبرها مثالا أعلا للمرأة لتقلدها قلائد التقوى ولكفاءتها فى ادارة شئون البلاد ويقظتها فى أمور الدعوة . كما كان يرسل اليها برأيه فى الأمور ويطالبها بأن تسلك مسلك والدة المكرم السيدة أسماء بنت شهاب (٢٤). كذلك كانت أم الخليفة المستنصر تراسل السيدة الحرة وتخاطبها بقولها : « فاقمت للسياسة عمادها ، وسلمت اليك الكافة قيادها » (٢٥) .

واستمرت الخلافة الفاطمية فى مراسلة المكرم أحمد وزوجته السيدة الحرة بالأحداث الجارية بمصر فقد احيط المكرم علما بتقليد بدر الدين الجمالى منصب وزارة التفويض بالقاهرة . وأشار المستنصر بالله فى خطابه المؤرخ فى ذى القعدة ٤٧٠ / يونية ١٠٧٨ الى الخدمات العظيمة التى بذلها بدر الجمالى لتوطيد نفوذ الخلافة . كما طلب المستنصر بالله من المكرم الرجوع الى بدر الجمالى فى كل مايخص أمور الدعوة (٢٦) وخطاب آخر الى السيدة الحرة يشيد بذكر هذا الوزير وتقلده زمام الدعوة (٢٧) والواقع أن بدر الجمالى انقذ دولة المستنصر من الأخطار الداخلية بمصر ، وأعاد لها بعض سيادتها فى الشام . ونجد السجلات تؤيد بدرا حين يأمر المستنصر ملكة اليمن بقطع رؤوس أعداء بدر الذين هربوا من مصر الى اليمن (٢٨) .

كذلك عهدت الخلافة الفاطمية الى المكرم احمد ثم الى زوجته السيدة الحرة أمور الدعوة الفاطمية ليس فقط فى الحجاز واليمن بل فى عمان والهند أيضا . فهناك سجل صادر فى ربيع الثانى ٤٦٩ / ١٠٧٦ بتقليد المكرم أمر الدعوة فى عمان مطلقا يده للتصرف فى أمر الدعوة هناك (٢٩) . كما كان اليمن الصلة بين الدعاة وأتباع الدعوة بالهند وبين الخلافة الفاطمية بمصر . فكان بيد المكرم ثم زوجته السيدة الحرة رئاسة الدعوة هناك . ويصدر مرسوم الخليفة بالموافقة على من يرشحه كلاهما لتولى الدعوة هناك (٣٠). وتنوه الخلافة بالثقة فى المجهودات التى تقوم بها السيدة الحرة فى سبيل نشر الدعوة فى كل من اليمن وعمان والهند (٣١) . وبذلك ارتفع شأن الدعوة الفاطمية فى بعض جهات الجزيرة

العربيـــة والهنـــد على يد الصليحيين الذين ارتفع نفوذهم الروحى فى تلك المنـــاطق .

ثم توفى المـــكرم أحمد عام ٤٨٠ / ١٠٨٧ (٣٢) كى تثور المشاكل أمام السيدة الحرة فتلقى التأييد التـــام من جانب الخلافة الفاطمية . وماحدث أن المـــكرم أحمد قبيل وفاته أوصى بالحكم الى زوجته (٣٣) وبأمور الدعوة الى ابن عمه سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى (٣٤) . نجـــد أن السيدة الحرة الملكة أرادت أن تجعل أمر الدعوة الى ولدها عبـــد المستنصر حتى تظل هى المسيطرة على شئون اليمن جميعا كما كان على عهد زوجها . لذلك أرسلت الى الخليفة المستنصر الفاطمى تخبره بوفاة زوجهـــا المكرم، وتلتمس الموافقة على تعيين ابنها عبد المستنصر مكانه ، ورأى الخليفة بدوره أن تستمر الدعوة فى بيت على بن محمـــد الصليحى ، علاوة على مارآه فى السيدة الحرة من القوة والكفاية . فبعث الخليفة الى الســـيدة الحرة يعزيها فى وفاة زوجها ويثنى على وفائها للدعوة (٣٥) . كما أصدر مرسوما بتعيين ابنها عبد المستنصر أمر الدعوة باليمن خلفا لأبيه .وأرسل اليه كالعادة الألوية والملابس الخاصة (٣٦) .

غير أن هذه التولية لقيت المعارضة من بعض رجال اليمن وخاصة سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحى بدعوى صغر سن عبد المستنصر .. وتمسكت الحرة الملكة بسلطانها وأيدها الزواحيون وعلى رأسهم سليمان ابن عامر بن عبد الله الزواحى .. وهو أخوها لأمها (٣٧) . وقلقت الخلافة الفاطميـــة على نفوذهـــا فى اليمن من جراء هذا النزاع بين الصليحيين والزواحيين . فأرسل اليهم يطلب انهاء هذا الخلاف واطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر ، كما ناشدهم الاتحاد مقدرا الخدمات التى قام بها كل من الصليحى والمـــكرم والسيدة الحرة (٣٨) كما بعث الى السيدة الحرة يقول انه ينظر الى هذا النزاع بشىء من القلق ويطلب اليها السعى فى الصلح بين الفريقين (٣٩) . وهو فى نفس الوقت يؤيد عبـــد المستنصر باعتباره « سليل الدعوة ونجلها » ويرد على الاعتراض على تقليده لصغر سنه بالقول : « لأن الله تعالى فوض لأمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمان سنين ، وقد أجاز هذا فى الامامة وهى الدرجة التى تلى النبوة ،

فكيف الدعوة التى لأمير المؤمنين ان يتصرف فيها علىاختياره ويفوضها الى من يرتضيه ويختاره » (٤٠) .

ونجح هذا الدعم الفاطمى فى ابقــاء أمر الدعوة والدولة فى بيت على بن محمد الصليحى باستجابة المعترضين . واعلن الخليفــة سروره لزوال هذا الخلاف والصلح بين سبأ بن أحمد بنالمظفر الصليحى وسليمان ابن عامر الزواحى (٤١) . ومع كل فلم يعمر عبد المستنصر طويلا اذ توفى بعد قليل ليتجدد النزاع ثانية .

فقد تطلع سبأ بن احمد هــذه المرة الى الزواج من السيدة الحرة الملــكة فيكون له أمر الدولة والدعوة باليمن . وقدم سبأ بن احمد من حصن اشيح مقره الى ذى جبله . غير أن الملــكة رفضت عرض الزواج وساندها اخوها سليمان بن عامر الزواحى هذه المرة ايضا وحشــد آل الزواحى . وهكذا وقف الصليحيون والزواحيون للقتال ثانية الى أن وافق سبأ بن احمد على اقتراح غريمه سليمان بن عامر باســتئذان الخليفــة الفاطمى فى أمر هذا الزواج بقوله : « والله لا اجبتك الي ماتريد الا بأمر المستنصر بالله » (٤٢) .

وهكذا عاد ســبأ بن احمد الى حصنه اشيح كى يبعث رجلين الى القاهرة هما : القاضى حسين بن اسماعيل الأصــبهانى وأبو عبــد الله الطيب ، ومعهما رسالة يرجو فيها الخليفة التوسط بشأن هذا الزواج(٤٣) فأعادهما المستنصر مع مبعوث من قبله برسالة شفوية ، واستقبلتالملكة الحرة هؤلاء الرجال بدار العز فى ذى جبله وحولها وزراؤها وكتابها وأهل دولتها . واستمعت الى مبعوث الخليفة يقول : « أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية ، وحيدة الزمن ،سيدة ملوك اليمن ، عمدة الاسلام ، ذخيرة الدين وعصمة المسترشدين ، كهف المستجيبين ، ولية أمير المؤمنين ، كافلة أوليائه الميامين » ثم يذكر بعد هذه الألقاب قول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى اللهورسوله امرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) ويعقب ذلك برأى الخليفة بقوله : « وقد زوجكمولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد ، المنصور ، المظفر ، عمدة الخــلافة ، أمير

الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن على الصليحى على ماحضر من المـــال . وهو مائة الف دينـــار عينا ، وخمسون الفا أصنافا منتحف والطاف وطيبوكساوى » . عند ذلكأجابت السيدة الحرة الملكة مستشهدة أيضا ببعض آى الذكر الحكيم : « أما كتاب مولانا صلوات الله عليه وأمره فأقول فيه انى القى الى كتـــاب كريم (انه من سليمان . وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على واتونى مسلمين) . والتفتت الىالحاضرين تقول (يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ، ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) وأما أنت يا ابن الأصبهانى فوالله ماجئت الى مولانا من سبأ بنبأ يقين . ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لـــكم أنفسكم أمرا فصــــبر جميل والله المستعان على ماتصفون » (٤٤) .

وعندما أنهت حديثها تقدم اليها وزيرها زريع بن أبى الفتح والقاضى الحسين بن اسماعيل الأصبهانى وبعض رجال دولتها يحسنون لها هـــذا الزواج ويرجون حتى قبلت وأجابت الى العقـــد (٤٥) ومع كل فان الحرة الملكة لم تمكن زوجها الداعى سبأ بن أحمد بن المظفر لا من نفسها ولا من أمور الدولة بل ظلت هى تمارس السلطة مع دوام الصـــلة والصـــداقة المباشرة مع الخلافة الفاطمية بمصر .

وبالتالى وقفت اليمن بجانب مشكلات الخـــلافة بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمى ١٢ ذى الحجة ٤٨٧ / ٢٣ ديسمبر ١٠٩٤ وأبرزها مشكلة الوراثة فى الامامة التى فتحت انشقاقا فى الاماميـــة الاسماعيليـــة بين النزارية والمستعلية أتبـــاع كل من نزار والمستعلى ولدى المستنصر .فمن المعروف أن ولاية العهد لدى الفاطميين ليست بالتعيين والبيعـــة كما هو الحال فى الخلافة العباسية ، وانما تتم بالنص أو التنصيص كون الامام ينص على من يخلفه . وهذا النص قد يكون تحريريا بوصية ، أو شفويا وهو الغالب ، أو حتى بالتلميح (٤٦) . ويذكر كثير من المؤرخين انالمستنصر الفاطمى نص على امامة ابنـــه الأكبر نزار من بعده (٤٧) . غير أن الأفضل ابن بدر الدين الجمالى الذى خلف أباه فى وزارة التفويض عمل علىاقصاء نزار عن الامامة ، وتولية أخيه الأصغر أبى القاسم احمـــد الـــذى لقب بالمستعلى بالله (٤٨) . فنقل بذلك الامامة من أخ الى أخ بينما هى تكون فى الأعقاب حسب العقيدة الاسماعيلية . وهى المشكلة التى ســـنعرض الى أسبابها ونتائجها فيما بعد .

والمهم الآن ذكره أن السيدة الحرة الملكة وقفت بجانب المستعلى الذى ولى الخلافة ، وأرسل لها سجلا مؤرخا فى صفر ٤٨٩ / فبراير ١٠٩٧ تضمن وصفا لثورة أخيه نزار بالاسكندرية ، وكيف تغلب وزيره الأفضل عليها نهائيا (٤٩) . كما وصلها ايضا رسالة من والدة هذا الخليفة بنفس المعنى (٥٠) . وبهذه الصلة المباشرة ، وبفضل قوة شخصية الحرة الملكة لم تتأثر اليمن بهذا النزاع ، ووقفت الاسماعيلية باليمن الى جانب المستعلى واقامت له الدعوة أو الخطبة ثم لابنه الآمر من بعده .

وفى بداية القرن السادس الهجرى تعرضت السيدة الحرة الملكة الى تجرؤ بعض رجالاتها من خولان خاصة بعد وفاة زوجها الداعى سبأ ابن أحمد بن المظفر الصليحي عام ٤٩٥ / ١١٠١ ثم وفاة رجلها المفضل ابن أبى البركات والى التعكر عام ٥٠٤ / ١١١٠ — ١١١١ . فقد دبر الأخوان عمران وسليمان ابنا المسلم بن الزر من بنى مران من خولان (٥١) أمر الاستيلاء على حصن التعكر فى ربيع الأول ٥٠٩ / اغسطس ١١١٥ . ورغم انهما واصلا بذل الطاعة والخدمة للحرة الملكة الا انها لم تكن راضية عن هذا العمل الذى تم دون ارادتها ، ثم انها كانت بعيدة النظر والذكاء فهى لم تجاهر خولان بالعداء ، انما كانت تسلط عليهم بعض العرب لأسر رجال بنى الزر وتبدو هى مظهر فى الحكم فيما بينهم (٥٢) .

وعاصر تلك الأحداث أيضا امتناع آل زريع حكام عدن عن دفع قيمة الربع من خراج عدن ، وهو ماتبقى لها من حق سابق فى جملة هذا الخراج . فقد كان هذا الخراج بأكمله . يصل الى الحرة الملكة كصداق منذ زواجها من المكرم احمد ، تعهد به العباس ومسعود ابنا الكرم اليامى الهمدانى حاكما عدن من قبل على بن محمد الصليحى واستحلفهما على ذلك (٥٣) . ووفى زريع بن العباس بعد وفاة أبيه مع عمه مسعود بدفع حوالى مائة الف دينار سنويا للحرة الملكة الى أن قتل هذان الرجلان عند زبيد عام ٤٨٥ / ١٠٩٢ فى معركة مع بنى نجاح (٥٤) . فامتنع ولداهما بعدن أبو السعود بن زريع وأبو الغارات بن مسعود عن دفع ذلك الخراج فوجهت الحرة الملكة اليهما المفضل بن أبى البركات ودار القتال الى أن تم الصلح على دفع قيمة النصف فقط من هذا الخراج (٥٥) . ثم عادا الى قطع

هذا النصف بعد وفاة المفضل بن أبى البركات فتولى ابن عمه أسعد بن أبى الفتوح قتالهما وتم الصلح على قـــدر الربع فقط وهو ما امتنع آل زريع عن دفعه الآن أثناء انقلاب بنى الزر فى التعكر (٥٦) .

تلك أهم المشـــاكل الداخلية التى واجهت الحرة الملـــكة علاوة على طمع أهل اليمن فى أطراف بلادها ، وانتشار الفساد وغلاء الأسعار (٥٧) . وكان على الخلافة الفاطمية ضرورة مساندتها فى هـــذه الفترة العصيبة بارسال أحد رجالها الى اليمن وهو على بن ابراهيم بن نجيب الدولة داعيا وعونا للحرة الملكة ضد منافسيها وأعدائها . وكان هذا التدخل المبـــاشر من جانب الخلافة الفاطمية بداية المشاكل التى انتهت بزوال النفوذ الفاطمى من اليمن .

قدم ابن نجيب الدولة ومعه عشرون فارسا مختـــارا الى ذى جبله عام ٥١٣ / ١١١٥ « فتركته السيدة الحرة على بابها حافظا لها » (٥٨) . ثم بدأ التحرش بخولان بأن قبض على أحد كبارهم ويدعى سليمان بن عبيد، وضربه بالعصى حتى أحدث فى ثيابه . فزحفت خولان الى ذى جبلة وكاد يحدث مالا يحمد عقباه لولا تدخل أحمـــد بن سليمان الزواحى ، ابى أخى الحرة ، فأخذ الخولانى من ابن نجيب الدولة وأعاده الى قـــومه معززا مكرما . فهـــدأت خولان (٥٩) . اذ لم تكن خولان عاصية انما كانت تطمع أن يصير لها ملكا فى طاعة الحرة الملكة . ومع ذلك فقد حارب ابن نجيب الدولة بعد ذلك بنى الزر فى خدد ثم تهادنوا (٦٠) .

وكان على ابن نجيب الدولة التعاون مع الحرة الملكة فى ميـــادين اخرى فقام بواجبه فى خدمتها بغزو أهل الأطراف مثل وادى ميتم شرق ذى جبلة، وأهل السهلة فى جبل الشوانى « فأمنت البلاد ورخصت الأسعار وانكف الدعار » (٦١) . ثم هو نفسه كان رجلا شهما عاقلا حسن التدبير (٦٢) « فامتنع عن أموال الناس وانما عدل فيهم وأقام الحدود » (٦٣) .

هذا وقد استخدم ابن نجيب الدولة قوة محلية من ٣٠٠ فارس من بعض مذجح وهمدان على رأسهم الطوق الهمـــدانى قمع بها أهل الأطراف وأعاد هيبة وسلطان الحرة الملكة (٦٤) . ولم يلبث أن عز جانبه بما جاءه من المـــأمون البطانحى وزير الخليفة الآمر الفـــاطمى عام ٥١٥ / ١١٢١

من تفويض بالتصرف ، بالاضافة الى قوة عسكرية من الأرمن والسودان. فاتخذ مدينة الجند مقرا (٥٦) ليغزو منها زبيد وعدن .

نجد أن ابن نجيب الدولة تعرض للهزيمة فى قتال بنى نجاح أمام زبيد عام ٥١٨ / ١١٢٤ ، وفى قتال آل زريع عند الجوّة (٦٦) وبالتالى فشل فى فتح زبيد أمام الدعوة ، وفى استعادة الربع المتبقى للحرة الملكة من خراج عدن . وتأكد بذلك استقلال عدن الى سلطان الصليحيين .

ويبدو أن شيئا من سوء التفاهم قد ظهر عام ٥١٩ / ١١٢٥ بين الحرة الملكة والداعى المصرى الذى قال عنها أنها قد خرفت وتستحق الحجر (٦٧) ، أو أنها لا تصلح لتدبير الملك (٦٨) . فى الوقت الذى ثقلت فيه وطأة هذا الداعى الوافد على رجالات اليمن من أمثال سليمان وعمران ابنى الزر من خولان ، والمنصور بن المفضل بن أبى البركات الحميرى ، وأيضا آل زريع من همدان . فانتهز هؤلاء فرصة هذا التجافى ، واستأذنوا الحرة الملكة فى حصار ابن نجيب الدولة ومن معه من فرسان همدان بالجند . فأذنت لهم وهى تريد أن تلقن هذا الداعى المصرى درسا ترد به أعتبارها فى نظره دون الوصول الى حد معاداته . ذلك انه لما اشتد الحصار على ابن نجيب الدولة بالجند ، أخرجت الحرة الملكة قدر عشرة آلاف دينار مصرية ووزعتها على وجوه القبائل ، وأشاعت بين رجالهم أنها من ابن نجيب الدولة . فطلبوا بدورهم الأموال من رؤسائهم فماطلوهم وارتحلوا عنهم . وأصبحت الحشود من كل بلد بلا رئيس فانفضوا عن الجند . « وقيل لابن نجيب الدولة هذا تدبير الذى قلت انها قد خرفت فركب اليها الى ذى جبلة وتنصل واعتذر » (٦٩) .

وبالرغم من تعاون الحرة الملكة وهذا الداعى الوافد ونجاحهما فى اقرار النفوذ الفاطمى باليمن ، فان ابن نجيب الدولة لقى نهاية سيئة . ذلك أن رجالات اليمن كانوا يحقدون عليه ويدبرون أمر الخلاص منه وحانت الفرصة عندما جاء اليمن مبعوث من قبل المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر عرف بالأمير الكذاب فنظر اليه ابن نجيب الدولة كمنافس له فلميعبأ به وغض من شأنه . فكان أن التف حوله هؤلاء الناقمون واستمالوه بالهدايا للتخلص من عدوهم المشترك . فأوعز اليهم بمؤامرة من شقين.

أولها كما قال : أكتبوا على يدى الى مولانا الآمر كتبا تذكرون فيهـا أنه يدعوكم الى نزار ويراودكم عن ذلك فامتنعتم . وثانيا : ان اضربوا سكة نزارية وأنا أوصلها الى مولانا الآمر بأحكام الله . ونفذ الطلبان . وعاد المبعوث بالـكتب والسكة الى الخليفة بالقاهرة فأصدر هذا أمره بالقبض على ابن نجيب الدولة ، وسير من يدعى الموفق بن الخيـاط فى قوة من مائة فارس لاعتقال ابن نجيب الدولة .

وسبقت الأخبـار بمقدم ابن الخياط . فواجه الداعى موقفا صعبا بين الاستسلام أو الهروب . فكان يقول : (داع لا ينافق والموت أصلح له من النفاق) . ومع كل نراه يغادر الجند مقره الى بلاد بنى زبيد وهو فى قمة هذا الصراع النفسى لهذا يستجيب سريعا لاسـتدعاء الحرة الملـكة له . اذ كانت الملـكة قـد سيرت فى اثره من يستدعيه اليها بعـد أن نصحها أعداء الداعى بأن تحتفظ به لأن الامام لا يطلبه الا منها . ولم تكن الملـكة تريد تسليم ابن نجيب الدولة وان احتاطت وأبقته فى قصرها بذى جبلة ، وامتنعت عن تسليمه الى مبعوث الخليفة قائلة : أنت حامل كتاب فخذ جوابه ، والا فاقعد حتى أكتب الى مولانا ويعود الجواب .

ولم يكن المتآمرون يسكتون أو يرضون عن موقف الحرة الملكة وهم على وشك التخلص من عدوهم ، فكان أن اغروا أحد خلصاء الملكة (٧٠) لتخويفها سوء السمعة النزارية واشاعة ذلك عنها . وتعرضت الملـكة لضغط شديد واضطرت الى تسليم ابن نجيب الدولة بعد أن استوثقت له من ابن الخياط بأربعين يمينا . ثم هى لم تكتف بذلك بل أوفـدت كاتبها محمد بن الأزدى بهـدية (٧١) وكتاب تشفع فيـه لابن نجيب الـدولة لدى الخليفـة .

غير أن المتآمرين فوتوا على الحرة الملـكة محاولة انقـاذ الداعى المصرى . فكان أن أحاطوا به بعد خروجه من ذى جبلة وقيدوه بالحديد وتشفوا فيـه بالاهانة والشتيمة ، ثم سفروه فى البحر من عـدن الى مصر . أما مبعوث الحرة الملكة فقد أخروا ابحاره مدة خمسة عشر يوما كما دبروا عملية اغراقه بالمركب المتوجهة به الى مصر (٧٢) . فلم تصـل

شفاعتها فى ابن نجيب الدولة أسماع الخليفة الذى أمر بقتله عام ٥٢١ / ١١٢٧ (٧٣) .

ولا شك ان هذه الأحداث الأخيرة كانت صدمة قوية للحرة الملكة الا انها لم تغير موقفها من الخلافة الفاطمية بل ظلت تدعو للخليفة الآمر الذى بادلها ايضا التقدير والاجلال « ويرى انها من خيرة اعوانه » (٧٤). ودارت بينهما المكاتبات . فقد بشرها الخليفة بمولد ابن له فى ربيع الأول ٥٢٤ هـ سماه ابا القاسم الطيب ، وجعله ولى عهده ، كى تذيع هذا النبأ فى انحاء اليمن (٧٥) .

ولم يلبث أن قتل الخليفة الآمر بالقاهرة فى أواخر هذا العام ٥٢٤ / ١١٣٠ كى تثور مشكلة الوراثة مرة أخرى محدثة انشقاقا جديدا فى الفرقة المستعلية أو الاسماعيلية الغربية . وذلك بتولى عبد المجيد ابن عم الخليفة المقتول عرش الخلافة الفاطمية باعتباره اولا كفيلا انتظارا لحمل مرتقب ثم بويع بالخلافة وتلقب بالحافظ لدين الله . واستمرالصراع فى مصر حوالى سنتين الى أن استقرت الخلافة للحافظ . فما هو موقف اليمن من خلافة الحافظ ؟

نقرر منذ البداية أن الحرة الملكة رفضت الاعتراف بامامة الحافظ، فقد بعث اليها سجلا بداه بعبارة « من ولى عهد المسلمين » ثم سجلا ثانيا مبتدئا بعبارة « من امير المؤمنين » . ولم تكن الحرة الملكة راضية عن الطريقة التى وصل بها عبد المجيد الى عرش الخلافة (٧٦) فحسب ، انما هى تعتبر امامته باطلة . فالامامة كما نعرف تكون فى الأعقاب، وعبدالمجيد ليس من ابناء الامام السابق فهو ابن عمه . وكان الأمر واضحا أمامها . فهى على علم سابق بمولد ابى القاسم الطيب بن الآمر وولايته للعهد . ولذا اتخذت الملكة موقفا مخالفا لامامة القاهرة بالدعوة للطيب بن الآمر بقولها : « حسب بنى الصليحى ماعلموه من أمر مولانا « الطيب » وولت الحرة ابراهيم بن الحسين الحامدى أمر الدعوة الطيبية (٧٧) فى دولتها .

ومعنى هذا أن الحرة الملكة اتخذت لنفسها منحى مستقلا عن الامامة فى مصر بالدعوة للامام الطيب متبعة ما تقوله الفرقة المستعلية . وعن طريق اليمن امتدت الدعوة المستعلية من قبل الى الهند التى كان للحرة

الملكة الاشراف على تعيين الدعاة بها (٧٨) . كذلك أرسلت تهدد هاشم بن فليته شريف مكة اذا لم يقطع الخطبة للحافظ ويدعو للطيب (٧٩) .

على أن الجدير بالذكر هو أن الدعوة الطيبية لم تسد اليمن . فقد رأينـــا من قبل استقلال آل زريع بعدن عن دولة الصليحيين ، ثم أخذت الآن موقفا جديدا ومغايرا بالنسبة للدعوة وذلك بقيام أميرها سبأ بن أبى السعود بن زريع بالدعوة للخليفة الحافظ (٨٠) . وبدأ عنـــدئذ انقســـام الدعوة فى اليمن بين الطيب والحافظ أو بين آل الصليحى وآل زريع .

ويبدو أن دولة الصليحيين وكذا الدعوة الطيبية كانت بسبيل الأفول بوفاة الحرة المـــلكة فى ذى جبلة فى شـــعبان ٥٣٢ / ١١٣٧ عن ٨٨ عاما . اذ لم يكن بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تتابعسياستها، انما آلت حصونهم (٨١) وذخائرهم الى المنصور بن المفضل بن أبى البركات الحاكم فى الجند والذى عجز عن الاحتفاظ بما لديه من ملك بالنسبةلارتفاع شأن آل زريع .

ذلك أن الداعى سبأ بن أبى السعود بن زريع توفى فى نفس عام وفاة الحرة الملكة ، فخلفه ابنه على الأعز بوصـــية سابقة ، واســـتقر بالدعوة . غير أنه كان مريضا بالسل فتوفى بعد عامين فتولى أخوه محمد حكم الدولة واستقر بعدن . وما لبث أن قدم من القاهرة القاضى الرشيد احمد بن الزبير يحمل أمر تقليد الدعوة للخليفـــة الحافظ الى على الأعز فوجده قد توفى . ولم يكن أمام المبعوث الفـــاطمى وبتشجيع من الوزير بلال بن جرير المحمدى سوى اقرار الأمر الواقع بتقليد الدعوة أخاه محمد ابن سبأ ولقبه « العظيم المتوج المكين » (٨٢) .

وهكذا ارتفع شأن آل زريع فى عدن يساندهم النفوذ الفاطمى الأمر الذى لم يتوفر للمنصور بن المفضل الحاكم فى بقـــايا ملك الصليحيين فى اليمن ، فآثر التنازل الى الداعى محمد بن سبأ والاســـتقرار فى حصنيه صبر وتعز نظير مبلغ من المال . وان ذكر المؤرخون (٨٣) أن الداعى محمد ابن سبأ اشترى من المنصور بن المفضل جميع مافى حوزته من معـــاقل الصليحيين وهى ٢٨ حصنا ومدينة منها ذى جبلة بمائة الف دينـــار عام ٥٤٧ / ١١٥٢ . واستقر الداعى محمد بن سبأ يحكم فى ذىجبلة عاصمة

الصليحيين سابقا ، ثم خلفه ابنــه الداعى عمـــران عام ٥٤٨ / ١١٥٣ الذى كانت تدور المراسلات بينـــه وبين طلائع بن رزيك وزير الخليفـــة الفائز ثم العاضد آخر الخلفاء الفاطميين (٨٤) .

هذا وقد توفى الداعى عمران بن محمد بن سبأ بعدن عام ٥٦٠ / ٦٤ـ١١٦٥ وقد شهد ضياع ملــكه فى نجد اليمن الأسفل بسبب غزوات بنى مهدى حكام زبيد ، توفى عن ثلاثة أطفال نقلوا الى حصن الدملوةتحت كفالة جوهر المعظمى مولاه ونائبه فى هذا الحصن وظل ياسر بن بلال بن جرير على نيابته فى حكم عدن (٨٥) . فتوقفت أيضا الدعوة الفاطمية فى كل من عدن والدملوة دون سائر اليمن . وانتهت الخلافة الفاطمية ذاتها بالقاهرة عام ٥٦٧ / ١١٧١ على يد صلاح الدين الأيوبى قبل أن تفيقعدن بهزيمة بنى مهدى عام ٥٦٩ / ١١٧٣ . كما لم يلبث أن قدم الجيشالأيوبى اليمن ليبـــدأ عهد جـــديد فى تاريخ العلاقات بين مصر واليمن فى العصر الاســـلامى .

ومن ناحية أخرى نقول أن هذا الارتباط السياسى والمذهبى بين مصر واليمن أدى الى تعزيز العلاقات التجارية بينهما بدرجـــة كبيرة متمثلة فى نشاط تجار الـكارم . وكأنما ســـعى الفـــاطميون الى توثيق العلاقات السياسية والمـــذهبية مع اليمن وســـيلة لتأمين التجارة فى البحر الأحمر وتدعيم العلاقة التجارية مع عدن بخاصة باعتبارها مركز تجارة الهنـــد والشرق الأقصى وأدت التجارة دورها فى نشر الدعـــوة الاسماعيلية فى المحيط الهندى على يد التجار الكارمية حتى أن أهالى الهنـــد لم يكونوا يفرقون بين الدعاة الاسماعيلية والتجار . وكانوا يطلقون على الاسماعيلى منهم اسم « بوهرا » ومعنـــاها تاجر البهار . ولا زال هذا الاسم علما على اتباع الاسماعيلية بالهند حتى اليوم .

ومن المعروف أن طريق البحر الأحمر عاد الى الازدهار للمرة الثانية فى العصر الاســـلامى منذ منتصف القرن الثالث الهجرى على حســـاب طريق الخليج ، بسبب ضعف الخلافة العباسية لسيطرة الأتراك عليهـــا وتنذاك ، فضلا عن قيـــام ثورات الزنج ثم القرامطة جنوبى العراق فعاد النشـــاط الى ميناء عدن . واهتم حكام البـــلاد المطلة على البحر الأحمر بتجارته لـــا يعود عليهم بربح وفير سواء من حصيلة الرسوم الجمركية

على البضائع الشرقية أو المتاجرة فيها . نشاهد ذلك على عهد كل من الطولونيين والاخشيديين بمصر بامتداد نفوذهم الى الحجاز وبالتالى اليمن باقامة العلاقات التجارية مع الدولة الزيادية ثم دولة بنى نجاح فى زبيد. واستمرت هذه العلاقات التجارية حتى بلغت قمة ازدهارها فى العصر الفاطمى زمن الصليحيين ثم آل زريع باليمن .

ودائما تمدنا مصر بالوثائق التى هى فى منهج البحث التاريخى من المصادر الأولى فى كتابة التاريخ ، كما تعطينا التفاصيل الدقيقة بشكل غير متوفر فى المصادر الأدبية ولدينا مجموعة الوثائق العربية ـ اليهودية ، الناطقة باللسان العربى ـ المكتوبة بالخط العبرى ، المعروفة باسم وثائق الجنيزة . وهى عبارة عن خطابات متبادلة بين عدن وبلدان جنوب الجزيرة العربية ، وموانى البحر الأحمر وموانى الهند وبين القاهرة وبالعكس . أو بين عدن والهند وبالعكس ، أو بين بلدان الهند نفسها ، استخرج منها الباحثون الأجانب مجموعة خاصة بتجارة الهند عبر البحر الأحمر زمن الفاطميين والأيوبيين . وهى تعكس لنا مدى ازدياد النشاط التجارى مع الهند عبر البحر الأحمر فى هذه الفترة .

ولا يتسع المقام لدراسة العملية التجارية بتفاصيلها الدقيقة التى افصحت عنها تلك الوثائق ، انما يهمنا القول ان عدن كانت المركز الرئيسى للطريق الملاحى ترسو فيه سفن الكارمية فى ذهابها أو ايابها من الهند، الا اذا اضطرت الى المرور بها حسب أحوال البحر والرياح أو الظروف السياسية (٨٦) . ومن عدن كانت البضائع تنقل بالسفن الى الساحل الغربى للبحر الأحمر على الشاطىء المصرى حيث يوجد ميناء عيذاب ، ومنها كانت تنقل عبر الصحراء الشرقية الى قوص ، ثم تأخذ طريق النيل الى الفسطاط ، ويذكر المقريزى ان عيذاب زمن الفاطميين كانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط بها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة (٨٧) وتبعا لازدهار عيذاب ازدهرت مدينة قوص وأصبحت فى العصر الفاطمى أهم أسواق مصر لكثرة الصادر والوارد عليها من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود والأحباش.

وظهر اهتمام الخلافة الفاطمية بتأمين الطريق البحرى التجارى مع

اليمن ، بتواجد اسطول حربى يتكون من خمس الى ثلاث قطع حربية قاعدته عيذاب ، ويتجول فى البحر فيما بين عيذاب وسواكن لضرب القراصنة الذين يتعرضون لسفن الكارم . واشرف على هذا الأسطول والى قوص ، وربما تولاه أمير من الباب يحمل اليه من خزائن السلاح مايكفيه (٨٨) ومع كل فهناك خطاب مرسل من حاكم دهلك يشير فيه الى أن مراكب الكارم لم تكن دائما بمنأى عن هجوم متجرمة البحر (٨٩) ، رغم تواجد الأسطول الفاطمى .

هذا الطريق البحرى بين مصر واليمن وبعبارة أدق عدن — عيذاب أو القصير ثم قوص فالفسطاط ، استخدمته السفارات الرسمية المتبادلة بين القطرين حاملة الرسائل والهدايا . كما استخدمه التجار من مختلف الجهات من مصر والمغرب والفرس والحضارمة والمقادشة والزيالع والحبوش ، ومن مختلف الأديان وبخاصة اليهود الذين كانوا يتجرون بأنفسهم أو وكلاء عنهم ، على سفنهم أو سفن غيرهم ، وهؤلاء جميعا تحولوا وصاروا أصحاب خير ونعم . ولا أدل على الفوائد الماديةماتذكره المصادر عن ثراء حكام مصر واليمن فى ذلك العصر . ولعل المصالح التجارية والمادية هى التى أملت على حكام عدن من بنى رزيع استمرار الارتباط المذهبى والسياسى مع الفاطميين بمصر فاعترفوا بامامة الحافظ لدين الله ومن خلفه من الأئمة بالقاهرة دون الامام الطيب ابنالآمر الذى تمسك به الصليحيون . وظلت عدن مركز الدعوة حتى نهاية العصر الفاطمى .

هذه الحركة التجارية العالمية أصابها كثير من الانكماش بسبب الحروب الصليبية ، بجانب مقاطعة تجارية بهدف ضرب الاقتصاد المصرى ليسهل للصليبيين بعد ذلك هزيمة مصر عسكريا . وتوقفت بالفعل حركة التجارة بين الشرق والغرب بامتناع سفن التجار الفرنج عن التردد على الاسكندرية التى تكدس فيها ما كانت مصر تصدره من فائض السلعالشرقية بالاضافة الى المنتجات المصرية (٩٠) . وظهر أثر ذلك جليا فى الأزمة النقدية التى تعرضت لها مصر بنفاذ العملة الذهبية والفضية من أسواق مصر كما عبر عنها المقريزى ، فى أحداث عام ٥٦٧ هـ (٩١) وهو العام الذى انتهت فيه الخلافة الفاطمية .

وقد خيل لقادة الصليبيين أنهم نجحوا فى خطتهم بخنق مصر أقتصاديا، الا أن هذه الخطة لم يقدر لها النجاح بسبب تعارض هذه الروح الصليبية مع مصالح الجمهوريات الايطالية التجارية من ناحية ، واصلاحات صلاح الدين الأيوبى المالية بمصر من ناحية أخرى كان أهمها تنفيذ مشروع حملة اليمن فى رجب عام٥٦٩ / فبراير ١١٧٤ لتحقيق عدة أهداف أولها السيطرة على مدخل البحر الأحمر من طرفه الجنوبى ، وبعبارة أخرى اغلاق باب المندب أمام التوسع الصليبى المرتقب فى البحر الأحمر . وثانيا حماية تجار الكارم فى عدن وكذا ضمان الطريق التجارى فيها الى الموانى المصرية فى عيذاب أو القصير كى تحصل مصر فى النهاية على المكوس التى كانت تفرض على تجارة العبور فى تلك الموانى جميعا .

الحـواشى

(١) أنظر كتاب تاريخ اليمن الاسلامى (عصر الولاة) للمؤلف ١٧١— ١٧٩ ، القاهرة ١٩٧٥ .

(٢) عمـارة اليمنى : المفيد فى أخبـار صـنعاء وزبيد ص ١١٦ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ص ٥٢ ، القاهرة ١٩٦٥ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ١٦١/٢ ، ليدن ١٩٣٦ .

(٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٣ ، القاهرة ١٩٣٩ ، ابن الربيع : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ٢٤٧ ، القاهرة ١٩٧١ .

(٤) حسين بن فيض الله الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢١٨ ، القاهرة ١٩٥٥ .

(5) Al - Hamadani, (Hussain), Letters of Al - Mustansir Billah, p. 313. (Bulletin of the School of Oriental Studies, Vol, VII, part 2, 1934).

(6) Ibid, p. 312 - 313.

(٧) السجلات المستنصرية : سجل رقم ٦١ ص ٢٠٢ وردت بصدد المـكرم ، القاهرة ١٩٥٤ .

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ٥١٥/٣ — ٥١٦ طبعة دار الـكتب المصرية .

(٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ص ١٤٥—١٤٦ ، القاهرة ١٩٤٨ .

(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى ٢٧٠/٤ .

(١١) نفس المصدر : دكتور عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٢٢٤ ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٣٠/١٠ بيروت ١٩٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ٧٢/٥ ، طبعة دار الكتب المصرية . أبو الفـدا : المختصر فى أخبـار البشر ١٥٤/٢ ، القـاهرة ١٣٢٥ هـ ، الصليحيون : ٩٠ .

(١٣) آخر القاب الصليحى كما وردت فى السجلات : الأمير ، الأجل، الأوحد ، أمير الأمراء ، عمدة الخلافة، شرف المعالى ، تاج الدولة ، سيف الامام ، المظفر فى الدين ، نظام المؤمنين (انظر د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ١٩٨ — ١٩٩) .

(١٤) الصليحيون : ملحق ٢ ص ٣٠٢ كذلك لقب الأخ الأوسط بالأمير المكرم ، والأخ الأصغر بالأمير الموفق (نفسه) .

(١٥) الصليحيون : ملحق ٣ ص ٣٠٣ ، ملحق ٤ ص ٣٠٤ .

(١٦) الصليحيون : ملحق ٥ ص ٣٠٥–٣٠٧ .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) عمارة اليمني : المفيد ص ١٢٣ — ١٢٥ قتله سعيد الأحول وأخوه جياش انتقاما لمقتل أبيهما نجاح في زبيد بالسم على يد جارية كان قد أهداها الصليحي له (نفس المصدر : ص ١١٤ ، قرة اليون : ٢٤٦).

(19) B. O. S., 1934, Vol, VII, part 2, p. 319.

(٢٠) عمارة اليمني ، المفيد ص ١٣٨–١٣٩ ، قرة العيون : ٢٦٣ .

(٢١) القاب المكرم : الملك ، الأجل ، الأوحد ، المنصور ، العادل ، المكرم ، عمدة الخلافة ، تاج الدولة ، سيف الامام ، المظفر في الدين ، نظام المؤمنين ، عماد الملة وتحيات الأمة ، شرف الايمان ومؤيد الاسلام ، عظيم العرب ، سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه (انظر السجلات رقم ٥٦ و٥٨ و٥٩) .

(٢٢) سجل رقم ٤١ ص ١٤٢ ، ٥٥ ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢٣) سجل رقم ٤٤ ص ١٥٢ — ١٥٤ .

(٢٤) سجل رقم ٢٠ ص ٧٦ — ٧٨ .

(٢٥) سجل رقم ٥١ ص ١٧٠ .

(٢٦) سجل رقم ٣٤ ص ١٠٦ — ١٢٩ .

(27) B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 312.

(٢٨) سجل رقم ١٦ ص ٦٧–٦٩ ، ٥٣ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢٩) سجل رقم ٥٤ ص ١٧٦ — ١٧٩ .

(٣٠) سجل رقم ٥٠ ص ١٦٧ — ١٦٩ .

(31) B. O. S., 1934. Vol. VII, part 2, p. 321.

(٣٢) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ص ١٢٢ — ١٢٣ القاهرة ١٩٥٧ . يذكر بعض المؤرخين تاريخا آخر لوفاة المكرم احمد هو عام ٤٨٤هـ (عمارة اليمني : ١٤٦ ، تاريخ ثغر عدن : ٢/٩) واخذ به سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٧٨ القاهرة ١٩٦٧) ويذكر د. ماجد سنة الوفاة ٤٧٨/١٠٨٥ (ظهور خلافة الفاطميين : ص ٢٠٣) والراجح ماذكره ابن سمره .

(٣٣) تاريخ ثغر عدن : ٩/٢ ، ابن المجاور : ٧٣/١ .

(٣٤) المصدر السابق ، المفيد : ١٤٦ ، قرة العيون : ٢٩٥ .

(35) B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 366.

(٣٦) سجل رقم ٤٨ ص ١٦١ — ١٦٥ .

(٣٧) المفيد : ١٥١ (هو سليمان بن عامر بن سليمان بن عامر بن عبد الله الزواحى ، قتله المفضل بن أبى البركات بالسم . نفسه : ١٣٦)

(٣٨) سجل رقم : ٣٨ ص ١٢٨ — ١٣٤ .
B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 319.

(٣٩) د. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٨٨ .

(٤٠) سجل رقم ٣٧ ص ١٢٢ — ١٢٨ .

(41) B. O. S., 1934. Vol, VII, part 2, p. 321.

(٤٢) المفيد : ١٥١ ، بهجة الزمن : ٥٧ ، قرة العيون : ٢٦٧ .

(٤٣) المفيد : ١٥١ — ١٥٢ ، قرة العيون : ٢٦٧ .

(٤٤) المفيد : ١٥٢ — ١٥٣ ، قرة العيون : ٢٦٨ .

(٤٥) نفس المصدرين .

(٤٦) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ٤٠٨ .

(٤٧) الكامل فى التاريخ : ٢٣٧/١٠ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٣٧ تحقيق هنرى ماسيه ، القاهرة ١٩١٩ . ابن خلدون : العبر ٦٦/٤ بولاق ١٢٨٤ هـ .

(٤٨) ابن ميسر : تاريخ مص ٣٥ .

(٤٩) السجلات المستنصرية رقم ٤٣ ص ١٤٥ — ١٥١ .

(٥٠) السجلات المستنصرية رقم ٣٥ ص ١٠٩ — ١١٧ .

(٥١) كانت خولان قد قدمت الى مخلاف جعفر قبل وفاة المفضل بن أبى البركات فى جمع كبير بلغ ستة آلاف مقاتل من بطون مختلفة من بنى مران وبنى بحر وبنى منبه ، وبنى رازح وغيرهم ففرقهم المفضل فى الحصون واستحلفهم . ثم انضموا الى ثورة الفقهاء بحصن التعكر حتى وفاة المفضل وتدخل الملكة الحرة لتهدئة الفقهاء . وما لبث أن ظهر المسلم بن الزر من بنى مران واستولى على حصن خدد . ومع ذلك فقد تقرب الى الحرة الملكة بارسال ولديه سليمان وعمران فقربتهما . ثم خلف سليمان أباه فى خدد . ودبرا من بعد أمر الاستيلاء على التعكر وحازه عمران (المفيد ١٦٢ — ١٦٤) .

(٥٢) المفيد : ١٦٣ — ١٦٥ كانت الحرة الملكة تستعين بقبيلة جنب من مذجح وعلى رأسها عمرو بن عرفطة الجنبى لاقرار سيادتها أمام خولان (نفس المصدر) .

(٥٣) المفيد : ١٧٨ ، قرة العيون : ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٥٤) المفيد : ١٧٩ ، تاريخ ثغر عدن : ٤١/١ ، قرة العيون : ٣٠٦

(٥٥) المفيد : ١٥٩ ، ١٧٨ صالح الحامد : تاريخ حضرموت ٣٤٨/١ جدة ١٩٦٨ ، قرة العيون : ٣٠٦ .

(٥٦) المفيد : ١٧٩ ، قرة العيون : ٣٠٦ .

(٥٧) المفيد : ١٦٧ .

(٥٨) تاريخ ثغر عدن : ٧١/٢ ، قرة العيون : ٤٧٢ .

(٥٩) المفيد : ١٦٧ .

(٦٠) المفيد : ١٦٩ .

(٦١) المفيد : ١٦٧ .

(٦٢) تاريخ ثغر عدن : ١٣٢/٢ ، بهجة الزمن : ٥٩ .

(٦٣) المفيد : ١٦٧ .

(٦٤) نفس المصدر .

(٦٥) نفس المصدر .

(٦٦) نفس المصدر : ١٦٨ — ١٦٩ ، تاريخ ثغر عدن : ١٣٣/٢ .

(٦٧) المفيد : ١٧٠ ، قرة العيون : ٢٧٥ .

(٦٨) بهجة الزمن : ٥٩ .

(٦٩) المفيد : ١٧٠ — ١٧١ ، بهجة الزمن : ٥٩ ، قرة العيون : ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٧٠) هو عبد الله بن المهدى كانت الحرة تصغى الى رأيه، واستماله سليمان وعمران ابنا الزر بعشرة آلاف دينار وحصنين نبأعمالهما ليتحدث الى الملكة فى أمر ابن نجيب الدولة (المفيد : ١٧٤) .

(٧١) بلغت قيمة الجواهر التى فى الهدية أربعون ألف دينار (المفيد : ١٧٤) .

(٧٢) المفيد : ١٧١ — ١٧٥ ، قرة العيون : ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٧٣) ابن ميسر : ٧٠ .

(٧٤) د. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ١٠٠ .

(٧٥) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٣/١ ، الصليحيون ملحق رقم ٨ .

(٧٦) د. سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ١٠٠ .

(٧٧) المفيد : ٢٥٦ .

(٧٨) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين : ٤٣٠ .

(٧٩) د. سرور : المرجع السابق ٣٢ والمصادر الواردة .

(٨٠) المفيد : ١٨١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، قرة العيون : ٢٧٨ .

(٨١) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ١٢٤ .. بعد وفاة الحرة الملكة ظل الحكم بيد الصليحين بعض الوقت بحكم على بن عبد الله الصليحى دون السنة ، وبعده زوجته أسماء بنت محمد الصليحى ، وانضم اليهــا السلطان كحيل واسمه عبد الله بن محمــد . الى أن آل الأمر أخيرا الى المنصور بن المفضل (نفس المصدر : ١٢٣ — ١٢٤) .

(٨٢) المفيد : ١٨٩ — ١٩٠ ، تاريخ ثغر عدن : ٢١٧/٢ ، قــرة العيون : ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٨٣) المفيد : ١٩٣ ، تاريخ ثغر عدن : ٢١٨/٢ .

(٨٤) المفيــد : ١٩٥ .

(٨٥) المفيد : ٢٤٧ ، قرة العيون : ٣٦٢ .

(٨٦) مثل حصار حاكم كيش لعدن وقت الصراع بين حكام عدن من بيت أبى الغارات مسعود وبيت زريع بن العباس انظر المفيد : ١٨٢ — ١٨٥ ، ابن المجاور : ١٢٤/١ ، قرة العيون : ٣٠٦ — ٣٠٩ .

(٨٧) المقريزى : الخطط ١٠٢/١ .

(٨٨) القلقشندى : صبح الأعشى ٥٢٠/٣ .

(89) Goitein : Studies in Islamic History and Institutions, p. 356. Heiden, 1966.

(٩٠) القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ١٣٢ .

(٩١) المقريزي : كتاب النقود القديمة الاسلامية ص٥٩ القاهرة ١٩٣٩

٤

جيش اسماعيل فى ضوء وثيقة جديدة لم تنشر

بقلم : الدكتور عبد العظيم رمضان
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
بجامعة المنوفيـــة

ينسب لمحمـــد على الفضـــل فى تكوين أول جيش نظـــامى مصرى حديث . وكان الجيش المصرى فى العهد العثمـــانى المـــلوكى يتكون من العثمانيين والمماليك ، وفى أوائل عهد محمد على كان يتكون من خليط من الترك والألبان والمغـــاربة والدلاة . ومع أن محمد على قـــد حقق بهذا الجيش الانتصـــارات فى النوبة والحجاز ، الا أنه أدرك أنه لن يستطيع تحقيق مثل هذه الانتصارات اذا اصطدم بجيش أوروبى منظم على الأساليب والأنظمة الحديثة ، ولذلك قرر تكوين جيش على أحدث النظم ، وهـــو ماعرف باسم النظام الجديد .

وفى البداية لم يشأ محمد على تجنيد الأتراك أو الأرناؤد خشـــية خروجهم على الطاعة واثارة الفتن والتمرد . كما لم يكن فى وسعه تجنيد الفلاحين المصريين حتى لا يخرج على عرف امتـــد آلاف السنين ، وهـــو حرمان الطبقـــة التى لا تملك وسائل الانتاج من السلاح . ولذلك لجأ الى السودانيين من كردفان وسنار . فاستجلبهم الى مصر ، وأقام لهم المعسكرات فى أسوان ، وفى بنى عدى ، وبالقرب من منفلوط . ولـــكن فشل التجربة دفعه الى تجنيد الفلاحين المصريين ، فاصطبغ الجيش المصرى لأول مرة منذ العصر الفرعونى بالصبغة المصرية .

مع ذلك فان قيادات الجيش المصرى ظلت من العناصر الأجنبيـــة . وكانت هذه العناصر تنقسم الى قسمين :

١ ــ عنـــاصر اسلامية .

٢ ــ وعناصر أوروبيـــة .

وفيما يتصل بالعناصر الاسلامية ، فان ضباط الأسلحة المختلفة كانوا فى الأصل من الترك والألبان والشراكسة ، على أنه فى حرب المورة وسوريا قام ابراهيم بتشجيع الجاويشية المصريين بترقية أشجعهم الى رتبة الملازم الثانى . ثم أخذ العنصر المصرى بين الضباط يزداد مع ايفاد البعثات العسكرية الى أوروبا ، على أن كبار الضباط ظلوا على الدوام غير مصريين . ولم يكن الا فى عهد محمد سعيد باشا حين أصدر أمره بانتظام أولاد العمد والمشايخ فى سلك العسكرية ، فأخذ التركيب الاجتماعى للجيش منذ ذلك الحين فى التغيير .

أما بالنسبة للعناصر الأوروبية ، فلم تنقطع عن قيادة الجيش المصرى منذ أن أصبح قوة نظامية واستمر ذلك حتى فى أثناء الثورة العرابية ، ثم انتقل اليها القياد بعد الاحتلال البريطانى .

وتعتبر سنة ١٨٣٩ هى السنة التى بلغ الجيش المصرى فيها أوجه من الناحية العددية . فوفقا لاحصاء كلوت بك فى : « لمحة عامة عن مصر » ، كان عدد الجنود النظامية من المشاة والفرسان والمدفعية ١٣٠ر٢٠٢ . وكان الى جانبهم جنود غير نظامية باشبوزق يبلغ عددهم ٤١ر٦٧٨ ، ثم الرديف وعددهم ٤٧ر٨٠٠ ، وعمال الفبريقات المدربون على القتال ، وعددهم ١٥ر٠٠٠ ، ثم طلبة المدارس الحربية المستعدون للقتال ، وعددهم ١٢٠٠ ، ومعنى ذلك أن مجموع الجيش كان يبلغ ٢٣٥ر٨٨٠ .

أما عدد السفن الحربية ، فقد بلغ ١١ بارجة ، و ٧ فرقاطات ، و ٥ سفن من طراز قرويت ، و٩ من نوع الابريق . ومجموع جنودها ١٦ر٠٠٠ جندى .

على أنه بعد انتهاء الحروب السورية ، وابرام معاهدة لندن ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، نقص عدد الجيش . ولكنه لم ينقص الى الحد الذى نص عليه فرمان الوراثة الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١ — أى الى ١٨ الفا ، وانما تحايل محمد على على هذه العقبة واستطاع الاحتفاظ بجيش يبلغ عدده نحو ثمانين الفا . فوفقا لما أورده « مرى » Murray القنصل البريطانى العام فى رسالته الى حكومته فى مايو ١٨٤٥ ، كان الجيش

المصرى يتألف من ثمانية عشر آلايا من المشاة ، منها سبعة فى السودان،

كما كان يتألف من تسعة آلايات من « السوارى » وعشرين الفا من رجال المدفعية ـــ أى انه كان يبلغ ثمانين الفـــا ، لم يكن يدرب منهم الباشا غير عشرين الفا احتراما لفرمان الوراثة ، أما الباقون فقـــد كلفوا بمهام انجاز المنشآت العامة كالجسور والقناطر والرياحات والترع .

وفى عهد عباس الأول ، تراجع الاهتمام بالجيش . ولـــكنه استرد أهميته فى عهد سعيد الذى اثرت فيه نشأته الأولى على ظهر الأسطول . فقد قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية فأصبحمتوسطها سنة واحدة. وأمر بأن تعمم الخدمة العسكرية بحيث يقترع أبناء المشايخ والعمدوأقاربهم كسائر الفلاحين .

على أن سعيدا لم يكن يستقر على حال واحدة فى اهتمامه بشئون الجيش . ففى سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش ، ولم يبق منـــه الا ست أورط من المشاة ، وثلاثة بلوكات من الفرسان ، وبلوكين من المدفعية . ولمـــا سافر فى رحلة الى الســـودان فى أواخر ســـنة ١٨٥٦ اصطحب أورطتين من الجيش . وفى سنة ١٨٦٠ ، حين توترت العلاقات بينه وبين تركيا بسبب مسألة قنـــاة السويس ، أعاد الجيش ثانية ، ونظم فيـــالقه استعدادا للحرب ضـــد السلطان ، وقاد بنفسه هذا الجيش ، وعسكر به فى مريوط . وكان عدد الجيش وقتئذ ٦٤٫٠٠٠ مقاتل وفقا لاحصـــاء اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه : حقـــائق الأخبـــار عن دول البحار ، الجزء الثانى .

ثم صرف سعيد معظم هذا الجيش بعد أن تحسنت علاقاته مع تركيا . وفى سنة ١٨٦٢ أعاد تنظيم بعض الفـــرق . ولـــكن وفقـــا لمـــا أورده فرديناند دى ليسبس فى كتابه عن وثائق تاريخ القتال ، الجزء الرابع ـــ عاد فانقص الجيش من ستين الفا الى نحو ثمانية آلاف أو عشرة آلاف ، وذلك لكى يخصص اكبر عدد منالمقترعين لأعمالالحفر فى قناة السويس.

وعندما انتقل الحكم الى يد اسماعيل ، انتعش الجيش من جديد . ففى الفترة الأولى من حكمه ، عنى به عناية فائقة ، فأرسل الى فرنســـا بعثة حربية تتألف من خمسة عشر ضابطا من خيرة ضباط الجيش ، وهم:

شاهين باشا ، وابراهيم باشا السوارى ، وعلى بك الطوبجى ، وعلى بك وهبى ، ويوسف بك صديق ، ومحمد بك رضا ، ومحمود بك سامى ، واسماعيل بك أيوب ، وعبد القادر بك حلمى ، ومصطفى بك فهمى ، وعثمان بك غالب ، واحمد أفندى حمدى ، وحسين أفندى مظهر ، ومحمد أفندى . وقد درس هؤلاء النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العامة ، وغير ذلك من فنون الحرب .

ثم أخذ اسماعيل فى اعادة تنظيم الجيش . وبدأ باعادة تنظيم المدارس الحربية . فاستدعى فى عام ١٨٦٤ بعثة عسكرية من فرنسا على رأسها الكولونيل ميرشيه Mircher ، ونقل المدرسة الحربية من القناطر الخيرية الى قصر النيل ثم الى العباسية . ثم أنشأ بالعباسية عدة مدارس أخرى بدلا من المدارس التى انشأها محمد على وعفا أثرها . فأنشأ فى عام ١٨٦٤ مدرسة البيادة (المشاة) ، وعدد تلاميذها ٤٩٠ ، وفى العام التالى ١٨٦٥ أنشأ ثلاث مدارس هى : مدرسة السوارى (الفرسان) وعدد تلاميذها ١٦١ ، ومدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية وعدد تلاميذها ٢٨٠ يختارون من طلبة مدرسة المهندسخانة ، ومدرسة أركان الحرب بالعباسية ، ويختار تلاميذها من نوابغ المدارس الحربية أو المهندسخانة .

وفى ١٨٦٧ كلف اسماعيل المصانع الفرنسية بصنع عدة آلاف من بنادق « شناسبو » الحديثة ذات الابر ، وسلح بها جنود الجيش المصرى . ودعم حصون الاسكندرية وجدد أسلحتها ومدافعها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز ارمسترونج ، وركبها فى طوابى الثغور . كما عنى بالمصانع الحربية التى تأسست فى عهد محمد على ، فنظم مصنع الحوض المرصود ، وصارت تصب فيه المدافع ، وتصنع فيه المعدات الحربية وشيد بطرة ثلاثة مصانع لصناعة الأسلحة وصب المدافع ، كما أصلح مصانع البارود التى كانت بمصر ، حتى علا صيتها . كما أصلح مصنع الأسلحة بالاسكندرية وادخل عليه أضافات وتوسعات .

وقد امتدت عناية اسماعيل الى البحرية ، التى كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من التأخر والاضمحلال عند استلامه الحكم . فبعث بالنشاط فى ترسانة الاسكندرية ، وأحيا مصانعها ، وجلب لها العمال ، واستحضر

لها العتاد والآلات ، فعاد اليها نشاطها الذى كان فى عهد محمد على ، وانشئت بها بعض السفن الحربية ، مثل البارجة لطيف فى عهـد ولاية عبد اللطيف باشا لوزارة الحربية ، والبارجة « الصاعقة » فى عهدشناهين باشا . وأوصى أسماعيل بصنع عدة سفن حربية مدرعـة فى ترسانات أوروبا . كما جدد المدرسة الحربية بالاسكندرية ، وانشأ مدرسة بحـرية أخرى بجوار الترسانة . وأرسل بعثة الى انجلترا من خـريجى هـذه المدرسة لاتمام العلوم البحرية . ومن هذه المدرسة تخرج اسماعيل باشا سرهنك ، مؤلف كتاب : « حقائق الأخبار عن دول البحار » .

ولـكن جهود اسـماعيل فى تقـوية الأسـطول المصرى ووجهت بالمتاعب فقد أوصى بصنع مدرعتين فى أوروبا وارسـل فى عام ١٨٦٨ مجموعة من الضباط والبحـارة لتسلمهما ، ولـكن الحكومة العثمانيـة اعترضت على ذلك متذرعـة بأن الفرمانات لا تبيح لمصر انشاء السـفن الحربية . وأرسل اليه الصدر الأعظم انذارا بأن يبيع الى الباب العالى، أو يحيل اليه بثمن التكلفة المدرعتين والمعدات العسكرية الأخـرى التى أرسل فى طلبها ، وتخفيض عدد الجيش الى العدد المسموح به فى فرمان ١٨٦٦ ، وهو ٣٠ الفا . وانتهى الأمر بابتياع تركيا هاتين المدرعتين .

وقد اختلفت الآراء والاحصائيات التى وردت فى المصادر المختلفـة عن تعداد جيش اسماعيل . فوفقا لاحصاء اسماعيل باشا سرهنـك فى الجزء الثانى من كتابه ، فان عدد جيش اسماعيل المرابط فى مصر فى عام ١٨٧٣ كان يبلغ نحو ٩٠ الفا من الجنود والضباط وتلاميذ المدرسة الحربية على النحو الآتى :

٨٤ر٥٣٠ جنود وصف ضباط
٢ر٦٦٨ ضـباط وقواد
١ر٨٩٠ تلاميذ المدارس الحربية

٨٩ر٠٨٨

اما الجيش المصرى المرابط فى السودان ، فكان يبلغ ثلاثين الفا . اى أن تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان كان يبلغ نحو ١٢٠ر٠٠٠ مقـاتل .

أما الأسطول ، فوفقا لاحصاء على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية فى الجزء السابع ، فان عـدد السـفن الحربية بلغ ١٤ سفينة ، هى : المحروسة ، مصر ، الغربية ، محمد على ، شبيرجهاد ، لطيف ، دنقلة ، الطور ، سيناء ، الخرطوم ، أسيوط ، وثلاثة مراكب أخرى صغيرة .

على أن احصاء اسماعيل باشا سرهنك فى الجزء الثانى من كتابه، يقرر أن عدد سفن الأسطول بلغ ١٨ سفينة حربية هى : محمـد على ، شبيرجهاد ، لطيف ، الخرطوم ، دنقلة ، الصاعقة ، سنار ، زرخ نمرة١ ، زرخ نمرة٢ . ثم الطرادات وسفن النقل الآتية : الطور ، أسوان، شندى، أسيوط ، الجعفرية ، سمنود ، نور الهدى ، مخبر ، عجمى . هذا فضلا عن ثلاث سفن حربية أخرى مخصصة لركوب الخديوى وهى : المحروسة، ومصر ، والغربية (١) .

من هنا تكمن أهمية هذه الوثيقة التاريخيـة من وثائق عابدين التى عثرنا عليهـا ، عن جيش اسـماعيل فى عام ١٨٦٩ ، والتى تتمثل فى « يومية » رسمية فريدة للعرض على ناظر الجهادية والبحرية ، توضـح بأدق التفاصيل أسرار هذا الجيش من ناحية تعداده وأسلحته وغير ذلك مما لم يسبق له مثيل فيما نشر من وثائق ، وهى بعنوان :

« يومية الآلايات المنتظمة المقتضى تقديمها لسعادة أفندم الباشا ناظر جهادية بحرية لغاية ١٥ أبيب سنة ٨٥ — ١١ ربيع سـنة ١٢٨٦ — ٢١ يولية سنة ١٨٦٩ » .

ومن دراسة وتحليل هذه الوثيقة تتضح الحاقئق الآتية :

اولا — فرق الجيش :

تنقسم هذه الفرق الى قسمين :

١ — الجيش المرابط فى مصر .

٢ — الجيش المرابط فى السودان .

أ ــ الجيش المصرى المرابط فى مصر :

وينقسم الى الفرق الآتيــة :

١ ــ فرقة طوبجية (مدفعية) تشتمل على أربعة آلايات .
٢ ــ فرقة فرسان تشتمل على أربعة آلايات .
٣ ــ أربع فرق بيادة تشتمل على ستة عشر آلايا .
٤ ــ ثلاثة بلوكات صنايعية .

١ ــ آلايات الطوبجية :

وذلك على النحو التــالى :

(أ) آلاى الطوبجية الغارديا ، واصل مرتبه ٩٨٢ (من الضباط وصــف الضباط والأنفار والتوابع (٢) والموجود الفعلى ١٠١٨ !)

(ب) الآلاى الثانى طوبجية (٣) واصل مرتبه ٩٥٧ ، والوجود ١٠١٦ .

(جـ) الآلاى الأول سواحل ، واصلمرتبه ١٨٩٦، والموجود الفعلى ١٨٢٢

(د) الآلاى الثانى سواحل ، واصل مرتبه ١٨٩٦ ، والموجود ١٨٣٣ .

٢ ــ آلايات السوارى :

(أ) الآلاى الأول سوارى غارديا ، واصل مرتبه ٩١٤ والموجود ٨٩٢ .
(ب) الآلاى الثانى سوارى غارديا ، واصل مرتبه ٩١٤ والموجود ٩١٣ .
(جـ) الآلاى الأول سوارى ، واصل مرتبه ٩١٤ ، والموجود ٨٧٦ .
(د) الآلاى الثانى سوارى ، واصل مرتبه ٨٩٨ ، والموجود ٩٣٩ .

٣ ــ آلايات الفرقة الأولى بيادة غارديا :

(أ) الآلاى الأول بيادة غارديا ، واصل مرتبه ٢١٦٩ والموجود ٢١١٠ .
(ب) الآلاى الثانى بيادة غارديا ، واصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ٢٠٤٠ .
(جـ) الآلاى الثالث بيادة غارديا ، وقوته ٢١٥٤ والموجود ١٨٧٩ .
(د) الآلاى الرابع بيادة غارديا ، وقوته ٢٨٨٠ والموجود ١٧٤٠ .

٤ ــ آلايات الفرقة الثانية بيادة :

(أ) الآلاى الخامس بيادة ، وأصل مرتبه ٢٨٩٨ والموجود ٢٦٠٤ .

(ب) الآلاى السادس بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ٢٠٧٨ .

(جـ) الآلاى السابع بيادة ، وأصل قوته ٢١٥٤ والموجود ١٩١٩ .

(د) الآلاى الثامن بيادة ، وأصل قوته ٢١٥٤ والموجود ١٩٢٧ .

٥ ــ آلايات الفرقة الثالثة بيادة :

(أ) الآلاى التاسع بيادة ، وأصل قوته ٢٨٩٨ والموجود ٢٥٥٤ .

(ب) الآلاى العاشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٨٦٩ .

(جـ) الآلاى الحادى عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٧٧٤ .

(د) الآلاى الثانى عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٨٨٨ .

٦ ــ آلايات الفرقة الرابعة بيادة :

(أ) الآلاى الرابع عشر بيادة (٤) وقوته ٢٨٩٨ والموجود ٢٥٤٣ .

(ب) الآلاى الخامس عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٨٥٩ .

(جـ) الآلاي السادس عشر بيادة، واصل مرتبه٢١٦٣ والموجود ١٩١٠ .

(د) الآلاى السابع عشر بيادة ، وأصل مرتبه ٢١٥٤ والموجود ١٩٣٩ .

٧ ــ بلوكات الصنايعية :

بلوك الجبهجية ، وأصل مرتبه ٢٢٨ والموجود ١٩٧ .

أوجاق المديقات ، وأصل مرتبه ١١٣ والموجود ١١٢ .

بلوكات الصنايعية ، وأصل مرتبه ٨٩٤ والموجود ٨٩٤ .

وبذلك يبلغ اجمالى هذا الجيش ٤٨٠٧٩ رجلا ، والموجود ٤٤١٤٦

٢ ــ الجيش المرابط فى السودان :

وكان ينقسم الى خمسة آلايات ، منهــا : آلاى مدفعيــة ، وآلاى هجانة ، وآلايان مشاة ، على النحو الآتى :

(أ) الآلاى الأول بيادة سودان ، وأصل مرتبه ٢١٩٠ والموجود ٢٥٣١ .
(ب) الآلاى الثانى بيادة سودان ، وأصل مرتبه ٢١٩٠ والموجود١٦٦٥ .
(جـ) بطارية الطوبجية ، وأصل مرتبها ١٠٣ و ١٠٣ .
(د) بلوكات الهجانة ، وأصل مرتبه ٣٣٤ والموجود ٣٣٤ .
(هـ) الأورطة المستجدة ، وأصل مرتبها ٧١٥ والموجود ٧١٦ .

ويبلغ اجمالى الجيش المرابط فى السودان ٥٤٣٢ والموجود منهــا ٥٢٤٩ ، وبذلك يبلغ تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان ٥٣ر٥١١ والموجود منهم بالآلات ٤٩ر٣٩٥ ضابطا وجنديا وتابعا .

ثانيا ــ المــدارس الحربيــة :

كانت المدارس الحربية تتكون من ثمانى مدارس على النحو الآتى :

١ ــ مدرسة الطوبجية ، وأصل مرتبها ١٠٤ من الضباط وصف الضباط والتلاميذ الأنفار ، والموجود منهم ١٠٠ . ويبلغ عدد التلاميذ ٦٧ .
٢ ــ مدرسة الســوارى ، وقوتهــا ٧٢ والموجود ٧١ ، ويبلغ عــدد التلاميذ ٤١ .
٣ ــ مدرسة البيادة ، وقوتها ٢١٧ ويبلغ عدد تلاميذها ١٢٨ .
٤ ــ مدرسة أركان الحرب ، وقوتها ٢٩ والموجود ٢٨ ، وجميع تلاميذها من الضبــاط .
٥ ــ مدرسة الطب البيطرى ، وأصل مرتبها ٢٤ ويبلغ عدد تلاميذها ١٥
٦ ــ مدرسة الشيش والجنباز ، وقوتها .
٧ ــ مدرسة المحاسبة ، وأصل مرتبها ٣٢ وعدد تلاميذها ٢١ .
٨ ــ مدرسة الزراعة ، وقوتها ٣٧ وعدد تلاميذها ٢٨ .
٩ ــ تلامذة العمليات ، وأصل مرتبهم ٢٨ ، وعدد التلاميذ ٢٢ .
١٠ــ تلامذة الجبهجية ، وقوتها ١٧ وكلهم من التلاميذ الأنفار .

وقد بلغ عدد النظار والوكلاء والتوابع لهذه المدارس ١٦٣ .

ثالثا ـ الأسطول البحرى :

وينقسم الى قسمين :

اسطول البحر الأحمر .

اسطول البحر الأبيض .

١ ـ اسطول البحر الأحمر :

ويتكون من ثمانية سفن باسم « وابورات » ، وهى :

١ ـ وابور شبرجاد ، واصل مرتبه ٤٠٤ من الضباط وصف الضباط والأنفار وتوابعهم ، والموجود ١٣٩ .
٢ ـ وابور كوفيت ، واصل مرتبه ٥٢ والموجود ٧٦ !
٣ ـ وابور ابتاكه ، واصل مرتبه ١٤٥ والموجود ٦٧ .
٤ ـ وابور الخرطوم ، واصل مرتبه ١١٧ والموجود ٤٧ .
٥ ـ وابور سنار ، واصل مرتبه ١١٦ والموجود ٦١ .
٦ ـ وابور دنقله ، واصل مرتبه ١١٧ والموجود ٧٦ .
٧ ـ وابور شندى ، واصل مرتبه ١٢٦ والموجود ٥٨ .
٨ ـ وابور الطور ، واصل مرتبه ٨٠ والموجود ٤٨ .

ويتكون اجمالى قوة بحرية البحر الأحمر ١١٥٧ والموجود منها ٦٧٢.

٢ ـ اسطول البحر الأبيض :

ويتكون من خمسة عشر وابورا ، وست قرويتات (٥) ، وابريك (ابريق) واحد (٦) ، ورزخين ، على النحو الآتى :

١ ـ وابور المحروسة ، واصل طاقمه ٤٠٩ والموجود ٣٨٠ .
٢ ـ وابور محمد على ، واصل طاقمه ٣٠٥ والموجود ٢٧٧ .
٣ ـ وابور الفيوم ، واصل طاقمه ١٨٥ والموجود ١٦٠ .
٤ ـ وابور مصر ، واصل طاقمه ١٨٤ والموجود ١٨٢ .
٥ ـ وابور الغربية ، واصل طاقمه ١٧٢ والموجود ١٥٤ .
٦ ـ وابور لطيف ، واصل طاقمه ٢٤٩ والموجود ٢٠٨ .
٧ ـ وابور الجعفرية ، وطاقمه ١١٧ والموجود ١٢٠ .
٨ ـ وابور اسيوط ، واصل طاقمه ٣٣ والموجود ١٠٧ !

٩ ــ وابور مخبر ، وطاقمه ٣٣ والموجود ٩١ !
١٠ ــ وابور عجمى ، وأصل طاقمه ٣٣ والموجود ٤٢ !.
١١ ــ وابور باركه وأصل طاقمه ٢٠ والموجود ٣٢ !.
١٢ ــ وابور الحمدية ، وأصل طاقمه ١٢ والموجود ١٦ .
١٣ ــ وابور قاهرة ، وأصل طاقمه ١١٩ والموجود ١١٩ .
١٤ ــ وابور مظفر ، وأصل طاقمه ١١٩ والموجود ١١٩ .
١٥ ــ وابور صاعقة ، وأصل طاقمه ١٦٥ والموجود ١٦٥ .
١٦ ــ وابور قرويت نمرة ٧ وأصل طاقمه ٦٨ واوجود ٥٠ .
١٧ ــ قرويت نمرة ٦ أصل طاقمه ٤٣ والموجود ٦٥ !
١٨ ــ قرويت نمرة ٥ ، وأصل طاقمه ٤٣ والموجود ٣٩ .
١٩ ــ قرويت نمرة ٤ ، وأصل طاقمه ٤٣ والموجود ٥٧ !
٢٠ ــ قرويت نمرة ٣ وأصل طاقمه ٤٧ والموجود ٣٦ .
٢١ ــ قرويت نمرة ٢ وأصل طاقمه ٤٣ والموجود ٢٦ .
٢٢ ــ أبريك نمرة ١ ، وطاقمه ٤٣ والموجود ٤٩ !.
٢٣ ــ رزخ نمرة ١ ، وطاقمه ١٨ والموجود ١٤٥ !!
٢٤ ــ رزخ نمرة ٢ وطاقمه ١٧ والموجود ٦٨ !.
٢٥ ــ الفلايك المعدية ، وقوتها ٦٨ والموجود ٧١ .

رابعا ــ الأسلحة والذخائر :

يتضح من الوثيقة أن مخازن المهمات والأدوات الحربية كانت موجودة بقصرالنيل ، أما مخازن الأسلحة فكانت فىالقلعة وفى الحوض المرصود. وتشرح الوثيقة حالة هذه الأسلحة ، فتذكر أنه كان هناك ١١٧ مدفعا بورش مخزن الطوبخانة الموجود بورش ومخازن الطوبخانة بالقلعة ، منها مدافع جبلية ، وعيارات وأنواع مختلفة ، فضلا عن ست مدافع ببلوك الصنايعية بالحوض المرصود . وكان هناك ١٨٤ر٣٠ بندقية فرنسية وانجليزية الصنع ، و ٢٠٧١ ترابينة ، و٤٤٧ ترابينة فرنسية بستةأرواح ، و١٦٨ طبنجة فرنساوى بستة أرواح ، و٢٨٣٣ طبنجة انجليزى بستة أرواح ، و٦٣٦١ طبنجة زرخلى ، وخلافه . كما كان هناك ١٥٢٤٦ سيفا من مختلف الأنواع .

أما المدافع الموجودة فى الآلايين الساحليين فقد بلغت ٦٦٤ مدفعا ، و٨٩ هوانات (هاون) لا بأس من ذكر انواعها وعدد الموجود من كل منها على النحو الآتى :

١٠ مدافع عيار ٩٥
١١٠ مدافع عيار ٣٢ .
٣١ مدافع عيار ٢٢
١٠ مدافع عيار ١٦
٣٨٥ مدفعا عيار ١٢
١١ مدفعا عيار ٩
٢٤ مدفعا ششخانة عيار ٨ و ٩
١٥ مدفعا عيار ٥
٢ مدفع عيار ٤
٤ مدافع عيار ٣
٤ مدافع عيار ٢
٢ مدفع عيار ١
٢ مدفع بدون عيار شرك كبير
٢ مدفع بدون عيار شرك صغير
١ مدفع نحاس عيار ١٢ محاصرة
٣ مدفع نحاس عيار ٧
٢ مدفع قبوس عيار ٧ نحاس مصرى
٣ مدفع قبوس مدفع بلبل عيار ٥
١٧ مدفع جبلى نحاس واسع العيار — ١
١ مدفع أوردى نحاس عيار — ١
٣ مدفع نحاس عيار — ١

أما الهاونات فهى على النحو الآتى :

١ هاون عيار ١٢٠
٣٤ هاون عيار ٦٥
١٣ هاون عيار ٣٦
٢٢ هاون عيار ٣٢

٣ هاون عيــار ٢٢
٢ هاون عيـــار ٢٠
٢ هاون عيـــار ١٤
١ هاون عيـــار ١٢
١ هاون نحـــاس عيـــار ١٢

خامسا ــ خيول آلايات الطوبجية والسوارى والهجن :

تقسم الوثيقة الخيول المستخدمة فى الجيش المصرى الى نوعين :
خيول وبغال أفرنكى ، وكان عدد الموجود منها ٣٧٣
وخيول وبغال بلدى ، وعدد الموجود منها ١٣٢٧
ثم الهجن (الجمال) وعددها ٢٥٠.

سادسا ــ قادة الجيش المصرى البرى والبحرى :

حددت الوثيقة قادة الجيش المصرى البرى والبحـــرى حسب فرقهم أو آلاياتهم ، وقسمتهم الى قسمين :

قومانـــدانات ولوا باشـات ، وهم حمـــلة رتب : لواء ، وفريق ، وقومندان ، ويحملون جميعا لقب « باشا » .

وميرالايات ، وهم حملة رتبة ميرالاى ، ويحملون لقب « بك » .
وهم على النحو الآتى :

١ ــ قومندانات ولوا باشات :

لوا سعادة على حمدى باشا ــ فرقة الطوبجية
فريق سعادة ابراهيم باشا ــ فرقة السوارى
فريق سعادة راشد حسنى باشا ــ فرقة البيادة الأولى غارديا .
لوا سعادة راشد رأفت باشا ــ فرقة البيادة الأولى
لوا سعادة اسماعيل كامل باشا ــ فرقة البيادة الأولى
قومندان سعادة خسرو باشا ــ فرقة البيادة الثانية
لوا سعادة حسين عاصم باشا ــ فرقة البيادة الثانية
قومندان سعادة على غالب باشا ــ فرقة البيادة الثالثة

قومندان عمر حافظ باشا ــ فرقة البيادة الرابعة
لوا سعادة آدم باشا ــ فرقة السودان
مفتش سعادة افلاطون باشا ــ بلوكات الصنايعية .

٢ ــ ميرالايات :

ميرالاى أحمد ثابت بك ، آلاى الطوبجية الغارديا .
ميرالاى على رضا بك ، الآلاى الثانى طوبجية
ميرالاى حسين راغب بك ، الآلاى الأول سواحل
ميرالاى حسين بك مظهر ، الآلاى الثانى سواحل
ميرالاى محمد رضا بك الآلاى الأول سواردى غارديا
ميرالاى يوسف صديق بك ، الآلاى الثانى سوارى غارديا
ميرالاى يوسف صبرى بك ، الآلاى الأول سوارى
ميرالاى حسين فهمى بك ، الآلاى الثانى سوارى
ميرالاى عثمان رفقى بك ، الآلاى الثانى بيادة غارديا
ميرالاى محمد رؤف الآلاى الثالث بيـــادة غارديا
ميرالاى عثمان غالب بك ، الآلاى الخامس بيادة
ميرالاى داود بك ، الآلاى السادس بيادة
ميرالاى محمد خورشيد بك ، الآلاى السابع بيادة
ميرالاى نجم الدين بك ، الآلاى الثامن بيادة
ميرالاى خورشيد حسنى بك ، الآلاى التاسع بيادة
ميرالاى خورشيد عاكف بك ، الآلاى العاشر بيادة
ميرالاى خالد بك ، الآلاى الحادى عشر بيادة
ميرالاى محمد أمين بك ، الآلاى الثانى عشر بيادة
ميرالاى عثمان نجيب بك ، الآلاى الرابع عشر بيادة
ميرالاى حسين سرى بك ، الآلاى الخامس عشر بيادة
ميرالاى سليمان نيازى بك ، الآلاى السادس عشر بيادة
ميرالاى محمد مسعود بك ، الآلاى السابع عشر بيادة
ميرالاى احمد زهنى بك ، بلوك الجبهجية
ميرالاى الماس بك ، الآلاى الثانى بيادة سودان

٣ ــ قادة البحرية :

لوا سعادة قاسم باشا ــ وابور المحروسة
ميرالاى سرحان بك ــ وابور محمد على
ميرالاى فوزان بك ــ وابور الفيوم
ميرالاى رودسلى محمد بك ــ وابور مصر
قيمقام موسى بك ــ وابور الغربية
قيمقام سليمان بك ــ وابور لطيف
بكباشى على قبودان عمر ــ وابور الجعفرية
صاغقول على قبودان كوشره ــ وابور أسيوط
صاغقول ابراهيم قبودان ــ وابور مخبر
يوزباشى ثانى حسنين قبودان ــ وابور باركه
ملازم أول اسماعيل قبودان ــ رزخ نمرة ١
يوزباشى ثانى محمد قبودان ــ رزخ نمرة ٢
ملازم ابراهيم قبودان ــ وابور الحمدية
قيمقام مصطفى بك ــ وابور قاهرة
قيمقام ابراهيم بك عريكلى ــ وابور صاعقة
ميزو قرصان حسن قبودان عبادى برانى ــ قرويته نمرة ٧
ابراهيم قبودان صوان ــ قرويت نمرة ٦
كريدى محمد قبودان ــ قرويت نمرة ٥
حاجى محمد قبودان البدن ــ قرويته نمرة ٤
محمد قبودان على ــ قرويت نمرة ٣
حسن قبودان اسماعيل ــ قرويت نمرة ٢
مصطفى قبودان ــ ابريك نمرة ١
سوارى وباشيوغ جمالى بك ــ وابور شرحاد
بكباشى على قبودان شكرى ــ وابور كوفيت
بكباشى قاسم قبودان ــ وابور ابتاكه
صاغقول اغاسى باز على قبودان ــ وابور الخرطوم
صاغقول اغاسى عبد الله قبودان ــ وابور سنار
صاغقول اغاسى محمد قبودان الصيرفى ــ وابور دنقله
صاغقول اغاسى حسن قبودان ــ وابور شندى

ومن البيانات الاحصائية الهامة التى تكشفها الوثيقة أن عدد الفارين من الجيش المصرى فى ذلك الحين بلغ ٣٤٤ ، وعدد المرضى بالمستشفيات (اسبتاليه) ٣٥٠ ، وعدد المسموح لهم باجازة مرضية (تبـــديل هواء) ١٦٣١ ، وعدد القائمين باجازات ١٨ر١٧١ ، وعـــدد المسجونين بالليمان ١١٤ ، وعدد القائمين بمأموريات ٢٥١ ، وعدد (المتـــأخرين بأجازات) ٥٥٩ ، ويبلغ عدد الغائبين للاسباب السابقة وغيرهـــا ٢١ر٣٨٤ مقـــابل ٢٠ر٩٩٦ للحاضرين ــ فكأن اكثر من نصف الجيش المصرى فى ذلك الوقت كان غائبا !.

أما جيش السودان ، فان الوضع فيه لا يقارن ، فلم يتجاوز عـــدد الغائبين ٨٨ مقابل ٤٩٣٨ للحـــاضرين ، منهم ٦٢ مرضى بالمستشفيات ، و٢٦ فرار . ولا اجازات ، ولا تبديل هواء ، ولا مأموريات او ليمان !.. وليس لدى الباحث تفسير لهذه الظاهرة .

الحــواشى

(١) أنظر لمزيد من المعلومات : عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير ، عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل، جزءان ، دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، ومع آخرين : بناء دولة ، مصر محمد على ، السياسة الداخلية ، وعبد العظيم رمضــان : الجيش المصرى فى السياسة ، الأمير عمر طوسون : صــفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى ، اسماعيــل سرهنك باشا : حاقئق الأخبــار عن دول البحار ، الجزء الثانى ،

Marlowe, John, Spoiling the Egyptians De Lesseps, Ferdinand, Lettres, Journal et documents Pour Servir à l'histoire du Canal de Suez.

(٢) المقصود بالتوابع : توابع الآلايات من الأطبــــاء والمرضـــين والسروجية والحدادين وغيرهم .

(٣) يعبر فى الوثيقة عن « الأول » و « الثانى » و « الثالث » .. الخ بـــ « اجى » ، « ٢جى » ، « ٣جى » .. الخ

(٤) لا يوجد بالجيش المصرى آلايا يحمل رقم ١٣ ، وانما يتم الانتقال من الآلاى الثانى عشر الى الرابع عشر . وليس لدينا تفســير لذلك الا مايحيط برقم ١٣ من شبهات التشاؤم !.

(٥) القرويت : مركب حــربى يحمل من اثنين وعشرين مدفعــا الى خمسة وأربعين مدفعا صــغيرا وكبيرا ، ومن الجنــود حوالى مائتين أو مائتين ونيفــا .

(٦) الابريك أو الابريق : مركب حربى له صاريان مربعان ، ويحمل ثمانية عشر أو ستة عشر مدفعا صغيرا ، ومن الجنود حوالى مائة (انظر عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى ص ٢٠٩ طبعة ١٩٤٠) .

(١) ملحق : الوثيقة مصورة

٥

العدالة والحرية عند جمال الدين الأفغانى

للدكتور عزت قرنى

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب ــ جامعة عين شمس

مقـــــــدمة :

ابحث ما شاء لك البحث ، فلن تجد شخصية أغرب من جمال الدين الأفغانى بين شخصيات العـــالم الاســـلامى الحديث . فهـــذا الأفغانى المزعوم ، الايرانى حقا ، السنى على ما يعلن ، والشيعى فى أصـــله ، ترك موطنه ، وليكن مايكون ، وتقلب بين أراضى المشرقين ، متنقـــلا بين ايران وأفغانستان ، ومنهما الى الهند الى مصر الى تركيـــا ثم الى مصر مرة ثانية حيث عاش طويلا ، وهبت به العواصف فها هو يتقلب بين أراضى المغربين ، أياما فى باريس وحينا فى الروسيا ، ثم يعود الى فارس ، وأخيرا يراد له بالأمر السلطانى النافذ أن يستقر شبه سجين فى الآســـتانة ، ليموت فيها مسموما بحسب كل الظواهر . هذا الرجل الذى ترك فيمن اقتربوا منه أعظم الأثر ، كان يريد أن يكون رجل نظر ، « حكيما » من الحكماء العظام ، ولـــكنه فى الواقع كان مشغولا بالعمل راغبا فى تغيير الواقع بكل الوسائل المتاحة له ، من تدبير الثورة الى التحريض عليهـــا الى الكتابة فى الصحف حتى الدردشة فى مقـــاهى مصر وتحت ســـماء الآســـتانة .

وقد بدأ الخلاف بشأنه فى عصره ومنذ أولى سنى نشاطه العلنى ، واتهم فى دينه وثارت حوله الشكوك واستمرت كذلك حتى سنى حيـــاته الأخيرة ، ســـواء كان ذلك كله فى الآستانة أم فى مصر القاهرة أم فى باريس أم فى الآستانة من جديد .

فقد زار عاصمة الدولة العثمانيـــة فى ١٨٧٠ ، « وحومت عليـــه

لفضله قلوب الأمراء والوزراء وعلا ذكره بينهم » ، على ما يقول كتاب « تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده » ، وبعد ستة أشهر عين عضوا فى مجلس المعارف ، « وأشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه فى المجلس . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الأوقات » . ثم حدث أن ألقى الأفغانى فى « دار الفنون » خطابا ، وجاء فيه تشبيه المعيشة الانسانية بجسد حى وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدى من المنفعة فى المعيشة مايؤديه العضو فى البدن ، فشبه الملك مثلا بالمخ الذى هو مركز التدبير والادارة والارادة . ثم قال : « هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية ، ولاحياة لجسم الا بروح ، وروح هذا الجسم أما النبوة وأما الحكمة ، ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة الهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده .. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات ، وبأن النبى معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه » . هذا ما قاله الأفغانى ، « الا أن حسن افندى فهمى (شيخ الاسلام فى الآستانة) ... أشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة ... ثم أوعز الى الوعاظ فى المساجد أن يذكروا ذلك محفوفا بالتفنيد والتنديد . فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمى به، ورأى أن ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام .. ولج فى طلب المخاصمة فعظم الأمر وآل الى صدور أمر الصدر الأعظم اليه بالجلاء عن الآستانة » (٢) .

أما فى مصر ، خلال اقامته الكبرى بها (١٨٧١ — ١٨٧٩) ،فقد اتهم مرة أخرى فى دينه و « تمكن الحاسدون ، على ما يقول الشيخ رشيد رضا ، من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة » (٣) . كما أن سليم العنحورى ، وهو سورى مسيحى، تحدث عنه حديثا لمح فيه الشيخ محمد عبده أنه يتهم السيد بالالحاد، فطالبه ، فى بيروت خلال منفى الشيخ المصرى بها ، بأن يخطىء نفسه فى الجرائد ففعل ، وقال فى تصحيح نفسه : « ان المباحث التى كان يدور بها لسانه (أى جمال الدين) أثناء مناظراته الجدلية فى بيان عقائد المعطلين ، كان المراد فيها اظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد

بها » (٤) . ومهما يكن من أمر فان هذا الحديث نفسه يدل على شكوك البعض في ايمان السيد جمال الدين .

وقد تشكك فيه أيضا الكاتب والمستشرق الفرنسى « رينان » ،فقال عن مقابلته له فى باريس فى مارس سنة ١٨٨٣ : « وقد خيل الى من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا اتحدث اليه ، اننى أرى وجها لوجه أحد من عرفتهم من القدماء ، وأننى أشهد ابن سينا أو ابن رشد، أو أحدا من أولئك الملحدين العظام ، الذين ظلوا يعملون خمسة قرون على تحرير الانسانية من الأسار » (٥) .

واختلفت الآراء فيه كذلك خلال مقامه الثانى والأخير فى الآستانة ، فيقول محمد باشا المخزومى محرر « خاطرات جمال الدين الأفغانى » : « كان مجلس جمال الدين يجمع أهل المذاهب المختلفة... ذلك ما حمل الكثيرين أن يذهبوا بالحكم على جمال الدين مذاهب شتى: تارة ينظرون اليه بنظرة مارق من الدين ، وطورا أنه دينى متعصب »(٦).

ويمكن لك أن تقول ان هناك جمال الدين كما هو فى ذاته ، أو فلتقل على « حقيقته » ، وان هناك أيضا « أسطورته » كما نشرها هو ببراعة عظمى واستخدم فىنشره لها عشرات من التلاميذ، وبعضهم كان كأنه شبه مسحور . أما حقيقته فقد ساهم فى الكشف عنها عدد من الوثائق الجديدة نشرت أخيرا فى طهران (٧) وتظهر على الأخص أصله الايرانى الشيعى ، وكذلك عدد من الدراسات النقدية (٨) التى خرجت عن صف المصفقين المرددين لأقوال السابقين ، والفاغرين افواههم سذاجة وتصديقا ، فحاولت رؤية ما بين السطور وتمحيص الشواهد على نحو أكثر عقلانية ، مستخدمة فى هذا منهجا نقديا لا يزيد عن ان يكون منهج العاقلين فى البحث التاريخى .

ومع ذلك فان جمال الدين الذى سنتابع أفكاره فى هذه الدراسة ليس السيد جمال الدين أسد أبادى ، بل السيد جمال الدين الأفغانى كما ظهر فى « أسطورته » ، التى استقرت خلال مقامه فى مصر وبانتملامحها من أقوال تلامذته ومخالطيه ومريديه فى تلك الفترة ، ومن اهم هؤلاء محمد عبده وأديب اسحق وسليم العنحورى ، وكما ظهر من كتاباته فى

« العروة الوثقى » التى اصدرها مجلة أسبوعية فى باريس ، وصدر منها ثمانية عشر عددا ، ما بين مارس وأكتوبر سنة ١٨٨٤ بالتعاون الوثيق مع الشيخ محمد عبده ، وكما ظهر فى « رسالة الرد على الدهريين » التى كتبها بالفارسية ونقلها محمد عبده الى العربية متخذا واسطة له الى الفارسية أحد أتباع جمال الدين أو خدمه ، عارف أبو تراب ، وكماظهر أخيرا وليس آخرا فى «خاطرات جمال الدين الأفغانى » التى جمعها ونشرها محمد باشا المخزومى ، وفيها على الأخص أقواله فى مجالسه فى الآستانة خلال اقامته الأخيرة بها (١٨٩٢ — ١٨٩٧) .

وسبب اهتمامنا بأسطورته وعدم تعرضنا لما ربما كان عليه فى حقيقته ، هو أن أسطورته تلك هى التى عرفه الناس من خلالها ، ولا يزال أكثرهم على هذا الحال حتى يومنا هذا فى البلاد الناطقة بالعربية، وهى التى أثرت على من أثرت عليه وسيكون منهم رجال عظماء ،ويكفيك بمحمد عبده مثالا عليهم ، وهى التى جاءت أفكاره الاجتماعية والسياسية عن العدالة والحرية فى اطارها ، وهى أخيرا التى ساعدت على نشر تلك الأفكار : فخير لك فى عالم التعبير بالعربية أن تكون سنيا من أنتكون شيعيا ، حتى تجد متنفسا لأفكارك وحسن استقبال لها يزيد الف مرة عما لو كنت غير سنى . وهذا هو مافكر فيه ، فيما يبدو لنا ، جمال الدين الذى كان يريد التأثير ويريد انتشار أفكاره ويريد الفاعلية . فادعى الأفغانية وادعى السنية ونطق بالعربية ، فأصبح جزءا جوهريا من تراث الفكر الحديث المكتوب بتلك اللغة أو الناطق بها . ونشير أخيرا انى اننا لن نتناول الا مانسب اليه من افكار ، أما أعماله فموضوع للتاريخ السياسى الحديث للبلاد الاسلامية وليس لتاريخ الأفكار الا حينما تلقى تلك الأعمال أضواء على ما نشر من تصورات وآراء .

الحرية

كل ما كتب بالعربية عن جمال الدين ، أو يكاد ، يمجده ويعظم فيه على الطريقة « الشرقية » التقليدية ، أى الى أبعد الحدود ، وبلا تحفظ، والى حد الكمال ، وهذه ، كما لاحظ البعض بحق ، سمة سيطرة روح الاستعباد وقبول واقعة العبودية ، من حيث يدرى المرء أو لا يدرى . وقد نسبوا اليه أشياء كثيرة ، بعضها يكاد ضده أن يكون صحيحا قدر

صحته . ومن ذلك أنه « ابو القومية » ، وهو قول جزاف بل وتعارضه النصوص ، وأنه باعث روح التجديد الاسلامى ، وهـــو قول خاطىء اذا أخذ بحروفه ، وأنه مصدر الحركة التحررية فى مصر والتى انتهت بالثورة بالعرابية ، وهو لاسبيل الى البرهنة عليه ، بل ان هناك ما يؤكد أن دور الأفغانى ضئيل فى نهاية الأمر اذا أخذنا بالوقائع وتركنا الكلمات الرنانة والأقوال القاصرة ، ومنها أنه بطل الحرية الأكبر فى ميدان الدينوالسياسة والاجتماع والفكر جميعا ، وسنرى مقدار قصور هذا الوصف عن الانطباق على واقع الحال ، خاصة اذا استخدمنا كلمـــة « الحرية » فى معنـــاها الدقيق .

والحق أن تمجيد الأفغانى والتفخيم فيه من هذه الناحيـــة يقوم على فهم سىء لمـــا تعنيه كلمات « الحرية » و « الحداثة » و « العقلانية » و «العلم» و «الثورة» وغير ذلك . ولننظر خاصـــة من زاوية «الحرية».

ان من يقول « الحرية » يقول فى نفس الآن بالتجديد وبالتفتح العقلى وبالانفتاح نحو المستقبل وبالابداع والاختراع . فماذا كان شأن الأفغانى من هذا كله؟ انه ليصعب أنيقال حرفيا انه كان يقف فى صف «التجديد». فاذا كان صحيحا أنه كان يريد تغيير الواقع الاسلامى فى أشكاله المختلفة، الا أن ما كان يريد أن يحل محل هذا الواقع المرفوض ليس شيئا «جديدا»، بل شىء « مما كان » بالفعل ، مما عرف المسلمون وخبروه ، وظهر لهم انه صـــالح . واذا كان صحيحا أن جمال الدين كان أكثر معاصريه المسلمين من جيله تفتحا عقليا ، الا أنه من الدقيق أن نقول أنه كان متفتحا علىهذا النحو فميا يخص الماضى لا فيما يخص المستقبل . ذلك أن الزمن الذى اهتم به الأفغانى أشد الاهتمام بل كل الاهتمام ، انما هو المـــاضى وليس المستقبل ، وقد صب نظرته المتفتحة بالفعل على « اعادة » النظر فىهذا الماضى وحسب ، وليس على تقديم رؤية جديدة للمستقبل . ولن يستطيع اى مؤرخ أن ينسج مما ينسب الى مجال الدين من أقوال تصورا واضحا من المستقبل الاسلامى أو مشروعا منسقا لبناء نظرى أو عملى أو كليهما. هـــذا بينما القول بالحرية يســـير معـــه فى نفس الخطوة الانتبـــاه نحو المستقبل أولا .

ولكن هذا ليس مما يشين جمال الدين ، لأنه متســـق مع فـــكرة أساسية عبر عنها ، أو استخدمها على الأقل ، وقد وجدت عند غيره من

عظماء المفكرين ، ومنهم أفلاطون مثلا ، الا وهى أن المستقبل انما قد حددته بالفعل صورته النموذجية فى نظام وقع فى الماضى ، ألا وهو النظام ، الفكرى والعملى ، الذى سار عليه « السلف الصالح » . وهذه النظرة لا تقل أهمية ، فى عرف مؤرخ الأفكار موضوعيا ، عن النظرة المقابلة التى تطرح الاهتمام بالماضى أو لا ترى فيه الا سلما للانطلاق نحو المستقبل .

ولكنك لا تستطيع أن تقول عن مفكر أنه يقول بالحرية ويقول فى نفس الوقت بالعودة الى الماضى كما كان ليكون من جديد . وتنتج عن هذا نتيجة هامة : وهى انه لا مكان فى مثل هذا التصور السلفى لمفهوم « الابداع » أو « الاختراع » ، ويكفى دليلا استخدام كلمة « بدعة » ، فهى محض الرأى أو الفعل السيء ، لأنه تجديد واتيان بجديد . ولم الابتداع ، وقد قيل فى الماضى كل ما يمكن أن يقال وعلى أحسن نحو ، وقد عمل الأسبقون الصالحون على طريقة هى الكمال الانسانى بعينه؟ ليس علينا ، فى النظرة السلفية ، أن نبتدع ، بل أن « نتبع » ، لأن الماضى يحوى الصورة النموذجية الكاملة الثابتة لكل آن ، بما فى ذلك المستقبل ، وليس علينا فى وقت التدهور والانحطاط ، اى وقت الخروج عن جادة الطريق تلك ، الا أن ننبش عن الماضى الحق وأن نعيد اليه لمعانه وان نعاود السير عليه من جديد ، وسيكون هذا هو كل نصيب « التجديد » فى التصور السلفى : أن « تعود » الى ماض انحرف عن طريقه أهل العصر .

الأفغانى والمذهب السلفى :

ولنترك هذه التنظيرات ، ولننظر الى الوقائع ذاتها ، والوقائع هنا اقوال ونصوص . فما هى القضية الكبرى التى أراد جمال الدين الأفغانى ، مفكرا اسلاميا ، اقتناع الناس بها ؟ انها لا شيء ان لم تكن ضرورة العودة الى التراث المبجل ، تراث الصالحين الأوائل ، لأن كل الشرور والمفاسد التى أصابت الأمة الأسلامية انما نتجت عن ضد هذا مباشرة : عن الابتعاد عن طريق السلف الصالح .

فتقول « العروة الوثقى » : « المسلمون بعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربى حظا . . ظهر فيهم أقوام بلباس

الدين وأبدعوا فيــه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منهـــا ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ... وحصل النقص فى التعليم والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصـــول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التى دعا اليها النبى وأصحابه. وحيث أن الدين الحق هو أول صيغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ... فاننا لانرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ، ونهوضـــهم الى مقاضـــاة الزمان ما سلب منهم ... » (٩) .

وتقول عن العلاج لأمراض الأمة الاسلامية : « فعـــلاجها انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته ،وارشاد العـــامة بمواعظه الواقيـــة بتطهير القلوب وتهذيب الأخـــلاق ... ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة ... فلا يحتاج القائم باحياء الأمة الا الى نفخة واحدة .. ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنابوسيلة غير هذه ، فقد ركب بها شططا ... » (١٠) .

ولا يقتصر الأمر على ضرورةالرجوع الى التراث من الناحية الفكرية، بل وكذلك من الناحيتين الأخلاقية والسياسية . واذا كانت الحقيقة واحدة لا تتغير ، فان نموذج النجاح الاجتماعى واحد هو الآخر ، وقانونه الذى لا تبديل فيـــه هو الذى منح الأمة الاسلامية فى عصرها الأول منعة وعزة ومجدا : « أن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم ، من نور العقل وصحة الفكر واشراف البصيرة ، والاعتبـــار بأفعال الله فى الأمم السابقة والتـــدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا ... لعـــدولهم عن سنة العدل ... حادوا عن الاستقامة فى العمل والصدق فى القول والسلامة فى الصـــدد والعفـــة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته .

« تركوا الحق ولم يجمعوا هممهم على اعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء البـــاطلة ... خارت عزائمهم فشحوا ببـــذل مهجهم فى حفـــظ السنن العـــادلة ، واختاروا الحياة فى البـــاطل على الموت فى نصرة الحـــق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين . هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضـــائل التى أشرنا اليها وجعل هلاكها ودمارهافى

التخلى عنها ، ســـنة ثابتة لا تختلف باختـــلاف الأمم ولا تتبـــدل بتبـــدل الأجيـــــال » (١١) .

معـــــانى الحرية :

هذا هو الموقف الأساسى لجمال الدين الأفغانى . فأين سيكون مكان الحرية فى اطاره ؟ من الصحيح أن الأفغانى يتكلم أحيـــانا عن الحـــرية الشخصية (١٢) ، ولـــكنها فى العادة ليست الا حـــرية الحركة أو محض الحركة الجسمية ، وهى لا تذكر الا فى اطار انتقاده لسياسة الانجليز فى مصر بعد الاحتلال .

وعلى العكس من ذلك ، فان الواقـــع أن الأفغـــانى يستخدم كلمة « الحرية » أحيانا على أنها مقابل « السلوك على الطريقة الأوربية » ، بالمعنى السىء لهذا التعبير ، وذلك فى سياق سلبى يحمل على ادانتها . تقول ترجمة « الرد على الدهريين » مثلا : « الا أن قبيلا من هذه الطائفة (أى الدهريين) عملوا على اخفاء مقصدهم الأصلى وهو الاباحة والاشتراك . واكتفوا فى ظاهر الأمر بانكار الألوهية وجحود يوم الدين يوم العـــرض والجزاء ، وقد يظن بعض ضـــعفة العقول أن فى ذلك بسطة الفكر وسعة الحرية . . . » (١٣) . وتقول « العروة الوثقى » : « ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أى جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لهـــا وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه أن يحوز بسطة فى الملك وعظمة فى السلطان ، وأن ينـــال الغاية من رفعة الشـــأن فى الاقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ، ولا يتجشم فى ذلك اتعابا ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . . . ويستغنى عن كل ذلك بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الأصول الأولى فى الديانة الاسلامية » (١٤) .

كذلك فان « العروة الوثقى » تهاجم المـــدارس التى شـــيدت على النمط الجديد والبعثـــات التى أرسلها المصريون والعثمانيون الى أوربا ، وتقول عن هؤلاء الذين درسوا على الطريقة الجديدة انهم لم ينفعوا بلادهم بشىء ولا انقذوها من الفقر أو الاعتداء ولا « وجدت فيهم قلوب مازجتها

روح الحيـــاة الوطنية » ، ثم تستطرد الجريدة : « نعم ، وربما وجدبينهم افراد يتفيقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها فى عبـــارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ، وســـموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب مايختارون ووقفوا عند هذا الحد » (١٥) وهكذا فان « الحرية » فى كل هذه المواقع شىء أقرب الى المفهوم السىء ، أو على الأقل ان اطارها اطار غير محمود .

الحرية القوميـــة :

والواقع أن الحرية التى كان يقصـــدها جمـــال الدين عادة ، حين يستخدم هذه الـــكلمة ، لم تكن الحرية الشخصية ، بل الحرية «القومية» أى الاستقلال الوطنى ، ســـواء كان ذلك بازاء المستبدين الشرقيين فى داخل الوطن أو بازاء الاســـتعمار الأوربى . يقول فى واحد من أوضـــح أقواله بشأن الحرية : « اذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهـــم هذه الأشـــياء الحرية والاســـتقلال لأن الحرية الحقيقيـــة لايهبهـــا الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك . بل هاتان النعمتان انما حصلت عليهما الأمم أخذا بقوة واقتدار » (١٦) . ونراه هكذا يقـــرن الحرية والاستقلال وكأنهما شىء واحـــد أو شيئان مرتبطان جوهريا على الأقل . ولـــكن لننظر من جـــديد فى هذا النص الأخير لنتبين منه طبيعـــة هذه الحرية التى يتحدث عنها ، وسيظهر لنا عند اعادة النظر فيـــه انه لايقصد بها شيئا أكثر منالشجاعة الأدبية باعتبارها ركنا منأركان السلوك السياسى ، والتى تسمح للمرء وتدفعه الى أن يقول الحقيقة ، أو أن يعلن رأيه ، بلا خوف ولا خشية من السلطات القائمة .

ويبدو أن هذا التصور هو الذى يقف وراء تمجيده لفضـــائل العرب فى أيام الاســـلام الأولى : « وفود العرب حملت معها (من شبهالجزيرة) أخلاقا فاضلة ... مثل الأنفة من الـــكذب والوفاء بالعهد ومطلق العدل وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة » (١٧) . أو حينمـــا يقول ان أسلوب الأوربيين الاستعماريين ، وهم بســـبيل الســـيطرة على على مقادير الشرق ، يقوم بين ما يقوم عليه ، على « اقصـــاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنيـــة » (١٨) . ويتضح هـــذا المعنى لـــكلمة الحرية ، بأنها الشجاعة الأدبية ، من فقرة هامة من « العروة الوثقى »

تتحدث عن ضد الحرية : « ان المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل فى الذل ، ويعيشون من خوف العبودية فى العبودية ، ويتجرعون مرارات سكوات الموت فى كل لحظة خوفا من الموت ، لا الدين يسوقهم الى مرضاة الله ولا الحمية الوطنيسة تدفعهم الى ما به فخار بنى الانسان » (١٩) .

حقوق الأمة الاسلامية :

ويمكنك أن تقول ان « الحرية » التى يقصدها الأفغانى ربما كانت الترجمة العصرية للمفهوم الاسلامى الخاص « بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، حين يعنى هذا التعبير المشاركة الايجابية للمؤمن فى شئون الأمة الاسلامية . فتقول « العروة الوثقى » مثلا : « ان الأمة التى ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار فى مصالحها ، ولا اثر لارادتها فى منافعها العمومية ، وانما هى خاضعة لحاكم واحد ارادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد، ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ... ويتناوبها العز والذل ... فاذا كان حاكمها جاهلا سىء الطبع ... أسقط الأمة بتصرفه الى مهاوى الخسران ... وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار فى سلطته عن جادة العدل ، وفتح ابوابا للعدوان ، فيتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق وتخفض الكلمة ويغلب اليأس ... عند ذلك ان كان فى الأمة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيرا اجتمع أهل الراى وأرباب الهمة من افرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة » (٢٠) .

وقد اهتم الأفغانى كثيرا بمفهوم « الأمة » الاسلامية هذا ، حتى أن احد اهدافه الكبرى كان اعادته من جديد الى الحياة ، من أجل موازنة الحكام المستبدين بالأمة ، واستثارة المسلمين من الهند الى الجزائر من اجل الوقوف صفا واحداً فى وجه الاستعمار الغربى ، مع ملاحظة أن هذا التصور يخدم مصالح جمال الدين بشخصه ، فمن السذاجة الا ننتبه الى انه كان يرى فى نفسه الزعيم الصالح لتلك الأمة الاسلامية وقد انبعثت موحدة من جديد ، أما فكرة القومية فستجعله محدودا بحدود

الأفغــان أو فارس على أحسن تقدير ، بينما هو يريد لصــوته أن يمــلأ الدنيــا بأسرها . ومع ذلك فانه فى استخدامه لمفهوم الأمة ، يقصــد به أحيــانا مجموعة اســلامية محددة مثل مصر مثلا أو فارس (٢١) . وعلى أى حال فهاهو تصوره عنحقوق الأمة من الوجهة السياسية : « السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها ، انما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع اهل الشر وصــيانة حقوق العــامة والخاصة وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العــدالة المطلقة ، الى آخر مافى الوازع والسلطــان من المنافع العــامة » (٢٢) . فالأمة هنــا هى مصدر السلطات كما سيقال وهدف السلطة هو تحقيق « المنافع العــامة » لمجموع الأمة ، وان كان القــارىء سيلاحظ أن مفهومه هذا عن « المنــافع العامة » سلبى جدا ومتأخر مثلا عن مفهوم رفاعة الطهطاوى الذى كان يرى ضرورة التنميــة الاقتصادية كجزء من مفهوم « المنافع العامة » .

وهكذا فانه من الطبيعى أن يعتبر الأفغانى « رضــاء الأمة » شرطا رئيسيا لقيــام السلطة الزمنية ، فيقول : « الدين الاسلامى لم تكنأصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفــوس من جهــة كونها روحانية مطلوبة من هذا العــالم الأدنى الى عالم أعلى ، بــل هى كما كانت كافلة لهــذا جاءت وافيــة بوضع حدود المعاملات بين العبــاد وبيــان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القــابض على زمامها الا من أشد النــاس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز فىجنس أو قبيلة أو قوة بدنية وثروة مالية ،وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعةوالقدرة على تنفيذها ورضــاء الأمة . فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الألهية التى لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة »(٢٣) .

الاســتبداد والشورى :

وقد كان جمال الدين اشد اهل عصره معارضة للاســتبداد واكثرهم جسارة وافصاحا (٢٤) ، والاستبداد هو ضد رضاء الأمة ، لأنه حكمالفرد بدون اشتراكها ، ولأنه عند الأفغانى حكم الفرد الظالم المستقل . فما هو

بديل الاستبداد فى الشرق ؟ هل هو الحكم النيابى الدستورى ؟ هل هو الحكم الجمهورى ؟ يبدو أن لا هذا ولا ذاك .

أما أن البديل لا يمكن أن يكون الحكم الجمهورى ، فدليله هذا الموقف الصريح : يقول محرر « الخاطرات » بعد ذكر أن « جمال الدين كان محبا لمصر وللمصريين ، شديد الارتباط بهم » ، ان راى السيد كان أن مصر سوف تخلص لأهلها « اذا هم عملوا بالحزم وهيئوا ما يلزم من العزم ، وما يتطلبه حكم الذات من القوى ... لا تحى مصر ولا يحى الشرق بدوله واماراته الا اذا أتاح الله لكل مصر رجلا عادلا قويا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان . لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل الا مع القوة المقيدة . وحكم مصر بأهلها انما أعنى به الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح » (٢٥) .

ثم قال: « اذا صح أن من الأشياء ماليس يوهب، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال . لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك المسيطر للامةعن طيب خاطر ، والاستقلال كذلك . بل هاتان النعمتان انما حصلت وتحصل عليها الأمم أخذا بقوة واقتدار ... أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابى الشورى ، فهو أيسر مطلبا وأقرب منالا ، اذ يكفى فيه أحيانا ارشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه (٢٦) فيفعله ، ويشرك معه أمته ورعيته ، ويرى بعد التربة راحة وتضامنا على سلامة ملكه .. فيكون للملك الدستورى عظمة الملك ... وهذا الشكل (الملك الشورى) هو الحكم الذى يصلح لمصر ولدول وامارات الاسلام فى الشرق . وبتوضيح وافصاح : لا يسلم على الغالب الشكل الدستورى الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الأمر كلما صادمه مجلس الأمة بارادته أو غلبه على هواه . لذلك قلت : « اذا أتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق ، يحكمه بأهله » ، ذلك الرجل اما أن يكون موجودا أو تأتى به الأمة ، فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لنظامها الأساسى وتتوجه على هذا القسم .. أما الحكم الجمهورى فلا يصح للشرق اليوم ولا لأهله »(٢٧)

هذا عن البديل الأول للاستبداد ، وهو الحكم الجمهورى . فماذا عن البديل الثانى ، الحكم النيابى الدستورى الذى ورد ذكره فى هذا

النص ذاته ؟ لنذكر أولا أن الأفغانى كان متعلقا بالفعل بفكرة الدستور ، ولنذكر ثانيا أنه رأى فيها المقابل الأوربى لفكرة الشورى ، ولنذكر ثالثا أنه وقف مع ذلك موقفا متحفظا جدا من فكرة المجالس النيابية ، ولنذكر رابعا أن الحل عنده انما هو « المستبد العادل » الذى « يحكم الشرق بأهله »، وهذه هى الشورى عند الأفغانى . ولنفصل فى كل هذا .

أما عن تعلق الأفغانى بفكرة الدستور ، فانه أمر ثابت ، وقد قدم هو نفسه مشروعا دستوريا لفارس ، « لتكون حكومة ملكية شورية،فما أتم قواعد الدستور الكلية ، وأطلع عليه الشاه ناصر الدين ، الا واعظم الأمر ، اذ رأى أن حكمه سيكون مقيدا وأن أهل فارس سيكونون أوسع سلطة من الشاه بمجلسهم النيابى » . ولينظر القارىء فى بقية الحديث لأنه شديد الدلالة على مفاهيم حكام « الشرق » ،وعلى جسارة الأفغانى اللامتناهية . فيقول الشاه لجمال الدين : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد ، وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين ؟ فقال جمال الدين : اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوى أعظم وأنفذ وأثبت مما هم الآن . والفلاح والعامل والصانع فى المملكة يا حضرة الشاه أنفع من عظمتك ومن آرائك . واسمح لاخلاصى أن أؤديه صريحا قبل فوات وقته . لا شك يا عظمة الشاه انك رأيت وقرات عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية ؟ » ويقال ان الصدر الأعظم وشى بجمال الدين عند الشاه ، قائلا : « أن مايسنه جمال الدين من القوانين ، لا يفيد البلاد شيئا ، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ، ويعطيه الى السوقة والفلاحين » (٢٨) .

كذلك فان الأفغانى قرب ما بين فكرة الدستور وفكرة الحكم بالشورى ، ولكن هذا عنده لا يخلو من تقلبات . فيذكر محرر « الخاطرات » ان جمال الدين قال مرة عن مقابلة له مع السلطان عبد الحميد : « رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستورى وأن الاسلام اول من عمل به فى سلطانه (أى الحكم الشورى) ، وذلك عملا بحكم النص : « وأمرهم شورى بينهم » (٢٩) .

فيظهر من هذا القول أن الشورى تعنى عنده الحكم الدستورى . ومع ذلك فان نفس الكتاب يذكر فى مكان آخر أن الأفغانى قال مرة : « ان تدبير الممالك ، وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته بالحكمة وحسن الرأى ، وأصول الحكومة الشورية والمشاورة ودعوة الأمة للتداول ، وظائف الملوك ... كل ذلك مسطور فى القرآن ، فى سورة النمل بأصرح عبارة وبآيات وجيزة » (٣٠) . فالذي يظهر من هذا النص هو أن الشورى لا تعنى عند الأفغانى الا محض « المشاورة » أو المناصحة ، أى طلب الرأى لا اكثر وبلا الزام . ولكنا نرى الأفغاني في سياق ثالث يستخدم كلمة « الشورى » استخداما يعود الى معنى « الحكم الدستورى » . ففى نفس الكتاب ذكر جوار بينه وبين الخديو توفيق ، يقول فيه هذا الأخير : « اننى أحب كل الخير للمصريين ويسرني ان أرى بلادى وابناءها في أعلى درجات الترقى والفلاح . ولكن مع الأسف اكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون انفسهم والبلاد فى تهلكة » . وقد قال جمال الدين مجاوبا للخديو : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن اقول بحرية واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ولأفراده ينظرون به لسموكم . وان قبلتم نصح هذا المخلص واسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد علي طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم أيضا لسلطانكم » (٣١) .

والحق أن موقف الأفغانى من النظام النيابى يشوبه بعض الغموض . فقد رأيناه فى النص السابق ينصح لتوفيق اقامة انتخابات يختار الأهالى فيها نوابهم . ومع ذلك ، فان محرر « الخاطرات » يذكر بعد صفحة واحدة فى كتابه اقوالا تختلف فى مضمونها تمام الاختلاف وتخص رأى الأفغانى فى مجلس النواب . ونأتى هنا بذلك النص الهام الذى يوضح ليس فقط موقف الأفغانى تجاه النظام البرلمانى بل وكذلك آراء له شديدة النفاذ حول الطبيعة الانتهازية « لنواب » الأمة وممثليها ، فى عصره بطبيعة الحال ، وربما بعد عصره كذلك . يقول وكأنه يقرأ الحاضر

والمستقبل فى كتاب مفتوح : « سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابى المصرى ، سيكون ولا شك بهيكله الظاهرى مشابها للمجالس النيابية الأوربية ، بمعنى أن اقل ما سيوجد فيه من الأحزاب حزب للشمال وحزب لليمين ، ولسوف ترون اذا تشكل مجلسكم أن حزب الشمال لا أثر له فى ذلك المجلس ، لأن أقل مبادئه أن يكون معارضا للحكومة، وحزب اليمين أن يكون من أعوانها ... ولكن متى رأيتم المجلس النيابى الموهوم تشكل ورأيتم كل عضو يفر من أن يكون فى حزب الشمال ... فراره من الأسد الى حزب اليمين . فمقدمات مجلس نيابى قوته المحدثة له خارجة عن محيط الأمة ، والمحدث له قوة خارجة عن الأمة ومجلسها يعارضها ، منافع متضادة وهدفان مختلفان (٣٢) ، فمثل هذا المجلس لا قيمة له ... نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم فى زمانكم : هو ذلك الوجيه الذى امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم أسقط منه همة ، ذلك الرجل الذى لا يعرف لايراد الحجة تجاه الحاكم الظالم معنى ، ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل الذى يرى فى ارادة القوة الجائرة كل خير وحكمة ، ويرى فى كل دفاع عن وطنه ومناقشته للحساب قلة أدب وسوء تدبير وعدم حنكة وتهور ، وبالتالى يرى أن كل صفات العزة النفسية والمقومات الأهلية القومية مآلها الويل والثبور ، وكل مايدعو الى الذل واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الأمة هو من مجالى حكمته العصرية ... فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده » (٣٣) .

ويدل على أن هذا الكلام يعبر عن جوهر موقف الأفغانى أنه يتفق مع تشاؤمه أمام نظام الأحزاب الذى عبر عنه نص آخر من «الخاطرات» ومع رأيه فى أن ما يحتاج الشرق اليه انما هو « المستبد العادل » .

أما رأيه فى نظام الأحزاب فها هو : « الأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ورفاهية وحرية واستقلالا ومساواة ، على أوسع شكل، قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل فضلا عن القريب العاجل . فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية .. الخ . فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر ، ظهرت

هنالك فى رؤساء الأحزاب الاثرة والأنانية .. الخ » (٣٤) . ومع ذلك فانه يتراجع بعض الشيء ويضيف قائلا : « لا ينبغى أن يؤخذ من قولى هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى ، فان الشرق بعد أن مرت عليه زلازل العسف والجور واشكال الاستعباد ، حتى تأصل فى نفوس أبنائه بذور الذل والاستكانة لكل قوى اكتسح بلاده ، ان هذا الشرق وهذا الشرقى لا يلبث طويلا حتى يهب يوما من رقاده ... فيأخذ فى اعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها المستنكرة لاستعبادها . على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى ، لا مانع يمنع الشرقى من الانخراط فى الحزب ، ويقبل من المواعيد ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من أفراد يرون الموت فى الحياة لأوطانهم مغنما ... حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات أبنائه ... يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ونصرة مظلومهم ويأخذون ما لهم من حق ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون » (٣٥) .

والواقع أن الحل الحقيقى الذى ارتآه جمال الدين الأفغانى لمشكلات الشرق انما هو حل « المستبد العادل » الذى يحكم بالشورى . ففى « العروة الوثقى » يرد على القائلين بأن طريق الشرق الى القوة انما هو نشر المعارف بين جميع الأفراد وأنه « متى عمت المعارف كملت الأخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة » ، يقول ردا على هؤلاء : « وما أبعد ما يظنون ، فان هذا العمل العظيم ، انما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ماتكره أزمانا ، حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ... » (٣٦) ، كذلك فقد مر بنا قوله الذى أتى به كتاب «الخاطرات»، من أنه : « لا تحيى مصر ولا يحيى الشرق بدوله واماراته الا اذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان » . ومما يدل على أن الدور الرئيسى سيظل يلعبه الحاكم قول « الخاطرات » : « عرف جمال الدين بغرضه وسعيه الحثيث لجمع شتات اهل الشرق وايقاظ الهمم من اهله ، والاشراف بهم على الخطر الغربى المحدق بكيانهم والآخذ بخناقهم ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك أو أمير فى الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحصينه بالحكم

الشورى الدستورى ، وتمكينه لما يربط الاقرب فالأقرب، ويقويه بالتحالف والاتحاد ، حتى يرجع الكل الى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى ».

ومع كل ذلك ، وهنا أيضا ، يعود الأفغانى ويتنصل من فكرة « المستبد العادل » .فيقول محرر « الخاطرات » ان مريدى السيدسألوه: « ان المتداول بين الناس على لسانك : « يحتاج الشرق الى مستبد عادل » ، فأجابهم : « هذا من قبيل جمع الأضداد . وكيف يجتمع العدل والاستبداد ؟ وخير صفات الحاكم القوة والعدل ، ولا خير بالضعيف العادل ، كما أنه لاخير فى القوى الظالم » (٢٧). والذى يهمنا نحن شيئان : الأول أن المتداول بين الناس كان بالفعل ذلك ، والثانى أن منطق المذهب أقوى من كل التراجمات اللفظية ، ومنطق المذهب واضح من كل النصوص التى أثبتناها منذ قليل .

الحل الأخلاقى :

ونستطيع أن نخرج من كل ما سبق أن حل مشكلات الشرق ومصائبه، وخاصة روح التواكل وعادة تقبل الاستعباد ، لا يمكن أن يكون حلا تربويا بالتعليم ، ولن يكون حلا سياسيا ، ولن يكون على الأخص اصلاحا دستوريا يعدل من النظم القائمة ، ويقوم الشرقيون بنسخه عن أوربا . فأين الحل اذن ؟ يبدو أنه يقوم عنده فى الاصلاح الأخلاقى أولا ، وجوهر هذا الاصلاح ووسيلته هو الرجوع الى مثل عليا وفضائل سار عليها وتحلى بها السلف الصالح وأشارت بها الشريعة الحنيفة .

وهكذا ستكون الحرية حرفيا ألا يخشى المؤمن فى الحق لومة لائم، ولديه من الأمثلة عند السلف الصالح الكثير . وبهذا يفسر تأكيد الأفغانى على رذيلة عظمى فى رأيه ، هى رذيلة الجبن ، التى تخصص لها العروة الوثقى مقالة طويلة بأكملها ، وذلك فى عددها الأخير الذى بعده اختفت عن الصدور .

ومن جهة أخرى فان الأفغانى يرى وجود صلة وثيقة بين الجبن والوهم : « الوهم روح خبيث يلابس النفس مولودا فأبوه الجبن ومربيه ومنشؤه الجبن » . وهو « حجاب الحقيقية وغشاء على عين البصيرة..

وله سلطان على الارادة وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ومبعد الخـــير » (٣٨) .

والواقع انه يمكن أن يلخص نداء الأفغاني نحو الحــرية في هــذه الصيحة الشعرية ، التي هي في آن واحد دعوة الى الشجاعة وتحريض على التمرد :

عش عزيزا أو مت وأنت كـــريم   بين طعن القنا وخفق البنود(٣٩)

ولقد كانت حياة الأفغاني كلها مثالا حيـــا على الشـــجاعة وعـــلى التمرد ، وربما كان هـــذا أهم مشاركاته الحقيقيـــة ومصـــدر تأثيره على معاصريه . ومن أقوى المواقف الدالة على شجاعته التي لا مثيل لها في عصره أنه دخل على السلطان عبد الحميد في فترة اقامته الأخيرة في الاستانة وقال له : « أتيت لاستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك ، لأني رجعت عنها ... نعم بايعتك بالخـــلافة ، والخليفة لا يصح أن يكون غير صادق الوعد . بيـــد جلالتك الحل والعقد ، وبامكانك الا تعد ، واذا وعـــدت وجب عليك الوفاء . وقد رجوتك بالأمر الفـــلاني ووعدت بأنك تمضـــيه ولم تفعل » ، فهـــدأ السلطان بعد أن انتفض بشدة عند سماعه الكلمات الأولى ، واصـــدر أمره بما كان يطلب جمال الدين (٤٠) . ويقول الأفغاني عن نفسه : « أنني استطعت في حياتي أن قلت الحق ولم اكتمه ، لا رغبة ولا رهبة ، بل جاهرت به ، واني بلغت من الشجاعة مرتبـــة قلت معها بعض ما أقول » (٤١) . بل لقد كان يرغب في الشهادة : « أنا عن نفسي غير راض ، ذلك لأن الخمول قعد بي ، فلم يوصلني الى أسمى مرتبة ، وهي مرتبة الشهادة » (٤٢) ، ونضيف نحن أنها أعلى مراتب الشجاعة .

ولم تكن شجاعته شجاعة سياسية فقط ، بل كانت كذلك ، وربما في المحل الأول ، شجاعة عقلية . ولا يمكنك الا أن تحس بلهجة شخصية حين تراه يتحدث عن الحقيقة التي لا تسكن أحيـــانا معسكر الـــكثرة بينما يكون هنـــاك أفراد برؤوسهم تحط فيهم الحقيقة ويدافعون عنها حتى ولو كان الثمن هو أعظم الآلام ، وحين تراه يتحدث كذلك عن « التقليد الأعمى بدون حجـــة ولا برهان » (٤٣) للتقاليد المتوارثة . ولقـــد كان الافغـــاني واحدا من أوائل من حرضوا المسلمين على ممارسة حق الاجتهاد ، وقـــد

يكون أعظمهم جميعا وان لم يكن أولهم بالاطلاق . وتتميز ردوده على أهل التقليد بالصرامة والعنف ، على غير أسلوب الأكثرين غيره ممن دافعوا عن حق الاجتهاد قبله ، حيث فضلوا استخدام اللين ، واللجوء الى الاشارة بدل التصريح ، والاحتماء وراء بعض السلطات وممارسة أسلوب التقدم والتأخر ، أما هو فغير هذا تماما : يضع المبدأ ، وكأنه يعتبر أن محض وضع مبدأ الاجتهاد دليل أحقيته. وعلى الجماعة القائلة بأن طريق الاجتهاد لا يمكن سلوكه بسبب صعوبة توفر شروطه ، يرد الأفغانى : « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أى امام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين ، أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه ... فمن كان عالما باللسان العربى وعاقلا غير مجنون وعارفا بسيرة السلف ... الخ جاز له النظر فى أحكام القرآن وتمعنها والتدقيق فيها واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس ... نعم ان أولئك الفحول الأئمة (أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل) ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا ... ولكن لا يصح أن تعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ... » (٤٤) .

وهو ينادى باللجوء الى التأويل حين يبدو القرآن الحكيم متعارضا مع نتائج العلم الحديث ، أى العلم الأوربى : « عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن برىء مما يقولون ... فاذا لم نر فى القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا الى التأويل ... » (٤٥) .

وربما كان من الممكن أن نعود بهذه المواقف كلها الى أصل أبعد، يعد ضمن المشاركات الكبرى لجمال الدين الأفغانى فى تقدم الفكر الاسلامى الحديث ، ذلك هو اعادته تقييم دور العقل واعطائه من جديد سلطات قوية فى حياة الانسان . وقد رأى الأفغانى أن العقل سيصل يوما الى اكتشاف أسرار الطبيعة ، ولكن على شريطة تحريره من « قيود الجمود » التى قيدته لعصور طويلة ، هذا العقل الذى هو

أشرف مخلوقات الله : « ما خلق الله خلقا أشرف من العقل الذى وهبه لخليفته فى الأرض ، وهو الانسان » (٤٦) . ولا شك أنه ينبغى أن ننظر الى اعجابه « بالشجاعة الأدبية » للدكتور شبلى شميل تحت هذا الضوء (٤٧) ، وكذلك الحال الى اعجاب أرنست رينان الفرنسى بجمال الدين نفسه .

العدالة

من السهل أن يدرك القارىء لآثار الأفغانى أنه يتحدث عن العدالة أكثر بكثير مما يتحدث عن الحرية . وليس فى هذا مايدعو الى العجب ، فموضوع العدل من الموضوعات الاسلامية التقليدية ، خاصة وأن المؤلفين الاسلاميين رأوا جميعا فى « العدل أساسا للملك » . يقول الأفغانى : « العدل قوام الاجتماع الانسانى وبه حياة الأمم ، وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال » (٤٨) ، بعد أن كان قد قال مخاطبا المسلمين : « عليكم ... أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة واحكام الألفة فى المنافع الوطنية ... » (٤٩) .

وينبغى أن يكون هدف السلطة الزمنية تحقيق « العدل المطلق »(٥٠) ذلك أن « السلطة الزمنية بمليكها أو سلطانها انما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن وتوزيع العدالة المطلقة ، الى آخر ما فى الوازع والسلطان من المنافع العامة » (٥١) .

والدافع للسلطة الزمنية نحو تحقيق العدل هو فى المحل الأول طاعة الشريعة الاسلامية ، وطاعتها الشرط الأساسى لكل حكومة ، كما سبق ورأينا (٥٢) . ويقول الأفغانى : « كل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها

ملوم » (٥٣). ونلاحظ هنا أسس كون الأفغانى معارضا للحركات القومية، هـذا وعنـوان المقـالة التى تأتى فيهـا هذه الـكلمات هو « الجنسية والديانة الاسلامية » .

ويوضح الأفغانى مصدر وجوب الطاعة نحو السلطة الزمنية : فان النفوس اذا اعتمدت جميعا على « حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضـاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس بالطمح ، وتكون بالنسبة اليـه متساوية الأقدام ، وهو مبدأ الـكل وقهار السموات والأرض ، ثم يكون القـائم من قبله بتنفيذ أحكامه (أى الحاكم الأرضى) مساهما الكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين ، فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى ، وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه (وهو الحاكم الأرضى) لعامتهم فى التطامن لمـا أمر به ، اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة (وهو الحاكم الأرضى أيضا) واستغنت عن عصبية الجنس لعـدم الحاجة اليها » (٥٤) . والقارىء المنتبه سيجد فى هذا وضعا جديدا لنظرية « الحكم الالهى » .

ولـكن ما هى على الدقة طبيعـة العدالة المطلوبة من الحكومة ؟ اذا تفحصنا النصوص الأفغانية عن قرب وجدنا أن فكرة جمال الدين عن تلك العـدالة لا تقل فقرا عن تصور النظرية السياسية التى أخذ بهـا حكام المسلمين فى هذا الجانب . فالعدل المطلوب ما هو فى النهـاية الا « نسف العدوان ورفع الظلم البين » ، وهذه هى وظيفة الحكومة (٥٥) ، وهو تصور سلبى كما هو واضح .

وقد نجد أحيانا تعبيرات فخمة كتلك التى سبق لنا رؤيتها من قبيل أن « العدل أساس الـكون وبه قوامه » (٥٦) ، وما شـابه ذلك ، ولـكن الواقع أن هذا كله لا يجاوز الحـدود الضيقة لتعبير آخر ، الا وهـو « حفظ الحق ودفع الشر » (٥٧) ، وهو ما يعنى بعبارة أخرى المحافظة على الأوضاع القائمة كما هى . وصحيح أن هذه العدالة تحتوى ضـمنا على التحذير من ارتكاب الظلم ، ولكن ماذا ستكون اذن تلك « العدالة » التى ينسبها السـيد جمـال الدين الى الأتراك على مايقـول صـاحب «الخاطرات» : « التزم الأتراك والسلاطين العظـام منهم جانب الدين ، وكان على منصـة المشيخة الاسـلامية علماء أعلام ... يصدر السلطان

وأكابر دولته عن رأيهم وينزل عن حكمهم ، فعسطوا فى الرعيسة وأمنوا من دخل فى ذمتهم » (٥٨) ؟

والواقع أنه من المستحيل بالفعل ، أو يكاد ، أن تجد عند جمال الدين الأفغانى فكرة واضحة المعالم ومفصلة عن مضمون العدالة ، وذلك اكتفاء بتكرار « الكلمة » ذاتها ، وكأن محتواها ومعناها واضحين وضوح نور الشمس ، فلا حاجة بها الى تحديد ، وهو يشير مرات عديدة الى « ميزان عدل الله » (٥٩) ، والى القاعدة المشهورة الخاصة « بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » (٦٠) ، والى المساواة التى أكدت عليها الشريعة الاسلامية (٦١) ، والى « الاعتدال » باعتباره صنوا للعدل (٦٢)، والى « الأمن والراحة » باعتبارهما نتيجتين ضروريتين له (٦٣) ، والى نموذج « العدالة الشرعية » كما تجسد فى سيرة الخلفاء الراشدين(٦٤)، والى حب العدالة الذى كان عند « أجدادنا » بصفة عامة (٦٥)، نعم تجد عند الأفغانى كل هذه الاشارات ، ولكنك اذا تمعنت فيها لتضع يدك على شىء صلد فلن تجد الا تعبيرات يدق أغلبها أجراس الخطابة و « الانشاء » ، كما سبق ورأينا من قبل فى نص أثبتناه (٦٦) .

ويبدو أنه يحدد القول على نحو أكبر حين يحاول تفسير الآية القرآنية الرئيسية فى هذا الصدد ، وهى « ان الله يأمركم بالعدل والاحسان » ، فيذهب الى أن معنى هذه الآية هو : « اعطاء كل ذى حق حقه ووضع الأشياء فى مواضعها وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان ويشيد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ويشفى نفوس الأمة من الملل . هذا مما تحكم به بداهة العقل ، وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض وثبت بها نظام كل وجود وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله « ان الله يأمركم بالعدل والاحسان » (٦٧) ، ثم يضيف : « كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله ، كذلك الجور فى الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الأوامر الالهيسة على العدل وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أول من توجه اليه الأوامر والنواهى فى هذا الباب : العدل

هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده وقرنها بالخير الكثير ، فقال: « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ، وهى مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير » (٦٨)

ولكن مضمون هذا كله مضمون فقير ، فضلا عن طابعه الخطابى، حتى أن الأفغانى وجد يوما انه يستطيع أن يضع تصوره عن العدالة فى كلمات اربع للخليفة عمر بن الخطاب : « نعم تسنى للفاروق ان يأتى على خير نتائج الأحكام وما ينتظره الناس على اختلاف طبقاتهم من عدل الحكام بأربعة كلمات حيث قال للمغيرة بن شعبة حينما ولاه : « يا مغيرة ، ليأمنك الأبرار وليخفك الأشرار » (٦٩) ، وهذا المعنى يعود الى أربعة اخر للأفغانى : « حفظ الحقّ ودفع الشر » ، وقد مرت علينا.

أما اذا أردنا انتباهنا الى مفهوم الأفغانى عن شروط الحاكم العادل وواجباته فسنجده اغنى شيئا ما من مفهومه عن العدالة ذاتها واكثر تفصيلا . فالحاكم العادلينبغى أن يكون خاضعا للشريعة ،والا يتبع هواه، والا تكون بينه وبين المؤمنين فروق ، وأن تكون له ميزات خاصة عليهم ، وأن يتبع رأى العلماء العارفين بأحكام الشريعة (٧٠) . كذلك فان تصور الأفغانى عن مصالح الدولة وواجباتها كان تصورا واضحا بعض الشىء .

يقول فى « رسالة الرد على الدهريين » (٧١) : « الأمم فى رفاهتها والشعوب فى راحتها وانتظام أمر معيشتها محتاجة الى الحكومة بأى انواعها أما جمهورية أو ملكية مشروطة أو ملكية مقيدة والحكومة فى اى صورها لاتقوم الا برجال يلون ضروبا من الأعمال ، فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الأجانب عليها ويدافعون الوالج فى ثغورها وحفظة فى داخل البلاد يأخذون على أيدى السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ويميل الى الاعتقاد من فتك او سلب أو نحوهما ، ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات والحكم فى المنازعات ومنهم اهل جباية الأموال يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها فى ذلك ثم يستحفظون ما يحصلون فى خزائن المملكة وهى خزائن الرعايا فى الحقيقة وان كانت مفاتيحها بأيدى خزنتها ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال فى المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة

كانشاء المدارس والمكاتب وتمهيد الطرق وبناء القناطر واقامة الجسور واعداد المستشفيات ويؤدى أرزاق سائر العاملين فى شؤون الحكومة من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها انما تؤدى كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة فان خربت أمانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة سقط بناء السلطة وسلب الأمن وزاحت الراحة من بين الرعايا كافة وضاعت حقوق المحكومين وفشا فيها القتل والتناهب ووعرت طرق التجارة وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة وخوت خزائن الحكومة وعيت على الدولة سبل النجاح » .

ولكن الأمور ليست بالبساطة التى قد تتبادر الى ذهن القارىء : فالأفغانى شخصية معقدة التركيب متعددة الجوانب ، واذا كنا قد ذكرنا فيما سبق من صحاب آراء الأفغانى العالم الدينى ، فان له آراء أخرى ومواقف بقدر مافيه من جوانب أو قل بقدر مافيه من « شخصيات » . فقد كان الى جانب المدافع عن آراء أهل السلف الصالح ، كان رجل عصره ، وهنا ستجده يتحدث حديثا مختلفا بعض الشىء عن ذلك الذى رأيناه من قبل .

انظر اليه مثلا وهو يتحدث باعتباره « ماسونيا » : « أول ماشوقنى فى بناية الأحرار (يقصد منظمة الماسونيين) عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، أخاء ، غرض « منفعة الانسان ، سعى وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق » ... هذا ما رضيته من الوصف للماسونية وارتضيته لها . ولكن مع الأسف أرى أن جرائيم الأثرة والأنانية وحبالرياسة ... » (٧٢) ، ويأخذ فىالتعبير عن خيبة امله معمن رأى من أعضاء التنظيم ، لأن تصوره عن الماسونية كان التالى : « اذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، واذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ... » (٧٣) .

وقد رأى فيه أتباعه حكيما اجتماعيا من « أعظم حكماء هذا العصر » (٧٤) ، فيما ظنوا ، والحق أن الأفغانى كان شديد الاهتمام بما

يمكن أن يسمى بالمشكلات الاجتماعية بوجه عام ؛ وله مواقف بشأن التربية والمرأة وطبيعة العلاقات الاجتماعية . ولن نفصل القول فى هذا ، انما الذى يهمنا هنا هو أن العدل عنده ليس ضرورة سياسية وحسب ، بل كذلك، وربما أولا ، فضيلة أخلاقية .

وينظر الأفغانى الى الفضائل بعامة نظرة اجتماعية ، سواء على المستوى الفردى أو المستوى الجمعى : « الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ... وعلى هذا النحو يكون الأمر فى الأشخاص الكثيرة ، فالفضائل هى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد » (٧٥) ، وأين مكان العدل فى الفضائل ؟ « مجموع الفضائل هو العدل فى جميع الأعمال ، فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده فى عمله لا يتجاوزه بما يمس حقا للآخر فيه ، فبه يكون التكافؤ والتآزر » (٧٦) . والفضائل التى تنتج هذا الأثر ، أى التآلف والاتحاد هى : « التعقل والتروى وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفه والسخاء ، والقناعة والدماثة والوقار ، والتواضع وعظم الهمة ، والصبر والحلم والايثار ، والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والأمانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو والرفق والمروءة والحمية ، وحب العدالة والشفقة » (٧٧) . واكثر مايرتبط العدل بالشفقة وبالسلم والرحمة ، وهى من أصول الدين (٧٨) .

ومن أظهر المواقف التى اتخذها جمال الدين الأفغانى باعتباره « حكيما اجتماعيا » أكثر من حيث كونه مفكرا دينيا، الهجوم على استغلال الحكام فى شتى الممالك الاسلامية للضعفاء من الأهالى وظلمهم اياهم، وعلى اهمال الأغنياء القيام بواجباتهم بل ووقوفهم فى صف المعتدى الأجنبى حيث كانوا . وما من شك فى أن هذا الموقف هو اهم ما شارك به جمال الدين فى الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر وعلى الأخص ما بين عامى ١٨٧٧ و١٨٧٩ حين طرد من مصر (وقد دخلها مرة فى عام ١٨٦٩ وبقى فيها لمدة أسابيع ثم عاد اليها ليقيم فيها اقامته الثانية عام ١٨٧١ وهى التى امتدت حتى سنة ١٨٧٩) .

ويكفى هنـا أن ينظر القـارىء فى نص يروى عن خطبة للأفغانى فى المصريين كانت لاتك جديدة على مسامعهم لجراتها البالغة : « انـكم معاشر المصريين قـد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاسـتبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفـاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صـابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط ، وأنتم فى غفلة معرضون ... تنـاوبتكم ايدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيون والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلدكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لـكم ولا صوت. انظروا أهرام مصر وهيـاكل منفيس وآثار ثيبـة ومشاهد سيوة وحصون دميـاط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة اجدادكم .. هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغبـاوة والخمول ، عيشوا كباقى الأمم احرارا سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء » (٧٩) .

وقد خطب جمال الدين مرة فى الاسكندرية ، وكان مما قال : « أنت ايها الفـلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيـال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لـماذا لا تشق قلب الـذين يأكلون ثمرة اتعابك ؟ » (٨٠) .

هل هـذا نداء من اجل الثورة أم تحـريض على التمرد ؟ فلنقل ، مستخدمين لغـة اكثر تواضعا ، انه دعوة الى العصـيان ، أو قل حتى انها دعوة الى الرفض ، وكل كلمة من هذه الكلمات اقل من سابقتها درجة فى الشمول والجذرية . وربما كان هذا فى نهاية الأمر متفقا مع نزعـة الافغـانى المركزية ، وهى فى جوهرها نزعة محافظة فلم يكن يخطر بباله ان يدعو الى تغيير جذرى ، الى تغيير كل شىء ، بل كان كل مايشغله هو تغيير الاتجاه وحسب ، تغييرا يعود بالأمة الى طريق السلف الصالح. ومن هنـا يتبين خطأ المفسرين ، وكذب بعضهم ، حين تحدثوا عن الأفغانى على انه داعية الثورة . وللبعض عذرهم ، فهناك عنده ماقد يدل على ذلك، ولـكن هناك فرقا بين ثورة وثورة ، والثورة هى التغيير من الجذور .

وقد استمر على فضحه للقوى الاستغلالية فى مصر من خلال مقالات « العروة الوثقى » التى أصدرها فى باريس خلال سنة ١٨٨٤ بالتعاون الوثيق مع محمد عبده ، وهى المقالات التى الهبت صدور النـــاس ، فى مصر وفى الشام وفى غيرهما من بلاد المسلمين . وقـــد جاء فى العـــدد الأول من الجريدة تحديد أهـــدافها ومهنجها ، ويستدل منه أنهـــا ربطت ربطا وثيقا بين الظلم الداخلى (ظلم الحكام والظلم الاجتماعى بأشـــكاله ومصادره المتنوعة) وبين الظلم الخارجى (الغـــزو الانجليزى ليس لمصر فقط ، بل وكذلك للسودان والهنـــد ، وان كان اهتمام الجريدة بمصر ياتى فى الصـــدارة الأولى) . تقول فى سطورها الأولى : « خفيت مـــذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرهـــا الأنفس ثم التوت . أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء ... وبلغوا بهـــم من الضيم حدا لا تحمله النفوس البشرية » (٨١) .

ثم تضيف المقـــالة الأولى : « بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ،ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصا فى المسلمين منهم . فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا وذوو حقوق فى الامرة حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزاء باتوا اذلاء واجلاء أصـــبحوا حقراء واغنياء أمسوا فقراء ... واسود تحولت نعاما . ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقـــد مسها الضرر من افراط الطامعين فى أطماعهم » (٨٢) .

وتهاجم « العروة الوثقى » ، كما أشرنا ، الجميع ، من الخـــديو فى مصر الى الانجليز ، ومن الأغنيـــاء الى كبار الموظفين ، « وقد يكون الحاكم فى خفى أمره رئيس السارقين » (٨٢) . أما عن الخـــديو توفيق فتقول « العروة الوثقى » : « أبيضت عين الدهر وامتقع لون الزمن حتى أن بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصـــبر ويضيق منهم الصـــدر لجور حكامهم وخروجهم فى معـــاملتهم على أصـــول العـــدالة الشرعية ، فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية ... » (٨٤) . وعن الوزير الأرمنى نوبار باشا تقول « الخاطرات » استمرارا « للعروة الوثقى » : « فاذا رأيت مثلا نوبار باشا الأرمنى يعمل على نـــكاية مصر وما يضـــير المصريين ، وقـــد تبوأ رياســـة النظار فيهم ، وليس بينه وبينهم اتـــل

جامعة ، حتى انه لو باع مصر بابخس الأثمان فهو الرابح ، ولا يخسر في هذا البيع ملة ولا وطنا ولا جنسا » (٨٥) .

اما كبار الموظفين فانهم عن المصلحة العامة لاهون ولا ينتبهون الا الى الحصول على فوائد ذاتية ، ولو بثمن الخيانة . فتقول « العروة الوثقى » عن « الشرف » : « كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون . فئة ترى الشرف فى تشييد القصور ، والتعالى فى البنيان وزخرفة الحوائط والجدران، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات ، وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ... وفئة تتخيل الشرف فى الألقاب والرتب كالبيك والباشا ، أو فى الوسامات المعروفة بالنياشين ... حتى انك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بنى ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصرا ، ويرفع بناء ويزخرف بيتا ، ويقيم له حراسا من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك انه نال مجدا أبديا وفخارا سرمديا... ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره ، بالفكر فى وسيلة ينال بها لقبا من تلك الألقاب ... وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وان افضت الى خراب بلاده ، او تذليل أمته ، أو تمزيق ملته ، وعنده أنه رقى الذروة من معنى الشرف » (٨٦) .

وتضيف الجريدة فى مكان آخر عن الخيانة : « لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) ، بل خائن الوطن من يكون سببا فىخطوة يخطوها العدو فى ارض الوطن ... ذلك هو الخائن فى اى لباس ظهر وعلى اى وجه انقلب . القادر على فكر يبديه ، أو تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الأعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن ... » (٨٧)والواقع أن المقصود هنا انما هو الخديو توفيق ووزراؤه وعلى راسهم نوبار واعوانه واظهرهم سلطان باشا .

ويشارك كبار الموظفين فى الخيانة الأغنياء الذين لا تحركهم الا الانانية : « رب غنى فى مصر يملك مزارع واسعة واقطاعات كثيرة

(أبعاديات وجفالك) ، فيركن الى ماتنفيض عليه من الرزق ويطمئن قلبه من جهة معيشته ومعيشة أبنائه من بعده ، فيستوى عنده أجناس الحاكمين ، ولا يبالى بولاية الانجليز على بلاده ، حيث سلم له قوته »(٨٨)

وبينما الخديو والحكام والأغنياء فى واد ، يعيش الأهالى فى واد آخر ، اسمه وادى البؤس : « عامة الأهالى فى الديار المصرية بين فقر كاد يفضى الى قحط واختلاف فى النظام وضعف فى السلطة وخبط فى الأحكام ، كادت تؤدى الى يأس من الاصلاح ... » (٨٩) « واشتدت الحاجة بالفلاحين الى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالها التيفوس وما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ... فعميت عليهم السبل وضاقت بهم المسالك ، ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلا . ففسدت الزراعة ... وأعدم المزارعون قاطبة الا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبا وسلبا » (٩٠) . ووقع الفلاح بين قبضتين : قبضة الحكومة وقبضة المرابى الأجنبى : « الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة الى تكليف الفلاحين بدفع ماعليهم ،والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم ... (وهكذا) تنعاب أغربة الدلالين فى فناء ديوان الحقانية على خراب بيوت الفلاحين : هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها ، وهذا ينعق عليه بمبيع بعضها ، والآخر بالحجر على أملاكه ... » (٩١) .

وقد انتبهت الجريدة الى الاستغلال الاقتصادى الذى يمارسه الاحتلال الانجليزى وفضحت أمره ، ليس فى مصر وحسب بل وفى الهند وفى ايرلندا ، وبينت أن بداية الاستعمار هو التجارة ، كما فعلوا فى الهند (٩٢) ، وحين تمكنوا من أمرها فهاهو مافعلوه : « من ساح فى المستعمرات الانجليزية كالبلاد الهندية ونحوها ، تبين له أن الأهالى فى تلك الممالك حملوا من أثقال الضرائب وأوتار الرسوم الدائمة والمؤقتة ما لا يعرف له غاية ولا يؤخذ فيه بقياس ، حتى سقطوا فى مهواة من الفقر لا يجدون منها خلاصا » . وهو يقول هذا ردا على من قد تسمح له سذاجته بأن يظن أن طلب بريطانيا فى ذلك الوقت (١٨٨٤) تنقيص فائدة الدين المصرى هو بدافع الحرص على « راحة المصريين وتخفيفا لثقل الدين على الخزينة المصرية وتوصلا لرفاهة الأهالى وتوسيع دائرة

ثروتهم » ، كلا بل : « تريد حكومة بريطانيا أن تسود على مصر وتستعبد أهلها ، وترى أن بقاء الحالة المالية على أصولها السابقة يرجع بالمنفعة على الدائنين من الأمم المختلفة ، فلا يكون حظ الخزينة الانجليزية الخاصة من ثروة مصر وافر ... فهى تسعى لفائدتها الخاصة ليس الا »(٩٣). كذلك فان احداث المقاومة الايرلندية فى ذلك الوقت للاستعمار الانجليزى لها هو أقوى دليل على كذب ادعاءات الانجليز بأنهم يذهبون الى حيث يذهبون من أجل المدنية . فتقول « العروة الوثقى » تحت عنوان «ايرلندا»: « فى كل يوم يقيم الانجليزى برهانا منطقيا ودليلا جدليا على أنه ما ذهب الى مصر الا بقصد الراحة ووضع قواعد العدالة . ولكنه كلما رتب مقدماته لاقناع السذج بقضاياه المشهورة ، عارضه الايرلنديون ببراهين عملية » (٩٤) ، وهى هجماتم المسلحة على الابنية والجسور والسكك الحديدية فى ايرلندا المحتلة .

وما من شك فى أن الصفحات السابقة تثبت بالدليل القاطع وقوف الأفغانى ضد الاستعمار الاقتصادى وضد الاستغلال الاجتماعى كذلك فى صورته العائمة . ولكن هل كان له موقف ايجابى بشأن طريقة تحقيق ضد الاستغلال الاجتماعى ، أى تحقيق العدالة الاجتماعية ؟ يقول مترجمو جمال الدين انه قال بالاشتراكية ، كما أسرع عارضو الاشتراكية وقت كانت مذهبا رسميا فى مصر منذ اعوام الى نصوص جمال الدين واخذوا منها كل ما يناسبهم ، ولكن النظر المدقق فيها يجد أن الغموض هو سمة مواقف جمال الدين أو قل ان سمتها هو الازدواجية على الأقل ويتضح هذا اذا رجع القارىء الى ماتقوله « الخاطرات » عن الاشتراكية .

ومن الواضح أن الحل الحقيقى فى نظر الأفغانى لمقاومة الاستغلال واقامة قواعد « العدل المطلق » ، انما هو الحل الأخلاقى القائم على الانقياد لأحكام الشريعة . ويبدو للناظر فى مجمل أقوال الأفغانى انه يرى أن العلة الكبرى لشرور الامة انما هى رذيلة الأنانية ، وهى المسئولة عن كل الفساد الذى يعانى منه جهاز الحكم الاسلامى وبالتالى المجتمع الاسلامى . فانظر الى مصر مثلا ، وستجد أن الانجليز يعتمدون فى بقائهم على الخديو توفيق ، وهذا لا هم له الا التمتع بسلطة صورية

على رأس البــلاد ، فلولا انانيته لوجب عليــه أن يتنحى عن الملك وأن يموت شهيدا فى سبيل دينــه ووطنه (٩٥) . ولهذا فان ماســينقذ الأمة انما هى « جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهــدا أن لا يقرعوا بابا لسلطان ، ولا يضعضعهم الحــدثان ، ولا يثنى عــزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المــكسب ، بل قوم يرون فى المتــاعب والمــكاره بنجاة الوطن من الاســتعباد غاية المغنم ، وفى عكسه المغرم » (٩٦) . وهكذا فان المهم هو قيام رجال تتوفر فيهم الفضــيلة المقابلة للرذيلة والأنانيــة ، أى فضــيلة الايثار ، أو قل على الأقل فضيلة النزاهة (٩٧) .

خاتمـــــة :

نستطيع أن نخرج من عرضــنا الســابق بنتيجتين . الأولى : انه يمكن نميز عند الأفغــانى ، كما أعلن عن نفســه للعموم ، بين موقفين متمايزين : الموقف الأول هو وقف المــدافع عن تراث الاســلام والعقائد التقليدية كما بدت ، نظرا وعملا ، خلال العقود الأولى من الــدولة تحت حكم الرسول والخلفــاء الراشدين . والموقف الثانى هــو موقف الرجل العصرى الذى يستخدم لغة علمانية الى حد كبير أو صغير . هــذه هى النتيجــة الأولى ، أما الثانية فهى أنه على حين تحتل فكرة الحرية مكانا ضئيلا الى حد ما بين اهتماماته النظرية ، وانه يفهم من هذه الكلمة على الأخص الحرية القومية أو قل حرية الأمة ، أو الأمم ، الاســلامية بازاء الغزو الأوربى من جهة وبازاء السلطــات الاســتبدادية للحكام المسلمين نفسهم ، نقول على حين أن هــذا هو حال مفهوم الحرية عنده ، فانه يهتم أكثر كثيرا بفكرة العــدالة ، ومع ذلك فان مضمون هذا المفهوم عنده ، من حيث هو مسلم سلفى، مضمون فقير التفاصيل ويكاد يختزل الى محض المعنى اللغوى للعــدل ، وهو السير على الطريق المستقيم بغير العــدول عن أوامر الشريعة. ولكنه من حيث كونه رجلا ابن عصره، يضفى على هذا

المضمون طابعـــا اجتماعيـــا بمعنى ما من المعانى ، وذلك حين يهتم مثلاً بمصير الفلاح ويندد بأنانية الأغنياء .

اما توصيفه لأمراض المجتمع « الشرقى » فانه توصـــيف أخلاقى ، وليس سياسيا ولا اقتصاديا ، وستكون كذلك وصفته من أجل علاجه . ومع ذلك فان الحل الخلقى الذى يقترحه حل ايجابى فى بعض جوانبـــه يقوم على العمل وليس على الاكتفاء بالنوايا الحســـنة فقط ، كما يريـــد الأكثرون من السذج .

والحق أن الأفغـــانى انما هو أولا ، وربما أخيرا ، رجل عمل وليس رجل نظر ، ورجل عمل سياسى قبل أن يكون رجل أصـــلاح دينى . بل يمكنك أن تقول انه كان رجل اصـــلاح دينى لأنه كان رجل عمل سياسى، حيث عرف للدين مكانته العظمى فى حيـــاة من كان يحدث اليهم ، فـــلا حركة فى المجتمع الا بتحريك الأوضـــاع والمفـــاهيم الدينية ، فهى اذن وسيلة لا غاية فى نهاية الأمر .

واذا قلت ان الأفغانى كان رجل عمل فى المحل الأول ، فانه تنتجعن هذا نتيجة هامة : انه لم يكن يحتاج الى اعلان مذهب متسق واحد ثابت، على طريقة « الحكماء » ، بل لم يكن يمكنه أن يكون له مذهب متسقواحد ثابت ، والسبب فى هـــذا وذاك أن العمل متغير وكذلك ينبغى أن تكون مواقف المهتم بالعمل . وهذه ربما كانت الكلمة المناسبة : فلعل الأفغانى لم يكن له مذهب بالمعنى الدقيق ، بل كانت له مواقفه ، دينية وسياسية واجتماعية وفـــكرية . ولم يكن الأفغـــانى ، فيما بدا لنـــا ، يهتم كثيرا « بحقيقة » مواقفه النظرية ، فبعضها ساذج وبعضها خاطىء وبعضـــها يبدو وكأنه لا تمليه الا الرغبة فى الانتصـــار على الخصم بأى ثمن،وأعظم مثال على ذلك هو رسالته فى « الرد على الدهريين » ولنقل نفس الشىء بلغة مختلفة : ان مواقفه النظرية المعلنة لم تكن تدفع اليها رغبة البحث عن الحقيقة أو ما شابه ذلك ، بل كان دافعها أن تكون وقودا للعمل ، وللعمل المنتج الفعـــال .

ومركز الاهتمام فى هذه المواقف النظرية هو حال الأمة الاســـلامية فى عصره والوسائل الــكفيلة بانهاضنها من كبوتها . والحق أن الأفغانى لم يكن على الدقة المجدد رجل التحـــديث ، لأنه على الأدق «رجل الرفض»، والذى كان يريد لم يكن هو « الجديد » ، بل كان الشىء « المختلف » ، وهذا « المختلف » لم يكن الا الرجوع الى وضع فكرى وعقائدى وسياسى واجتماعى هو الذى شهده عصر الخلفاء الراشدين . ولنقل فى كلمـــات أخرى : لقد كان يريد العودة الى البساطة والى النقاوة التى رأى أنهـــا ميزت عهد السلف الصـــالح . ومن هذه الوجهة يكون الأفغانى «محافظا» شديد المحافظة وأبعد مايكون عن « التجديد » وعن « التحديث » .

الحواشى

(١) هذه المقالة جزء من دراسة حول « العـدالة والحرية فى فجر النهضة الحديثـة » .

(٢) « تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده » ، نشر الشيخ رشيد رضا : الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ٣٠ــ٣١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٠ .

(٥) قارن محمود أبو ريه ، « جمال الدين الأفغانى » ، القاهرة ، طبعة ١٩٧١ ، ص٤٠ ، مععثمان أمين ، « رائد الفكر المصرى » ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٢ .

(٦) « خاطرات جمال الدين الأفغانى » ، جمعها محمد باشا المخزومى ، بيروت ، ١٩٣١ ، ص ١٨٨ ، وسنسميها فى الهوامش « الخـاطرات » اختصـارا .

(٧) Iraj Afshar et Asghar Mahdavi, Documents inédits concernant Seyyed Jamal al - Din Afgani, Teheran, 1963.

(٨) قام بها : L. Kedourie, N. R. Keddie, H. Pakdaman

(٩) « العـروة الوثقى » ، بـيروت ، ١٩١٠ ، الجـزء الأول ، ص ٩٤ــ٩٥ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٧٢ ــ ٧٣ .

(١١) « العروة الوثقى » ، الجزء الثانى ، ص ١٩٢ («الخاطرات» ص ٣٠٧ ــ ٨) .

(١٢) يقول بصـدد عسف الانجليز فى مصر : « وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وان ضعفت ، واتبـاع بواطل التهم وان بعدت أو استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى مارا بطريق الا وهو يلتفت خلفه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده الى السجن » ، « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٢٣ .

(١٣) « الرد على الدهـريين » ، القـاهرة ، ١٩٠٣ ، ص ٧١ . وسنشير الى هذا الكتاب من بعد باسم « الرد » اختصارا .

(١٤) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٨ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(١٦) « الخاطرات » ، ص ٩٠-٩١ ، وانظر كذلك ص ١٣٥ .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ١٣٥ .

(١٩) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٤٧ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢١) « الخاطرات » ، ص ٥٩-٦٠ ، وانظر ص ٤٦ عن مصر .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٣٧ ، وانظر ص ١٣٣ .

(٢٣) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٥-٣٦ .

(٢٤) راجع ماسنذكره من خطبه الموجهة الى المصريين ، وانظر كذلك « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١٢١ ، ١٤٥ ، ٢١٠ ، الثانى ، ص ١١٠ ، ١٣٢ ، « الخاطرات » ، ص ٣٤٥ .

(٢٥) « الخاطرات » ، ٨٩ — ٩٠ .

(٢٦) لاحظ هنا طبيعة الحل الأخلاقى القائم على اساس شخصى: النصح والارشاد .

(٢٧) « الخاطرات » ، ص ٩٠ — ٩٣ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢٩) « الخاطرات » ، ص ٦٤ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣٢) هكذا فى الأصل .

(٣٣) « الخاطرات » ، ص ٤٧-٤٨ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٨٥-٨٦ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٨٦-٨٧ .

(٣٦) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص٦٦ ، وحول تعبير « المستبد القاهر العادل » ، راجع « الرد » ، ص ٣٩ .

(٣٧) « الخاطرات » ، ص ٩٠ .

(٣٨) « الخاطرات » ، ص ٢٧٤ — ٢٧٩ .

(٣٩) نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

(٤٠) « الخاطرات » ، ص ٦٨ .

(٤١) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٤٢) نفس المرجع ، ص ٢٣ .

(٤٣) المرجع ذاته ، ص ٢٠٩ .

(٤٤) « الخاطرات » ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٤٦) المرجع نفسه ، ص ٣٧٥ .

(٤٧) المرجع نفسه ، ص ١٨٥ : « أقدر الشميل قدره فى دقة بحثه وتحقيقه وجراته على بث مايعتقده من الحكمة ، وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم » .

(٤٨) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١٤١ .

(٤٩) « الخاطرات » ، ص ٤٠١ ، وانظر « الرد » ، ص ٣٧ .

(٥٠) « الخاطرات » ، ص ٣٩ .

(٥١) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٥٢) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٥ .

(٥٣) « العروة الوثقى » ، ص ٣٦—٣٧ .

(٥٤) المرجع نفسه ، ص ٣٥ .

(٥٥) « الرد » ، ص ٧٧ .

(٥٦) « الخاطرات » ، ص ٣٧ .

(٥٧) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٥ .

(٥٨) « الخاطرات » ، ٢٢٥ .

(٥٩) المرجع السابق ، ص ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢١٧ .

(٦٠) « العروة الوثقى » ، ص ٢٠٠ .

(٦١) المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٣٨ .

(٦٢) نفس المرجع ، ص ١٤١ ، ١٩٨ .

(٦٣) « العروة الوثقى » ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٦٤) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٨ .

(٦٥) « الخاطرات » ، ص ٣١٩ .

(٦٦) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٩٢ .
(٦٧) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٦٥—١٦٦ .
(٦٨) نفس المرجع ، ص ١٦٦ .
(٦٩) « الخاطرات » ، ص ٣٠١ .
(٧٠) أنظر فى كل هذا ، « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٧—٣٩، ٤٠، ١١٠، ١٦٤ ، الثانى ، ص٤٠ ، « الرد » ، ص ٤٣ ، «الخاطرات» ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٢٢ .
(٧١) « الرد » ، ص ٤٣ — ٤٤ ، وانظر « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١١٠ — ١١١ .
(٧٢) « الخاطرات » ، ص ٤٢ .
(٧٣) « الخاطرات » ، ص ٤١ .
(٧٤) المرجع السابق ، ص ٨٧ .
(٧٥) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١٩٠ .
(٧٦) نفس المرجع ، ص ١٩٠ — ١٩١ .
(٧٧) نفس المرجع ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .
(٧٨) « العروة الوثقى » ، ص ١٤٤ .
(٧٩) « تاريخ الاستاذ الامام » ، الأول ، ص ٤٦—٤٧ .
(٨٠) عثمان امين ، « رائد الفكر المصرى » ، ص ٢٢ .
(٨١) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ١ .
(٨٢) المرجع نفسه ، ص ٤ .
(٨٣) « الرد » ، ص ٧٨ .
(٨٤) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٨—٣٩ .
(٨٥) « الخاطرات » ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .
(٨٦) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ٩٣ . وانظر فى ترف الأقوياء ص ١٦٣ ، جزء أول ، ص ٣٨ .
(٨٧) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .
(٨٨) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٨٩) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٦ .
(٩٠) نفس المرجع ، ص ٢٣ .
(٩١) نفس المرجع ، ص ٢٠٤ .
(٩٢) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٤٩ .
(٩٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٩٤) المرجع نفسه ، الأول ، ص ٤٨ ، وراجع مقال « العدالة الانجليزية » ، الثانى ، ص ٤٨ وما بعدها .
(٩٥) « العروة الوثقى » ، الثانى ، ص ١٠٩ .
(٩٦) « الخاطرات » ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .
(٩٧) « العروة الوثقى » ، الأول ، ص ٣٧ ، ٦٩ .

٦

موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية

دكتور عبد المنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى
كلية التربية ــ جامعة القاهرة

مقــــــدمة :

وجدت الدولة العثمانية فى قيــام الثورة العرابية والنزاع المستمر بين الخديو والعرابيين فرصة للتدخل فى شــئون مصر الداخليــة بحجة فض النزاع واقرار الأمور ، ومع أن السلطان عبد الحميد الثانى وجد فى الثورة فرصـــة للانتقاص من مزايا الاستقلال الداخلى الذى حصلت عليه مصر فانه آثر التريث فى الانضمام الى أى من الطرفين ، ورغم انه لميكن مرتاحا للحركة الوطنيـــة المصرية لأنه كان يخشى انتشـــار مفهوم الثورة منها الى باقى ولايات دولته نظرا لموقع مصر الجغرافى فى وسط ممتلكاته بالاضافة الى أن الثورة العرابية طرحت مفاهيم تستنكرها الدولةالعثمانية كل الاستنكار مثل الدعوة الى النظام النيــابى وفــكرة توزيع الأرض على الفلاحين الا انه حاول اللعب على الطرفين والوقوف مع الجانب التى ترجح كفته فى النزاع فكانت هنـــاك اتصالات بين رسله وبين عرابى كما كانت هنـــاك اتصالات بينه وبين الخـــديو ، ورغم أن الخديو قـــد أرسل الى السلطان يطلب ارسال قوات تركية الى مصر للقضـــاء على الثورة فان السلطان خشى من رد فعل الدول الأوربيـــة خصوصا وان خبرة الـــدولة العثمانية فى الصـــدام مع الدول الأوربية منذ مؤتمر برلين جعلتها تتردد فى انتهاز هذه الفرصة .

ومن الطبيعى أن يكون حجر الزاوية بالنسبة لــكتابة هذا الموضوع

هو الوثائق التركية لذلك فقد رجعت الى الوثائق التركية المترجمة الى العربية والموجودة بدار الوثائق بالقلعة تحت عنوان ملف ثابت باشا المحفظتان ١٦٣ ، ١٦٤ عابدين ، ومحفظة ١١٦ أبحاث ، ودفتر ٢٨٧ عابدين بالاضافة الى محافظ الثورة العرابية وبعض المراجع الأخرى .

وملف ثابت باشا يحتوى على الكثير من الوثائق الخاصة بالثورة العرابية ووجهت نظر الدولة العثمانية تجاهها .

وثابت باشا كان يعمل مندوبا للخديو بالاستانة أثناء قيام الثورة العرابية وتذكره الوثائق بأنه « قبوكتخدا الحضرة الخديوية بالاستانة » .

ومحور الموضوع الرئيسى يدور حول الرسائل المتبادلة بين الخديو والباب العالى والتى يتضح منها :

١ — موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية بعد مظاهرة عابدين وبعثه نظامى باشا .

٢ — موقف الدولة العثمانية من المؤامرة الجركسية .

٣ — بعثة درويش باشا حتى منشور السلطان باعلان عصيان أحمد عرابى .

حاولت الدولة العثمانية استغلال أحداث الثورة العرابية لتثبيت سيادتها على مصر والانتقاص من مزايا استقلالها الذى نالته فى عهد محمد على ثم فى عهد اسماعيل ، ومع ان الخديو توفيق قد ساعدها على أن تنتقص من هذه المزايا بطلبه ارسال قوات تركية الى مصر لاخماد الثورة العرابية وكان فى ذلك فرصة لها لتحقيق أغراضها الا انها لم تستغل هذه الفرصة فأثناء قيام مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ أرسل الخديو ثلاث برقيات الى الباب العالى تتضمن الحادث ولكن بصورة مختصرة من غير أن يوضح فيها الأسباب الحقيقية له والباعث عليه مكتفيا باسناد قيام الثورة الى ضابط برتبة « امير الاى » (١) تمكن من استمالة الجيش المصرى اليه وأحاط « بتعضيد من معظم ذلك الجيش بقصر عابدين .. وضرب الحصار حوله » (٢) وقد طلب الخديو « ارسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورا على جناح السرعة على أن

تكون قيادتها العامة منوطة به خاصة » (٣) ولما كان الباب العالى يخشى رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا لو تدخل عسكريا فى مصر ، بالاضافة الى ان الخديو توفيق لم يكن منظورا اليه فى الآستانة بعين العطف والرضا (٤) فقد ارسل الباب العالى يطلب معلومات أكثر وضوحا عن الحادث حيث ذكر فى برقية له الى الخديو « وبما انه ليس من المحتمل قط ان لا يكون لديكم انباء عن ظروف وملابسات تلك الثورة العسكرية قبيل اجتماع الجنود على الثورة والاحاطة بسموكم فى قصركم وتضييق الحصار عليه فضلا عن أن حكومتكم لابد لها من علم بالظروف والأحوال التى ساعدت على تكوين هذا الحادث .. فازاء ذلك لا يسع الباب العالى أن يقوم بأى سعى لاعادة الأمن الى نصابه وتسوية المسالة وفق الاعتبارات المحلية مالم يحصل أولا على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الأحوال جلاء تاما » (٥) .

وكان رد الخديو على هذه البرقية قوله : « ان الحكومة لم يكن عندها أى نبأ أو علم سابق بهذا الموضوع ، وكل ما هنالك أننا نعلم أن هناك صحيفة تدعى (أبو النظارة الزرقاء) يصدرها فى باريس باللغة العربية العامية رجل يدعى (جمس) (٦) له اتصال وثيق بطبيب عمى سمو عبد الحليم باشا وأن آلاف من أعداد هذه الصحيفة تدخل مصر بطرق مختلفة ، وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش .. ولا يخفى على احد أن الذى ينفق بسخاء على طبع ونشر هذه الصحيفة هو سمو عبد الحليم باشا لا غير وبما أن الدعايات التى تقوم بها هذه الصحيفة والأفكار التى تبثها تتفق تمام الاتفاق مع الأفكار السائدة الآن فى البيئات الناقمة والطبقات المتذمرة فى الجيش فيمكننا أن نقول أن لدعاية هذه الصحيفة دخلا كبيرا فى قيام هذه الفتنة العسكرية (٧) ثم ذكر أن الحادث انتهى من غير حاجة الى اتخاذ تدابير شديدة نحو ازالته(٨) ثم أكد فى برقية أخرى « ان الجيش الآن فى غاية الخضوع والطاعة وان سائر الأمور والشئون جارية على مايرام » (٩) ومع ذلك فان الحكومة التركية رات فيما حدث ذريعة للتدخل السياسى فى شئون مصر وانتحال حق الاشراف عليها — على الرغم من محاولات انجلترا للتضييق على السلطان للاحالة دون ذلك (١٠) حتى يمكنها العمل منفردة فى مصر — فقررت ارسال

لجنة الى مصر للنظر في الحوادث الأخيرة ، وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى وكانت برئاسة على نظامى باشا سرياور السلطان عبد الحميد وعلى بك فؤاد من أعضاء مجلس شورى الدولة (١١) ونجل عالى باشا الصدر الأعظم المشهور ومعهما قدرى بك وصفر افندى وسيف الله افندى من ياوران السلطان .

يذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ان هذا الوفد تحرك من الآستانة يوم ٢ اكتوبر ١٨٨١ قاصدا مصر ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الآستانة والحكومة المصرية حتى تعرف المقصد من ايفاده (١٢) ولكن الوثائق التركية تثبت أن الخديو كان يعلم عن طريق مندوبه فى الآستانة (١٣) بتشكيل الوفد والمهمة التى سيكلف بها (١٤) .

جاء الوفد الى الاسكندرية يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٨٨١ ووصل أعضاؤه إلى القاهرة فى مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة المصرية وفى صبيحة الجمعة ذهبوا الى سراى الاسماعيلية لمقابلة الخديو فاستقبلهم بالترحاب وأبلغوه أن الغرض من حضورهم هو اظهار الثقة به وتثبيت مركزه (١٥) كما ذهب نظامى باشا الى ديوان الحربية بقصر النيل حيث استقبله محمود سامى البارودى ناظر الجهادية وهناك القى خطابا فى كبار الضباط حثهم فيه على طاعة الخديو (١٦) ورد عليه طلبه عصمت بخطاب أعلن فيه خضوع الضباط والجنود للسلطان والخديو (١٧) .

ولما زار الوفد العثمانى شيخ الجامع الأزهر وبعض الشيوخ وجدوا فى حديثهم اطراء على الجيش واعماله (١٨) وظل رجال الوفد العثمانى فى مصر بضعة عشر يوما بين مقابلات وولائم ، واجمعت كلمة من حادثوهم على أن البلاد ليس فيها أى اضطراب واكد لهم الخديو أن الجيش على طاعته وبذلك انتهت مهمتهم (١٩) وغادر الوفد القاهرة الى الاسكندرية فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ (٢٠) .

والجدير بالذكر ان انجلترا وفرنسا استاءتا من حضور الوفد العثماني الي مصر على غير اتفاق معهما واعتبرتاه تدخلا في شئون مصر

الداخلية وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامته (٢١) كما انتهز السير ادوارد مالت القنصل الانجليزى الفرصة لكى تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فأجابته الى طلبه كما اتفقت مع الحكومة الفرنسية على أن ترسل هى الأخرى بارجة على أن تغادر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية فى ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ أى غداة سفر الوفد العثمانى (٢٢) .

هذا عن موقف الدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية عقب مظاهرة عابدين أما عن موقفها من المؤامرة الشركسية (٢٣) فانه بعد أن أرسل الخديو الى السلطان بخصوص هذا الموضوع وطلب منه ارشاده حول الأحكام القاسية التى أصدرها العرابيون ضد الشراكسة ويقترح عليه عدم تنفيذ الأحكام (٢٤) وقف السلطان مؤيدا لموقف الخديو وسر من ذلك سرورا بالغا وتمنى للخديو الخير وقال « انه طالما يظل الخديو مقيما على اخلاصه الذى أظهره للدولة العلية حتى الآن .. فانه سيجد الدولة العلية مساعدة ونصيره له على الدوام » (٢٥) .

ومع أن الأحوال فى مصر كانت غير مستقرة فانجلترا تمهد للتدخل العسكرى والخديو يشكو للسلطان من العرابيين ويطلب منه — عن طريق رسالة بعث بها الى ثابت باشا بالآستانة — ارسال قوات عسكرية تركية تقف أمامهم بقوله « وقد راح هؤلاء الضباط (يقصد العرابيين) يعملون للوصول الى أهدافهم بالتدريج كلما سنحت لهم الفرصة الى أن بلغوا حد السيطرة على جميع القوات العسكرية ، وهم الآن خارجون عن الطاعة كل الخروج وليس لهذا الوضع من علاج سوى أخذ هذه القوات العسكرية من أيديهم وردها الى القانون والنظام وهذا يحتاج الى قوة عسكرية تقف أمامهم » (٢٦) ولكن السلطان تردد فى ارسال جنود عثمانيين الى مصر خشية الصدام مع الدول الأوربية كما أن معظم المشايخ بالآستانة أوضحوا للسلطان بأن « ارسال عساكر المسلمين لقتال اخوانهم المسلمين يضر بمقام الخلافة » (٢٧) يضاف الى ذلك أن السيد احمد أسعد وهو من الشيوخ المقربين من السلطنة كان قد مدح عرابى أمام السلطان (٢٨) وذكره بأنه الرجل الذى يرجى منه الخير لمصر .

ولمعالجة الموقف استقر راى السلطان العثمانى على ارسال بعثة الى مصر بحجة اعادة الأمور فيها الى نصابها ، ومعالجة الأحوال على أساس الاستفادة من الخلاف بين الخديو والعرابيين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة فى مصر (٢٩) وفى الثامن من شهر يونية ١٨٨٢ عين السلطان مصطفى درويش باشا احد رجال الحاشية السلطانية مندوبا عثمانيا ساميا وعهد اليه برئاسة وفد مكون كما تذكر الوثائق التركية من « نجله وأربعة من الياوران وكاتبه الخاص ونحو تسعة من خدم المابين (٣٠) . ومجموع الذين سيأتون فى معيته حوالى ثلاثين نفرا ، وفوق ماتقدم سيكون فى رفقته حلمى بك مدير مكتب تلغراف المابين السلطانى ، وان الذين سيرافقونه من يعرف اللغة العربية » (٣١) وأمره بالسفر الى مصر ، وكانت خطة الوفد أن يتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو ، وأن يتعامل أسعد باشا احد اعضاء الوفد مع عرابى ويوضح له رضى السلطان عنه (٣٢) .

وصل درويش باشا والوفد المرافق له الى الاسكندرية يوم الاربعاء الموافق ٧ يونية ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطانى عز الدين (٣٣) فأرسل الخديو وفدا برياسة على ذو الفقار باشا لاستقباله على ظهر اليخت كما أرسل عرابى من طرفه يعقوب سامى باشا وكيل نظارة الجهادية لاستقبال الوفد ، ولكن الخديو اعترض على ذلك وابلغ محافظ الاسكندرية بعدم موافقته على اجراء اى شىء من رسوم الاستقبال من طرف العرابيين للبعثة ، ولكن يعقوب باشا لم يكترث بالأمر بحجة أنه موفد من طرف ناظر الجهادية لا يمنعه عن ذلك سوى اوامر منه (٣٤) وفعلا تم استحضار ثلاثة قوارب احداها لوكيلى الجهادية والبحرية والثانى لمحافظ الاسكندرية والثالث لمندوبى المعية ، وساروا سويا ولكن قارب الوكيلين سبق القاربين الآخرين ووصل قبلهما بمدة ربع ساعة تقريبا وعند وصولهما استقبلهما دولتلو درويش باشا بأعظم قبول واختلى بسعادة يعقوب باشا وتحدث معه مليا ، وبعدها وصل القاربان الآخران وكانت مقابلتهما اعتيادية ، ولما ركب ذو الدولة درويش باشا فى الزورق المعد لركوبه استصحب معه سعادة يعقوب باشا وكيل الجهادية فقط وترك الآخرين (٣٥) .

وفى اليوم التالى سافر درويش ووفده الى القاهرة فجمع مأمور

الضبطية بها بعض الأهالى ومررهم بالطريق الذى يمر منه درويش باشا « فأخذوا يرفعون أصواتهم بمدح أحمد عرابى وخفض شأن الخديو » (٣٦)

ولما ذهب درويش باشا الى سراى الاسماعيلية قابله الخديو بالترحاب (٣٧) ورد له الزيارة بسراى الجزيرة ، وهو المكان الذى أعد لاقامة الوفد (٣٨) كما حضر الى سراى الجزيرة بعض العلماء للترحيب بدرويش باشا وتحدث « الشيخ عليش والشيخ حسن العدوى وغيرهم من المنتمين الى عرابى عن مساوىء الخديو » (٣٩) .

لقد كانت خطة البعثة العثمانية التظاهر لكل من الخديو والعرابيين بأن السلطان معه ، وكان من مظاهر ذلك أن الوفد طلب نحو مائتى نيشان للضباط مكافأة لهم على اخلاصهم للسلطان كما طلب لعرابى النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ، ولكن بعد أن منح الخديو درويش باشا رشوة قيمتها خمسون الف جنيه بالاضافة الى هدايا قيمتها خمسة وعشرون الف جنيه (٤٠) انضم درويش علانية الى الخديو وظهر ذلك فى محاولاته المتكررة للتخلص من عرابى فطلب اليه أن يسافر الى الآستانة لشكر السلطان على منحه الوسام (٤١) وأن يترك له ديوان الجهادية وقد فطن عرابى الى العواقب المترتبة على تركه ديوان الجهادية والسفر الى الآستانة فقال له « خذ عليك عهده حفظ الأرواح وانشر ذلك فى الجرائد العربية والتركية والأفرنجية وأنا أتوجه الى الحضرة الملوكية » (٤٢) ولما تردد درويش باشا فى الأمر ذكر له عرابى بأن الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد (٤٣) وانه لايستطيع أمام الأزمة الراهنة التى نشأت من جراء عدوان الانجليز الذهاب الى أى مكان وانه سيعبر عن عرفانه للسلطان بالجميل برقيا (٤٤) .

ولما فشل درويش فى مبتغاه أعطى أوامر سرية لقبطان الباخرة التركية (عز الدين) التى أقلته الى مصر بالاستعداد للرحيل والاقلاع الى استنبول بمجرد صعود عرابى الى ظهرها ثم ذهب الى عرابى وأظهر له وده وطلب منه زيارة السفن المصرية الراسية فى الميناء وكذلك الباخرة التركية المذكورة ، ولكن عرابى أحس بالمؤامرة فذكر له انه ضابط مشاة ولا شأن له بالبحر ، وان من الأولى عدم اضاعة الوقت فى زيارة

السفن (٤٥) ولما احس رجال الثورة العرابية بميول درويش باشا العدائية تجاه الحركة الوطنيـــة أرسلوا عبد الله النديم الى الأزهر حيث عـــقد اجتماعا حضره حوالى أربعـــة آلاف شخص هاجم فيـــه البعثة التركية والخديو مما هز مركز درويش باشـــا ، وأصر المجتمعون على رحيله ولو رفض يقبض عليه ويرحل بالقوة (٤٦) .

اما عن موقف اسعد باشا عضو الوفد العثمانى والمــكلف بالتعامل مع عرابى فقد جمع توقيعات من الأهالى محررة ضـــد الخديو « ومختومة بالفى خاتم » (٤٧) .

استمر انحياز درويش باشا للخـــديو حتى بعـــد ضرب الاسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها عرابى الى احد اصـــدقاء السلطان يشكو من انحياز درويش باشا الى الخديو الذى انحـــاز الى الانجليز « مع انه كان من الواجب على دولته ذمة وديانه ان ينصح الخديو بان يتوجها معـــا الى العاصمة مقر الحكومة ليكونا خلف الجيش لا ان يتركا جيش الاسلام الشاهانى وينحازوا الى جيش العدو المحارب (٤٨) .

استمر طلب الخديو للجنود العثمانيين حتى بعد ضرب الاسكنـــدرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها الخديو الى ثابت باشا يقول فيها « وقد رفعت الى الحضرة السلطانية بوساطتكم كما كتبت المرة بعد المرة اصـــف الحالة وجميع مقاصدى منصبه على رفع الأذى عن هذه البلاد السلطانية وتوطيد الأمن فيها ... وهذا يتوقف على قدوم العساكر السلطانية (٤٩) .

ويهمنا هنا أن نذكر بأن كلا من بعثتى نظامى ودرويش لم تحضرا الى مصر بنيـــة خالصة بل حضرتا لاثبـــات سلطة تركيا فى مصر دون أن تعمل كلتاها اى عمل نافع لفض النزاع بين العرابيين والخـــديو أو لانقاذ مصر من مطامع انجلترا (٥٠) بل تركتا مصر اشـــد ارتبـــاكا واكثر اضطرابا عما كانت عليه ، ويكفى ان نذكر انه لم يكد يمضى على حضور درويش باشـــا الى مصر بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ ، وفى وجوده ايضا استمر الموقف فى التـــازم وضربت الاسكنـــدرية بمدافع الأسطول الانجليزى وقـــد زاد موقف تركيا تجـــاه القضـــية المصرية تخبطا

امتناعها فى بادىء الأمر عن الاشتراك فى مؤتمر الآستانة الذى عقد فى عاصمتها فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ بغرض المحافظة على الأوضاع الحالية فى مصر وتأييد سلطة الخديو ، وكان امتناعها مبنيا على أن هذه المسألة داخلية بحتة ليس للدول الأوربية شأن بها كما كانت تعتقد أن ايفادها درويش باشا الى مصر سيحل المسألة المصرية وأن التحقيقات التى سيجريها ستسوى الموقف مما يغنى عن عقد مؤتمر بشأنها ، ولما أدركت خطأها اشتركت فى المؤتمر آخر الأمر ورضيت بارسال جيش عثمانى الى مصر وفوضت درويش باشا قيادة العساكر العثمانية المقرر أرسالها الى مصر وأبلغت الخديو بذلك (٥١) ولكن فات الأوان بضرب انجلترا للاسكندرية بمدافع الأسطول وارسال قواتها لاحتلال مصر ، وبينما كان الانجليز يتقدمون فى داخل البلاد كانت المفاوضات مستمرة بين اللورد دفرين سفير انجلترا فى الآستانة والباب العالى للاتفاق على خطة ارسال الجيش العثمانى الى مصر وكانت انجلترا تقصد من هذه المفاوضات اطالة الوقت وتعطيل ارسال جيش من تركيا حتى تقمع الثورة فلا يبقى سبب لمجىء ذلك الجيش (٥٢) وفى غضون ذلك استطاعت انجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل سياسيا أيضا اذ استطاعت نتيجة للمحادثات المكثفة بينها وبين تركيا ، ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها فى الآستانة فى الضغط على السلطان (٥٣) فقد ربطت انجلترا موافقتها على ارسال عساكر عثمانية باصدار منشور يتضمن أن عرابى عاص وثائر وان الدولة العثمانية ملتزمة بالمحافظة على الخديو وعلى نفوذه وامتيازاته (٥٤) وقد أصدر السلطان هذا المنشور مما قلب ميزان الحماس الشعبى وأضاع التأييد الاسلامى والعربى للثورة (٥٥) وكان له أسوأ الأثر فى النفوس وقد نشر هذا الاعلان فى جريدة الجوائب(٥٦) كما أرسلت نسخة منه الى عرابى (٥٧) .

استغلت انجلترا هذا المنشور فى اضعاف الروح المعنوية لدى العرابيين فبادرت القوات الانجليزية باذاعة اعلان السلطان بعصيان عرابى أثناء زحفها مما أدى الى ايقاع الفرقة والانحلال فى صفوف العرابيين وأنصراف الناس عن تأييد عرابى فى القتال وخصوصا بعد أن تمكن أعوان الخديو وعلى رأسهم محمد سلطان باشا من توزيع

المنشور (٥٨) على الضباط والجنود الذين احسوا بصدمة عنيفة بعد الاطلاع عليه مما أثر فى روحهم المعنوية وضعفت حميتهم الدينية وسهل على الانجليز دخول مصر (٥٩) .

هذا عن الموقف الرسمى للدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية أما عن الموقف الشعبى داخل الآستانة — وخصوصا موقف رجال الدين — فكان فى معظمه بجانب عرابى فالشيخ على أفندى مدرس السلطان والحائز على رتبة الصدر (رتبة دينية) كان يشيد بعرابى ويثنى عليه ويقول عنه أنه « رجل عظيم متدين » (٦٠) والشيخ نجيب أفندى الحائز على رتبة (الصدر) أيضا كان من مؤيدى عرابى والمدافعين عنه لدى السلطان (٦١) كما كان بعض خطباء المساجد بالآستانة يدعون لعرابى على المنابر .

ومما سبق يتضح أن موقف الدولة العثمانية الرسمى تجاه الثورة العرابية ابتداء من بعثة نظامى باشا وحتى اعلان السلطان منشوره بعصيان عرابى كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها ، كما أن الدولة العثمانية حينما سنحت لها الفرصة بالتدخل المسلح فى مصر بعد استنجاد الخديو بها خشيت من رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا ازاء ذلك ، ولما ترددت تركيا فى نجدة الخديو عسكريا وتباطأت فى اتخاذ مواقف محددة طلب الخديو من الانجليز المعونة وكان له ما أراد مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر .

الحـــــواشى

(١) دار الوثائق القومية : محافظ أبحاث ــ المحفظة ١١٦ دوسيه ٢ « الثورة العرابية » ترجمة الدفتر ٢٨٧ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ١٢٩٨ هـ (١٨٨١م) » .

(٢) نفس المحفظة والدوسيه . برقية من الجناب المــالى الخديو الى الباب العالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٩٨ (٩ سبتمبر ١٨٨١) .

(٣) المصـــدر نفسه .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتــلال الانجليزى ، القاهرة ــ النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص١٦٦ .

(٥) محافظ أبحاث ــ المحفظة ١١٦ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية » .

(٦) يقصد جيمس سانوا (يعقوب صنوع) .

(٧) محافظ أبحاث ، المحفظة ١١٦ ترجمة الدفتر نمرة ٢٨٧ عابدين ــ البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ــ برقيـــة من الجنـــاب الخـــديو الى البـــاب العالى بتـــاريخ ١٧ شـــوال ١٢٩٨هـ (١١ سبتمبر ١٨٨١) .

(٨) البرقية السابقة الذكر .

(٩) دار الوثائق القومية . دفتر ٢٨٧ عابدين ــ صادر ٧ بتـــاريخ ٧ ذى القعدة ١٢٩٨ (٣٠ سبتمبر ١٨٨١) .

(10) Public Record office, F. O. 407/18 No. 45 Earl Cranville to the Earl of Dufferin, September 18, 1881 Telegraphic No. 436.

(١١) الوقائع المصرية : العدد ١٢٢٩ فى ٨ أكتوبر ١٨٨١ .

(١٢) عبر الرحمن الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٥ .

(١٣) عمل ثابت باشا مندوبا للخديو بالاستانة أثنـــاء قيـــام الثورة العرابية واستمر هنـــاك فى المـــدة من شهر ذى الحجة ١٢٩٨ الى صفر ١٢٩٩ وبعد عودته شغل عدة مناصب منها مهردار خديو ثم عين فىنظارتى الداخلية والأوقاف وبعدها شغل منصب رئيس ديوان الخـــديو ، أنظر : دار المحفوظات العمومية : أوراق ربط معاش سعادة محمد ثابت باشا ــ دولاب ٢٧ عين ٤ محفظة ٥٧٤ دوسيه ١٧٢٠٠ .

(١٤) محافظ أبحاث : المحفظة ١١٦ برقية من القبوكتخدا الى الخديو بتاريخ ٣ أكتوبر ١٨٨١ .

(١٥) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٧ .

(١٦) نفسه .

(١٧) المفيد : العدد ٣ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(١٨) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٧ .

(١٩) نفسه ص ١٦٨ .

(20) Blue Books, Egypt No. 3 (1882) No. 108 p. 66.

(٢١) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٧ .

(٢٢) نفسه ص ١٦٨ .

(٢٣) عن تفاصيل هذه المؤامرة أنظر :

أولا : دار الوثائق (أ) محافظ الثورة العرابيــة ــ محفظــة رقم ١٩ دوسيه ١١٠ .

(ب) سجلات الثورة العرابية ــ سجل رقم ٩٠ ص ١١ .

(جـ) محفوظات مجلس الوزراء ــ نظارة الداخلية محفظة رقم ٦ .

(د) محفظة ١١٦ أبحاث .

(هـ) محافظ مجلس النواب . محفظة رقم (١) .

ثانيا : دار المحفوظات (و) ملف خدمة عثمان رفقى ــ محفظة رقــم ٢٩٥ عين ١ دولاب ١٤ دوسيه رقم ٧٨٧٥ .

ثالثا : الجمعية التاريخية (ز)

Parliamentary Papers, Egypt No. 7 (1882).

تلغراف من مالت الى جرانفيل بتاريخ ١٢ أبريل١٨٨٢

رابعا : دار الــكتب المصرية (ح) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار ــ مخطوط ص ٢٥٦ .

وعن رد فعل الدول الأوربية تجاه عرض الخديو للمسألة على السلطان انظر : تيودور روشستين . تاريخ المسألة المصرية ص ١٧٣ــ١٧٤ .

(٢٤) دار الوثائق القومية : محفظة ١٦٣ عابدين ــ ملف ثابت باشا برقية من الخديو الى ثابت باشا فى ٣ مايو ١٨٨٢ .

(٢٥) محافظ أبحاث ، المحفظة ١١٦ ملف ثابت باشا ــ ترجمة خطاب من محمد ثابت باشا الى رئيس الديوان الخديو .

(٢٦) ملف ثابت باشا ، محفظة ١٦٣ عابدين ــ برقية من خديو مصر الى ثابت باشا بتاريخ ٢٧ جمادى الثانية ١٢٩٩ الموافق ١٦ مايو ١٨٨٢ .

(٢٧) ابراهيم المويلحى : ما هنالك . القاهرة ــ مطبعة المقطم ١٨٩٦ ص ١١٥ .

(٢٨) ابراهيم المويلحى : المرجع السابق الذكر ص ١١٥ .

(٢٩) محمود الخفيف : أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه . القاهرة ــ الطبعة الأولى ــ مطبعة الرسالة ١٩٤٧ ص ٢٢٢ .

(٣٠) المابين كلمة تطلق فى اللغة التركية على الحجرة التى لها بابان باب جهة الحرم وباب جهة الخدمة ثم اختصت هذه الكلمة بالسراى السلطانية ، ابراهيم المويلحى : ماهنالك ص ٢٤ .

(٣١) ملف ثابت باشا ــ محفظة ١٦٣ عابدين ــ ترجمة البرقية المؤرخة فى ١٧ رجب ١٢٩٩ المرسلة من ثابت باشا .

(٣٢) ابراهيم المويلحى : المرجع السابق الذكر ص ١١٦ .

(٣٣) الوقائع المصرية : العدد ١٤٢٨ فى ٨ يونية ١٨٨٢ .

(٣٤) محافظ الثورة العرابية ــ محفظة رقم ٨ ملف ٢٢٠ دوسيه ٥٣/د/٦ وثيقة تحت رقم ١١٢٨ .

(٣٥) نفس الوثيقة .

(٣٦) محافظ الثورة العرابية ــ محفظة رقم ١٩ دوسيه ١٧ ، وسجلات الثورةالعرابية ، سجل ٩١ ص١٩ تحت غنوان «ضبطيةمصر» .

(٣٧) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ٢٨٧ .

(٣٨) الوقائع المصرية فى ١٠ يونية ١٨٨٢ .

(٣٩) محافظ الثورة العرابية ، محفظة رقم ١٩ دوسيه ١٧ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٨٨ .

(41) F. O. 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(٤٢) د. محمد أحمد خلف الله : عبد الله النديم ومذكراته السياسية ص ٦٧ .

(٤٣) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ٢٨٨ .

(44) F. O, 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(45) F. O. 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(46) Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt, London p. 332.

(٤٧) ملف ثابت باشا المحفظة ١٦٣ ترجمة الوثيقة رقم ٨٢ المرسلة من ثابت باشا بالاستانة الى طلعت باشا بتاريخ ٧ يونية ١٨٨٢ .

(٤٨) محافظ الثورة العرابيــة ـــ محفظة رقم ٨ ملف ٢٢٠ دوسـيه ٥٣/د/٦ وثيقة رقم ١١٠٦ تحت عنوان صورة تلغراف من أحمد عرابى الى بسيم بك من قرناء الحضرة السلطانية الفخيمة بتاريخ ١٨ يوليو ١٨٨٢ .

(٤٩) ملف ثابت باشا ـــ محفظة ١٦٣ عابدين ـــ ارادة الى ثابتباشا بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٩٩ .

(٥٠) الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ٢٨٥ .

(٥١) ملف ثابت باشا . محفظة ١٦٣ عابدين . تلغراف من خديو مصر الى ثابت باشا .

(٥٢) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٢٦ .

(٥٣) محمد مهدى كركوكى : رحلة مصر والسودان ، القــاهرة ـــ مطبعة الهلال ١٩١٤ ص ٤٨٢ .

(٥٤) ملف ثابت باشا . محفظة ١٦٤ ترجمـــة خطاب من ثابت باشا الى رئيس ديوان الخديو فى ٢٣ شوال ١٢٩٩ .

(٥٥) يتضح من مذكرة كتبها درويش باشا أن انتصار عرابى معناه الحاق الضرر الشديد بسلطة الدولة العثمانية لأنه فى مثل هـــذه الظروف يمكن أن تنفصل بلاد العراق والحجاز والشام عن الدولة .

F. O. 407/22, Inclosure in No. 589, Memorandum by Dervish Pasha.

(٥٦) الجوانب العدد ١١٠٥ فى الثــلاثاء ٢٩ شـــوال ١٢٩٩ (١٥ سبتمبر ١٨٨٢) .

(٥٧) دار الوثائق : محافظ الثورة العرابية . محفظـــة رقم ٨ ملف ٥٣/د/٦ صورة تلغراف ورد من دولة سعيد باشا رئيس مجلس النظار وناظر خارجية الدولة العلية الى عرابى .

(٥٨) أحمد عرابى : المخطوط السابق الذكر ص ٣٠٩ .

(٥٩) محمد مهرى : المرجع السابق الذكر ص ٤٨٤ .

وقد شن جمال الدين الأفغانى أول هجوما له على الدولة العثمانية بعد اصدارها الفرمان الخاص باتهام عرابى بالعصيان فقال « على الدولة العثمانية أن تتذكر انه لولا فرمانها بعصيان عرابى لما سهل على الانجليز أن يدخلوا أرض مصر » .

جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى ص ٣٦٥ .

(٦٠) ملف ثابت باشا . محفظة ١٦٤ عابدين — خطاب من ثابت باشا بالاستانة الى ديوان الخديو بمصر . بتاريخ ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٦١) نفس الوثيقة .

٧

علاقات مصر الاقتصادية مع فلسطين

« الاتفاقات الجمركية »

١٨٩٠ ــ ١٩٣٦

د. عبـــد الله عزباوى

مدرس التاريخ الحديث بكلية التربية بالفيوم

جامعة القاهرة

خضعت مصر وفلسطين للحكم العثمانى منـــذ اوائل القرن السادس عشر ، حينما فتح السلطان سليم ســـوريا فى عام ١٥١٦ ومصر فى عام ١٥١٧ . ذلك ان فلسطين لم تشكل فى اثنـــاء الحكم العثمانى وحـــدة ادارية خاصـــة ، بل كانت موزعة على عدة وحـــدات ادارية عثمانيـــة تشمل الجزء الجنوبى من ســـوريا (١) . ولم يبرز الـــكيان الســـياسى لفلسطين كوحدة قائمة بذاتها الا بعد تقسيم الولايات العربية التابعة للحكم العثمانى الى مناطق نفوذ بين فرنسا وبريطانيا بموجب اتفاقية « سايكس ــ بيكو » عام ١٩١٦ ، وبعد ذلك عينت الحدود الاقليمية فى معاهـــدات مابعد الحرب (٢) .

وفى ظل الحكم العثمـــانى ، كانت البضـــائع المتبـــادلة بين أجزاء الامبراطورية العثمانية لا يدفع عنها رســـوم جمركية (٣) . وبالتالى فانه لم تكن هنـــاك حواجز جمركية بين مصر وفلسطين فى اثنـــاء خضـــوعهما للحكم العثمانى .

اما بالنسبة لعـــلاقات البلدين مع الدول الأجنبية ، فقد كانت خاضعة لأحكام المعاهدات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية ، فقـــد كانت هذه المعاهدات تشترط ان تسرى على جميع جهـــات الامبراطورية

العثمانية ـ ومن بينها مصر وفلسطين ـ كما كانت تنص على مراعاة مبدأ الدولة الأكثر رعاية . وان كانت كل دولة فى آخر الأمر تمسكت بالحقوق التى كسبتها الدول الأخرى التى سبقتها ، حتى اصبحت هذه الامتيازات التجارية عبئا على ادارة الجمارك العثمانية ، وعلى تجارة الصادرات التركية (٤) وبالتالى تجارة الصادرات المصرية والفلسطينية .

وكانت المعاهدات التى تعقد بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، تنص على النسبة المئوية التى تجبى على البضائع . وقد الحقت بهذه المعاهدات التعاريف الجمركية ، وهى قوائم يبين فيها أنواع البضائع وأثمانها فى جميع الدول . وبمقتضى هذه التعريفات تحصل الرسوم الجمركية . وقد أعتيد تغيير هذه التعريفات كل سبع سنوات ، وقد يستمر العمل بها دون تغيير مع بقاء المعاهدات قائمة (٥) .

وبمقتضى هذه المعاهدات التى بين الدولة العثمانية والدول الأوربية والتى كانت تعطى الأجانب امتيازات ، كان الأجانب المقيمون فى الدولة العثمانية والمتمتعون بتلك الامتيازات يدفعون ضريبة على الواردات مقدارها ٣٪ ، بينما يدفع المسلمون ٤٪ والذميون ٥٪ أما الصادرات فكان الأجانب يدفعون عنها ٣٪ أيضا (٦) .

وقد حاول محمد على فى مصر فى عام ١٨٢٠ زيادة الرسوم الجمركية على الواردات الأجنبية من أجل حماية الصناعات الوطنية الناشئة (٧) . الا أن السلطان العثمانى اصدر اليه فرمانا بوجوب تطبيق المعاهدات الدولية التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية والتى تنص على حق التجار الأجانب فى استيراد السلع فى جميع انحاء الامبراطورية ـ ومن بينها مصر مقابل دفع رسم قدره ٣٪ من قيمتها ، وقد ترتب على ذلك أن حكومة محمد على لم تتمكن ن احتكار تجارة الوارد ، بالرغم من انها كانت أكبر مستورد فى مصر ، لكثرة ما كانت تستورده لسد احتياجات مصانعها وبناء السفن ومنشئات الرى (٨) . فقد كان محمد على يتحكم فى نحو ثلث الواردات وقد بلغ ما استوردته الحكومة المصرية لحسابها فى عام ١٨٣٦ ، ٤٠٪ من جملة الواردات (٩) .

واستمرت الرسوم التى تجبيها الدولة العثمانيــة على الواردات ، والتى لا تزيد عن ٣٪ قائمة حتى عام ١٨٣٨ حين عقدت فرنسا مع الدولة العثمانية معاهدة تجارية اشتملت على التوسع فى معاونة التجار الفرنسيين وشركاتهم وما الى ذلك ، وتحصيل رسم على الواردات قــدره ٥٪ من قيمتها وعلى الصادرات ١٢٪ من قيمتها و٥٪ رسم مرور « ترانسيت » ، على أن تعدل هذه التعريفات مرة فى كل سبع سنوات (١٠) .

وفى نفس العام عقدت بريطانيا مع الدولة العثمانية معاهدة « بلطة ليمان » التجارية التى تقضى بمعاملة بريطانيــا معاملة الدولة المفضلة ، فتدفع الرسوم التى يدفعها غيرها اذا كانت أقل مما فرضته المعاهــدة ، والغــاء الاحتكار ، واقرار حرية التجارة ، وفرض ضريبة قــدرها ١٢٪ على الصادرات و٥٪ على الواردات (١١) .

وهكذا بمقتضى هاتين الاتفاقيتين السابقتين التى عقــدتهما الــدولة العثمانية معاهدة تجارية اشتملت على التوسع فى معاونة التجار الفرنسيين البضائع الأجنبية فى جميع أنحاء الامبراطورية ــ ومنها مصر وفلسطين ــ ٥٪ حسب قيمتها ، ورسم الصــادر ١٢٪ حسب قيمتها . ولا شك أن ذلك كان غبنا للتجارة المصرية والفلسطينية ورواجا للتجارة الأوربية (١٢) .

وعلى حين أن الادارة العثمانية فى فلسطين قــد نفذت معاهــدة بلطة ليمان ، فان محمد على فى مصر لم ينفذ هذه المعاهدة ، خاصة وانه قــد قامت فى ذلك الوقت حرب الشام الثالثة بينه وبين السلطان ، فظلت المعاهدة غير نافذة وكثرت شكاوى التجار حتى بعد انتهاء الحرب (١٣) .

وبعد تسوية النزاع بين محمد على والسلطان ، طبقا لمعاهدة لندن « ١٥ يولية ١٨٤٠ » والخط الشريف الذى وقعــه السلطان فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ، وفرمان أول يونية ١٨٤١ . فقد ربطت التسوية مصر بالامبراطورية العثمانية من جديد ، وبالرغم من أنها قــد ميزتها عن الولايات العثمانيــة الأخرى بأن جعلت الحكم وراثيا فى أسرة محمد على طبقا لقاعدة الأرشد فالأرشد (١٤) الا أنها لم تمنح مصر أى امتياز يعفى من سريان أحكام الاتفاقات العثمانية عليها (١٥) . وبذلك أصبحت أحكام معاهدة بلطة ليمان ســارية على مصر .

واستمرت مصر وفلسطين فى تنفيذ تلك السياسة الجمركية بمقتضى معاهدة بلطة ليمان حتى عقدت الدولة العثمانية فى ٢٩ ابريل ١٨٦١ معاهدة تجارية مع انجلترا ثم مع عدد كبير من الدول الأوربية مثل فرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولندا والبرتغال واسبانيا (١٦) وروسيا والسويد والولايات المتحدة ، وفيها حددت الرسوم الجمركية على الصادرات بواقع ٨٪ من قيمتها على أن يخفض هذا الرسم ١٪ كل سنة حتى يصل الى ١٪ وعندئذ تصبح الرسوم الجمركية على الصادرات بواقع ١٪ من قيمتها . أما الواردات فقد حددت الرسوم الجمركية عليها بواقع ٨٪ من قيمتها ، وفى حالة الاختلاف فى تقدير القيمة يؤخذ الرسم على الواردات عينا (١٧) .

وفى ١٩ يونية ١٨٧٣ وبمقتضى الفرمان الشامل ، حصلت مصر على حق عقد اتفاقات جمركية ومعاهدات تجارية (١٨) دون تعد على معاهدات الباب العالى السياسية (١٩) وأن لاتخرج هذه المعاهدات فى احكامها عما يكون سارياً فى سائر الدولة العثمانية (٢٠) .

ورغم حصول مصر على هذا الحق فان الحكومة المصرية ، لم تستطع ان تخرج به الى حيز التنفيذ ، لأن الدول الأوربية لم تكن بحاجة الى عقد اتفاقات خاصة مع الحكومة المصرية فى هذا الصدد لأنها كانت تتمتع فعلا فى مصر بمثل ما تتمتع به فى أىجزء آخر من أجزاء الامبراطورية العثمانية ، من حيث الأوضاع الجمركية ، ولأن الحكومة المصرية لم تكن لتستطيع ان تعطى اكثر ولا اقل مما يكون معمولا به فى بقية أنحاء الدولة العثمانية (٢١) .

ولم تستطع مصر ان تمارس حقها فى عقد الاتفاقات الجمركية مع الدول الأجنبية الا فى عام ١٨٨٤ حينما عقدت مصر مع اليونان اتفاقية جمركية (٢٢) ولم يخرج هذا الاتفاق التجارى مع اليونان عن أحكام معاهدة ١٨٦١ الا من حيث الرسوم الجمركية (٢٣) فقد استمر رسم الصادر عبارة عن ١٪ من قيمة السلع المصدرة ورسم الوارد ٨٪ من قيمة البضائع بوجه عام . الا أن الحكومة المصرية احتفظت لنفسها بحق زيادة الرسم الى ١٦٪ على المواد الكمالية والأنبذة والخمور (٢٤) .

وبعقد مصر الاتفـاق الجمركي مع اليونان في عام ١٨٨٤ ، بـدأت تمارس سياسة جمركية منفصلة عن الدولة العثمانية ، على حين استمرت الادارة العثمانية فى فلسطين مثل غيرها من ولايات الدولة الأخرى مرتبطة بالسياسة الجمركية التى تنتهجها الدولة العثمانيـة . وأن استمرت مصر وفلسطين لاتفرضان رسوما جمركية على البضائع المتبادلة بينهما .

وعلى حين عقدت اليونان الاتفاق الجمركى مع مصر عام ١٨٨٤ ، فان الدول الأوربيـة الأخرى ، فضلت التمتع بنصوص معاهـدة ١٨٦١ والتى ينتهى أجلها فى سنة ١٨٨٩ (٢٥) .

وبانتهاء أجل معاهدة ١٨٦١ فى عام ١٨٨٩ بدأت الدول الأوربية فى عقد المعاهدات التجارية مع مصر ، والتعامل بلائحـة الجمـارك المصرية مقابل منحها معاملة الدولة الأولى بالرعاية وكانت انجلترا أولى الدول التى عقدت مع مصر اتفاقا تجاريا بهذا الشأن فى عام ١٨٨٩ (٣٦) . وتبعتها فى ذلك الدول الأوربية الأخرى صاحبة الامتيازات فيما عدا الدنمرك (٣٧) . وكانت ايطاليا آخر دولة تعقد اتفاقية مع مصر فى فبراير سنة١٩٠٩ حيث ينتهى أجلها فى ١٥ فبراير ١٩٣٠ (٢٨) .

وجاءت هذه الاتفاقات على وتيرة الاتفـاق المصرى اليونانى فى عام ١٨٨٤ أى بواقع ٨٪ من قيمة السلع المستوردة و ١ ٪ على جميع السلع المصـدرة (٢٩) .

الاتفاقيـة الجمركية بين مصر والدولة العثمانية فى عام ١٨٩٠

ظلت البضائع المتبادلة بين مصر وفلسطين لا يحصل عليها رسـوم جمركية حتى عام١٨٩٠ حين عقدت ادارة الجمارك المصرية وادارة الجمارك العثمانية اتفاقية تجارية بشأن تنظيم التجارة بين مصر والدولة العثمانيـة بما فيها ولاياتها التابعة (٣٠) .

وأهم ما اشـتمل عليـه هـذا الاتفـاق هو فرض نسبة ٨٪ على الواردات بين البلدين ، على أن لا تسرى أحكام هذا الاتفاق على الدخان

والتمبــاك والملح والنطرون والحشيش والبــــارود والأسلحـــة والمواد الممنوعة (٣١) .

وكان قد اتفق على أن يبدأ العمل بتنفيذ هذه الاتفاقية فى ١٣ أكتوبر ١٨٩٠ ، ونظرا لتــأخر توقيعها فى الآستانة الى ١٨ ديسمبر ١٨٩٠ (٣٢) فقد تم الاتفاق على أن يبـــدأ العمل بتنفيـــذ أحكام هـــذه الاتفاقيـــة فى أول يناير ١٨٩١ (٣٣) .

ويلاحظ على هذه الاتفاقية أنها لم تأخذ طابع الاتفاقات الدولية حيث انها اتفاقية بين ادارتين جمركيتين همـــا ادارة الجمارك العثمانية وادارة الجمارك المصرية (٣٤) ويرجع ذلك الى أن مصر كانت فى ذلك الوقت رغم وقوعها تحت الاحتلال البريطانى ، تابعـــة من الوجهـــة الرسمية للدولة للدولة العثمانية ، ولا يعقل أن تعقد معاهدة دوليـــة بين دولة واحـــدى ولاياتها التابعة لها .

كذلك لم تتضمن هذه الاتفاقية تحديدا لمدتها ولا كيفية انهائها أو تعديل احكامها (٣٥) كما هو معمول به فى مثل هذه الاتفاقات الجمركية .

ولـــكن اذا كانت مصر رغم وقوعها تحت الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ ، خاضعة من الوجهة الرسمية للدولة العثمانية وتابعة لها ، فلماذا لجأت الدولة العثمانية الى عقد هـــذه الاتفاقية أو تنظيم عملية التبـــادل التجارى مع مصر ، وهى احدى ولاياتها ؟

والواقع أن الاجابة على هذا السؤال مازالت محيرة ، ربما يكون الدافع الى ذلك هو تخوف الدولة العثمانية من أن تضع بريطانيـــا العراقيل فى وجه التجارة العثمانية اذا ما استمرت فى احتلالها لمصر ، بحجة عدم وجود اتفاق تجارى بين البلدين ، فأرادت بذلك أن تســـد الطريق أمام ادعاءات بريطانيا بهذا الخصوص اذا حاولت اثارتها فى المستقبل .

وربما لجأت الدولة العثمانية الى عقد هذه الاتفاقيـــة مع مصر حتى تفوت على انجلترا فرصة اعادة تصـــدير البضائع الانجليزية من مصر الى انحاء الامبراطورية العثمانية دون أن تدفع رسوما جمركية عليها ، بحجة

ان ذلك ماهو الا تبادل تجارى بين جزء من الامبراطورية العثمانية وبقية أجزاء الامبراطورية ، ولا يجوز دفع رسوم جمركية عليه .

وبعقد الاتفاقية الجمركية بين مصر والدولة العثمانية عام ١٨٩٠ اصبح رسم الواردات على البضائع بين مصر وفلسطين ٨٪ حسب القيمة .

ولم تكن التجارة بين مصر وفلسطين منذ الفتح العثمانى ذات حجم كبير لكون البلدين زراعيين ، ولتشابه التجارة ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه التجارة بين سوريا وفلسطين متقدمة عن التجارة بين مصر وفلسطين (٣٦) .

وكانت اهم واردات مصر من فلسطين ، الماشية والجمال والخيول والصابون والفواكه وأهمها العنب واللوز والبرتقال . أما صادرات مصر الى فلسطين فكانت ، الأسماك الطازجة ومنتجات الألبان والبيض والبصل والأرز ومنتجات تقطير البترول ، والجلود والمطبوعات (٣٧) والقطن والمنسوجات القطنية والكتان والبصل والخضر الطازجة ، وبعض أصناف الفاكهة (٣٨) .

وقد ظلت الرسوم الجمركية بين مصر وفلسطين على ماهى عليه وفق اتفاقية ١٨٩٠ بين مصر وتركيا ، على الرغم من نجاح الباب العالى فى عام ١٩٠٥ من اضافة ٣٪ على رسم الواردات بعد موافقة الدول العظمى بحيث أصبح الرسوم على الواردات فى جميع انحاء الامبراطورية العثمانية بما فيها فلسطين (٣٩) .

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى تشجعت الدولة العثمانية بعد تنازل المانيا والنمسا عن امتيازاتهما بعد اعلان الحرب تأكيدا لحسن نواياهما نحو تركيا ، فسارعت الى الغاء جميع الامتيازات الأجنبية فى أراضيها فأصبحت الرسوم ١٥٪ ثم ٣٠٪ فى عام ١٩١٥ (٤٠) وبالرغم من ذلك استمر لمصر وضع خاص فى معاملاتها مع تركيا ومن ثم مع فلسطين ، فقد ظل رسم الواردات بينهما ٨٪ حسب القيمة .

وفى عام ١٩١٧ احتلت القوات الانجليزية فلسطين ، وتأسست بها ادارة عسكرية على اعتبار انها المنطقة الجنوبية من بلاد العدو المحتلة (٤١) وقد اعادت هذه الادارة العسكرية بعد انتهاء الحرب ، نظام الجمارك الذى كان متبعا قبل الحرب فى الدولة العثمانية والذى كان ينص على فرض رسم الواردات قدره ١١٪ حسب القيمة . كما ابقت على الوضع الخاص بالتجارة بين مصر وتركيا (٤٢) . والذى يقضي بفرض رسم على الواردات فى مصر قدره ٨٪ حسب القيمة .

الانتداب البريطانى على فلسطين
والغاء الوضع الخاص لمصر فى اغسطس ١٩٢٤

استمرت الادارة العسكرية البريطانية فى فلسطين منذ ١٩١٧ وحتى ١٩٢٠ ، بعد أن اقر مؤتمر سان ريمو فى ٢٤ ابريل ١٩٢٠ الانتداب البريطانى على فلسطين (٤٣) وقد رات الحكومة البريطانية بعد ان كلفت بالانتداب على فلسطين أن تستبدل بالادارة العسكرية البريطانية التى طال عليها الأمر بادارة مدنية (٤٤) تحت اشراف وزارة المستعمرات البريطانية . ولذا فقد احلت فى أول يوليو ١٩٢٠ حكومة مدنية محل الادارة العسكرية (٤٥) .

وقد لعبت الحركة الصهيونية دورا كبيرا فى الضغط على الحكومة البريطانية لنقل الادارة العسكرية فى فلسطين الى ادارة مدنية (٤٦) بحجة ان الادارة العسكرية متحيزة الى جانب العرب ومعادية للحركة الصهيونية (٤٧) .

وكان السر هربرت صمويل أول حاكم مدنى لفلسطين ، وكان يسمى المندوب السامى (٤٨) وكان هربرت صمويل قد أرسل الى فلسطين فى عام ١٩٢٠ كمستشار للشئون المالية والاقتصادية . وعندما استبدل الحكم العسكرى القائم فى فلسطين بادارة مدنية عين مندوبا ساميا . وقد حكم البلاد قرابة خمس سنوات ، وكان يهوديا صهيونيا واحد كبار رجال حزب الأحرار واحد صائغى تصريح بالفور واحد اعضاء وزارة الحربالبريطانية التى أصدرت هذا التصريح (٤٩) .

ولما كان الهدف الاساسى من تعيين هربرت صمويل مندوبا ساميا على فلسطين هو انشاء الوطن القومى اليهودى وارساء قواعد الدولة اليهودة (٥٠) . فقد بذل هربرت صمويل جهده لتحقيق هذا الهدف ،وكانت أهم النواحى التى اهتم بها هو زيادة دخل الدولة عن طريق الرسوم الجمركية . ولما كانت مصر هى الدولة الوحيدة التى تتمتع بامتياز خاص فى هذا المجال كما سبق أن أوضحنا . حيث كان يفرض ٨٪ علىالواردات المصرية حسب القيمة ، فقد رأت الادارة البريطانية فى فلسطين فى عام ١٩٢٣ يساندها هربرت صمويل الغاء هذا الامتياز الذى تتمتع به مصر ، وضرورة مساواة الواردات المصرية مع واردات الدول الأخرى ، اى رفع رسم الواردات على البضائع المصرية من ٨٪ الى ١١٪ مثل غيرها من من الدول الأخرى (٥١) وذلك بحجة أن الظروف التى تمت فيها عقد اتفاقية ١٨٩٠ بين مصر وتركيا لم يعد لها وجود (٥٢) حيث خرجت فلسطين من اطار الامبراطورية العثمانية وأصبحت تحت الانتداب البريطانى منذ عام ١٩٢٠ ، وبالتالى فانه لاينسحب عليها اتفاق ١٨٩٠ الذى كان ينص على فرض رسم قدره ٨٪ حسب القيمة على الواردات بين مصر وجميع أنحاء الامبراطورية العثمانية .

وأرسل هربرت صمويل الى وزارة المستعمرات البريطانية يعرض عليها الأمر (٥٣) ، وأرسلت وزارة المستعمرات بالتالى تستشير المندوب السامى فى مصر (٥٤) ووزارة الخارجية البريطانية ومجلس التجارة البريطانى تطلب منهم رأيهم فى هذا الموضوع (٥٥) .

وقد ردت دار المندوب السامى بالقاهرة على لسان مستر سكوت Scott المستشار القضائى بدار المندوب السامى بالقاهرة ، على وزارة المستعمرات بأنها لا ترى سببا معقولا لعدم اصدار ادارة الجمارك الفلسطينية بيانا تذكر فيه بأن اتفاقية ١٨٩٠ بين مصر والدولة العثمانية غير مناسبة فى ذلك الوقت بين مصر وفلسطين ، وأن من حق ادارة الجمارك الفلسطينية رفع رسم الواردات على البضائع الآتية من مصر من ٨٪ الى ١١٪ وانه ليس هناك ضرورة لمناقشة الحكومة المصرية فى هذا الموضوع (٥٦) .

كذلك وافقت وزارة الخارجية البريطانية ومجلس التجارة البريطانى على اقتراح هربرت صمويل برفع رسم الواردات على السلع الآتيــة من مصر من ٨٪ الى ١١٪ مثل غيرها من الدول الأخرى . وعنــدئذ ارسلت وزارة المستعمرات الى هربرت صمويل بموافقتها على اقتراحه الســابق مع مراعاة أن يتم ذلك عن طريق بيـــان عام يشتمل على تفصيلات الرسوم الجمركية الجديدة (٥٧) ».

وبناء على ذلك ألغت حكومة الانتداب فى فلسطين المعاملة الخاصة التى كانت تتمتع بها البضائع المصرية(٥٨) عندما أصدرت فى ١٥ أغسطس ١٩٢٤ قانون الرسوم الجمركية . وقد عادت هذه السياسة الجمركية التى اتبعتها حكومة الانتداب فى فلسطين بنتائج وخيمــة على السكان العرب بفلسطين لأن فرض ضرائب جمركية عالية على الواردات أدى الى ارتفاع ثمن المواد التى يستهلكها العرب وهم ليسوا من الأغنياء ومصلحتهم تدعو لأن يستفيدوا من رخص الأسعار بكافة الطرق (٥٩) .

كما قد ادت هذه السياسة الجمركية الجــديدة التى اتبعتها حكومة الانتداب بفلسطين الى ميل الميزان التجارى لصالح فلسطين (٦٠) .

قانون التعريفــة الجمركية فى مصر ١٩٣٠

وأثره على العــلاقات الاقتصــادية بين البــلدين

ظل الميزان التجارى بين مصر وفلسطين منذ عام ١٩٢٤ لصالح فلسطين حتى عام ١٩٣٠ ، حين أصدرت الحكومة المصرية قانون التعريفة الجمركية فى ١٤ فبراير ١٩٣٠ الذى أصبح سارى المفعول منذ ١٦ فبراير ١٩٣٠ (٦١)

وكانت الحكومة المصرية قــد أبدت رغبتها فى عام ١٩٢٣ ، بعــد حصولها على شىء من الــكيان السياسى كدولة ذات سيادة ، فى زيادة الرسوم الجمركية على الواردات من ٨٪ الى ١٥٪ فى مقــابل تعهدها للدول المتعاقدة معها بعدم زيادتها عن ذلك قبل عام ١٩٤٠ . وقد دخلت مصر فى مفاوضات لهذا الغرض مع الممثلين السياسيين لبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا ، وهى الدول التى كانت الاتفاقات المبرمة معها مازالت

سارية . الا أن هؤلاء الممثلين صرحوا بأن حكوماتهم غير مستعدة لقبول أى رسم يزيد عن ١٢٪ (٦٢) وعندما رأت الحكومة المصرية أن هذا الاتفاق سيحد من حريتها عشر سنوات مقابل فائدة ضئيلة ، قررت الانتظار الى أن تنتهى الاتفاقات القائمة التى كان آخرها الاتفاق الايطالى الذى ينتهى فى ١٥ فبراير ١٩٣٠ (٦٣) .

وفى عام ١٩٢٧ استقدمت الحكومة المصرية ثلاثة من الخبراء الجمركيين وكلفتهم بوضع تعريفة جمركية نموذجية على أحدث الأساليب الحديثة . وقد وضع هؤلاء الخبراء الجمركيون مشروع التعريفة الجمركية مسترشدين بالتعريفة الجمركية التى سبق أن وضعتها عصبة الأمم لتكون نموذجا للدول . وفى ١٤ فبراير ١٩٣٠ كانت هذه التعريفة معدة وصدر بها القانون رقم ٢ لسنة ١٩٣٠ ، وأصبحت سارية المفعول فور انتهاء أجل الاتفاق الايطالى فى ١٥ فبراير ١٩٣٠ (٦٤) .

وكان مما جاء فى هذا القانون فرض ضريبة على الواردات من الأرز والفاكهة والزيوت والصابون قدرها ١٥٪ (٦٥) وقد أدى ذلك الى هبوط واردات مصر من هذه السلع فقد نقصت جملة واردات مصر من الفاكهة من جميع أنحاء العالم بما قيمته ٦٤٣ر٨٣٧ جنيهـا فى عام ١٩٣٠ الى ٣٠٥ر٢٥٢ جنيها فى عام ١٩٣٤ ، أى الى ما يقرب من النصف ، وكان ذلك نتيجة زيادة الانتاج المحلى من الفاكهة ، فقد زادت المساحة المنزرعة فاكهة فى عام١٩٣٠ من٣٣٫٠٤٧ فدانا الى ٥١٫٠٥٣ فدانا فى عام ١٩٣٤، وكانت الزيادة بصفة خاصة فى الأصناف التى كانت تستوردها مصر من فلسطين وهى البرتقال والبطيخ . فقد زادت المساحة المزرعة برتقالا من ١٢٨٦ فدانا عام ١٩٣٠ الى ٢٢٠٧١ فدانا عام ١٩٣٤ .. كما زادت المساحة المنزرعة بطيخا من ٣١٢٤٤ فدانا عام ١٩٣٠ الى ٤٥٢٥٦فدانا عام ١٩٣٤ . كذلك زادت كميات الصابون التى تنتجها المصابن المحلية زيادة كبيرة (٦٦) .

وقد صاحب هبوط واردات مصر من السلع السابقة بصفة عامة الى هبوط واردات مصر من هذه السلع من فلسطين بوجه خاص فقد هبطت

وأردات مصر من الصابون الفلسطيني ماقيمته ٢٧٦ ألف جنيه عام ١٩٢٥ (٦٧) الى ماقيمته ٧٠٠ر٤٤ جنيه عام (٦٨) .

أما الفواكه ، فقد بلغت قيمة واردات مصر من البرتقال الفلسطيني ٧٦ ألف جنيه في عام ١٩٢٤ (٦٩) ثم هبطت في عام ١٩٢٧ الى ما قيمته ٤٥ الف جنيه عام ١٩٢٧ (٧٠) أما بعد عام ١٩٣٠ فان ما كانت تستورده مصر منه فقد نقص الى كمية لا تذكر (٧١) .

أما واردات مصر من البطيخ الفلسطيني فقد كانت في عام ١٩٢٥ ماقيمته ٦٨ الف جنيه (٧٢) وفي عام ١٩٢٦ ماقيمته ٩٦ الف جنيه (٧٣) هبطت في عام ١٩٣٣ الى ماقيمته ٢٠ الف جنيه فقط (٧٤) .

وأدى هبوط واردات مصر من فلسطين الى ميل الميزان التجاري لصالح مصر فقد بلغت جملة صادرات مصر الى فلسطين في عام ١٩٣٥ ماقيمته نصف مليون ، على حين بلغت جملة صادرات فلسطين الى مصر ماقيمته ٧٥ الف جنيه فقط (٧٥) . وأصبحت مصر في مقدمة الأقطار الموردة لفلسطين تليها بريطانيا وذلك على الرغم من أن الميزان التجاري بين بريطانيا وفلسطين كان في ذلك الوقت لصالح فلسطن (٧٦) .

وقد أدى هبوط واردات مصر من فلسطين الى الاضرار بمصالح عرب فلسطين الاقتصادية ذلك أن مصانع الصابون في فلسطين كانت في ذلك الوقت في يد العرب (٧٧) كما كانت ٩٠٪ من تجارة زيت الزيتون بأيديهم أيضا (٧٨) . وأدى هبوط واردات مصر من الصابون الفلسطيني الى انخفاض أسعار زيت الزيتون في فلسطين بعد عام ١٩٣٠ (٧٩) مما أدى الى الاضرار بمصالح العرب أصحاب هذه المصانع في فلسطين (٨٠) .

كما ادى هبوط واردات مصر من فلسطين وخاصة من البرتقال والبطيخ بعد عام ١٩٣٠ الى الاضرار بمصالح عرب فلسطين الاقتصادية (٨١) الذي كان يعتمد غالبيتهم على الزراعة (٨٢) وتصدير الحاصلات الزراعية. وعلى سبيل المثال فان ما كان يربحه قضاء طولكرم (٨٣) سنويا من تصدير البطيخ الى مصر كان يقدر بنحو ١٢٠ الف جنيه وقد ذكرت الأهرام ، في ١١ يونية ١٩٣١ . انه اذا ظلت أبواب مصر مقفلة دونه وبيع محليا

فأن أسعاره لاتوازى أجور نقله من الحقول الى المدن والقرى (٨٤) وقـد أدى عدم شراء مصر لبطيخ طولكرم الى توقف الأعمال فى هذا القضاءالتى لها صلة بتجارة هـذا الصنف وزراعته ، وتأخر تجار البطيخ عن السفر الى مصر وعن أخذ سلفيات لشحن كميات من البطيخ . ولذا فقد سـافر بعض زعماء هذا القضاء الىحيفا لحث الهيئات الوطنية علىتقديم التقارير اللازمة من جهتهم (٨٥) لحكومة فلسطين .

كذلك عمد عرب فلسطين لمقابلة قنصل مصر بالقدس وشكوا اليـه زيادة الضرائب الجمركية المصرية على انتاجهم من البطيخ وما تسببه لهم هذه الزيادة من خسائر فادحة لأن غالبية عرب فلسـطين يعيشون على انتاج محاصيلهم الزراعية ، وان محصول البطيخ الفلسطينى مخالف فى موسمه لمحصول نظيره المصرى (٨٦) .

كما عقد عرب فلسطين فى ٨ أكتوبر ١٩٣١ ، اجتماعا فى دار اللجنة التنفيذية العربية فى القدس شهده موسى كاظم الحسينى رئيس اللجنـة وعدد من الأعضاء جاء ضمن قراراته استنكار كل محاولة تقوم بها الحكومة بفلسطين لوضع حواجز جمركية بين فلسطين والأقطار العربية الأخرى (٨٧) اعتقادا منهم بأن المصاعب الاقتصـادية التى تواجههم وقتئـذ ناتجة عن السياسة الجمركية التعسفيـة التى جرت عليها الادارة البريطانيـة فى فلسطين ضد جاراتها وخاصة مصر ، التى قابلت هذ الاجراءات باجراءات أخرى مضادة وكان العرب فى فلسطين هم الخاسرون .

ورفع عرب فلسطين فى قضاء نابلس فى أبريل ١٩٣٥ عريضةلحاكم القضـاء لعرضـها على المندوب السامى البريطانى أو مدير الزراعة فى فلسطين ، من أجل حل أزمة انخفاض أسـعار زيت الزيتون والتى كانت الضرائب الجمركية العالية التى فرضتها الحكومة المصرية على الصابون الفلسطينى من أهم أسبابها (٨٨) .

كما توجه بعض أعيان فلسطين الى مصر لمقابلة اسماعيل صـدقى أثناء وزارته لمناقشته فى أمر الرسـوم الجمركيـة المصرية على البطيخ الفلسطينى وغيره ، والتى أدت الى الاضرار بمصالح الفلسطينيين ، وقد

اجابهم صدقى بأن مصر تزرع البطيخ وأن مساحته قد زادت الى نحو عشرين الف فدان بفضل رفع الرسوم الجمركية على استيراده وأنه مع إعترافه بجودة البطيخ الفلسطينى عن مثيله المصرى فان الذى يريد أن يتمتع به فى مصر عليه أن يدفع ثمنه الغالى بعد زيادة الرسوم الجمركية عليه (٨٩) .

كذلك طالبت مجلة الاقتصاديات العربية التى تصدر بالقدس بعودة الحرية الاقتصادية بين مصر وفلسطين والغاء الحواجز الجمركية بينهما ، والقت باللوم بصفة خاصة على قانون التعريفة الجمركية الذى أصدرته مصر فى عام ١٩٣٠ ، ففى مقال لها بعنوان « الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين » قالت المجلة ان تلك السياسة الجمركية الجائرة — تقصد به قانون التعريفة الجمركية المصرى الصادر فى سنة ١٩٣٠ — لم تكن فى مصلحة احد من الطرفين ، وان المصالح الاقتصادية فى قطرين شقيقين متجاورين تجمعهما روابط متعددة وثيقة من اقدم العصور الخالية لابد لها من ان تعود فتوحد بينهما ولو تعنت المتعنتون » (٩٠) كما طالبت المجلة فى نفس المقال أولى الأمر فى البلدين أن يتداركوا راب الصدع قبل أن يتسع ويستفحل شره (٩١) .

الاتفاق الجمركى بين مصر وفلسطين عام ١٩٣٦

وعندما شعرت حكومة الانتداب الانجليزى فى فلسطين بمدى الخسارة والأضرار الاقتصادية التى لحقت بفلسطين ، بعد عام ١٩٣٠ وتحول الميزان التجارى بين مصر وفلسطين لصالح مصر بدأت تسعى منذ عام ١٩٣١ لدى الحكومة المصرية لخفض الرسوم الجمركية على الواردات الفلسطينية وخاصة البطيخ (٩٢) .

وفى ٢١ مايو ١٩٣٥ زارت مصر بعثة تجارية فلسطينية برئاسة مستر جونسون مدير المالية فى حكومة فلسطين من أجل « المفاوضة مع السلطات المصرية بقصد الوصول الى تسوية تمهيدية بين الفريقين لتخفيض رسوم الوارد على البضائع فى كل من البلدن » (٩٣) .

وكان معظم اعضاء الوفد الفلسطينى من الانجليز واليهود ، فيماعدا شكرى بك التاجى « عضو لجنة التجارة والصناعة الدائمة بفلسطين » (٩٤) وقد انتقد امين سعيد تشكيل هذا الوفـــد فــكتب فى جريدة المقطم يقول « ومع أننـــا فى مقدمة من يرحب بهذه الحركة ونرجو أن توفق البعثـــة الفلسطينية فى المهمة التى جاءت لأجلها الا أن هذا لا يمنعنـــا من ابداء راى فى الطريقة التى اتبعت فى تأليفها وارسالها الى قطر عـــربى لتمثل قطرا عربيا فرئيس البعثة وأعضاؤها وخبراؤها من الانكليز واليهود ولا يستثنى من ذلك سوى شكرى بك التاجى فهو العضو العربى فيها » (٩٥)

أما وفد المفاوضات المصرى فكان برئاسة فؤاد كمال بك وكيل وزارة المـــالية (٩٦) .

وقد كون الوفدان المصرى والفلسطينى لجنة للوصـــول الى اتفاق تمهيدى بين البلدين وكانت تعترض هذه اللجنة عدة صعوبات من اجـــل التوصل الى هذا الاتفاق بسبب عدم وجود مايمكن أن تستورده مصر من فلسطين ، ذلك أن البعثة الفلسطينية كانت تعرض أصنافا من المنتجات الزراعية والصناعية فى فلسطين على حين أن اللجنة المصرية كانت ترى أنه يوجد شبيه لهذه المنتجات فى مصر (٩٧) وانه اذا اضـــطرت مصر الى استيراد بعض هذه السلع أو زيادة وارداتها منها فان ذلك سيضر بالانتاج المحلى المصرى من هذه المنتجات (٩٨) .

وقد دار البحث فى هذه المفاوضات حول اســـتيراد مصر للبرتقـــال الفلسطينى فى الأشهر الأخيرة من الموسم حيث يكون موسمه قد انتهى فى مصر ، ذلك بالرغم من أن مساحته قد زادت فى مصر وزاد الصادر منـــه الى الخارج (٩٩) .

وقد خاضت بعض الصحف المصرية فى موضوع المفاوضات التجارية بين مصر وفلسطين فطالبت المقطم بمراعاة التغـــيرات الاقتصـــادية على القطرين عند وضع الاتفـــاق بينهما ، وانه يجب دراسة ما يمكن أن يقدمه كل قطر للآخر (١٠٠) كما طالب أمين سعيد فى مقاله الذى أشرنا اليه من قبل فى المقطم بعدم تشدد الحكومة المصرية مع الوفـــد الفلسطينى حتى

تعود العلاقات التجارية بين البلدين الى ما كانت عليه من قبل ، حيث « أضر عدم تنظيمها بالفلاحين العرب الفلسطينيين اكثر من سواهم ، كما اضر ببعض المنتجين المصريين الذين كانوا يجدون فى فلسطين سوقاواسعة لتصريف منتجاتهم » (١٠١) .

وبعد المباحثات بين الوفدين ، الفلسطينى والمصرى تم الاتفاق بينهما على التوقيع على المشروع التمهيدى للمعاهدة . وقد وقع عليه كل من فؤاد كمال بك رئيس الوفد المصرى بالنيابة عن الحكومة المصرية ، ومستر جونسون رئيس الوفد الفلسطينى بالنيابة عن حكومة الانتداب بفلسطين (١٠٢) .

ويتلخص هذا الاتفاق الجمركى التمهيدى الذى تم بين مصر وفلسطين على تخفيض الرسم الجمركى المفروض على الصابون الفلسطينى فى مصر ، وتسهيل تصدير البرتقال اليافى والبطيخ الفسلطينى الى مصر فى نظير تسهيل تصدير بعض الفاكهة المصرية الى فلسطين (١٠٣) .

وبخصوص تصدير الصابون الفلسطينى الى مصر ، فقد تم الاتفاق على أن يسرى التخفيض على الرسوم الجمركية المفروضة عليه بعد ستة اشهر من تاريخ التوقيع على المعاهدة (١٠٤) على أن يكون هذا التخفيض بنسبة ضئيلة تساعد على ترويجه فى مصر دون الاضرار بصناعةالصابون فى مصر (١٠٥) .

اما بالنسبة للبرتقال الفلسطينى فقد تم الاتفاق على أن تخفض الرسوم الجمركية على الوارد منه الى مصر ابتداء من شهر ابريل حيث يكون موسم البرتقال المصرى فى نهايته (١٠٦) .

وفيما يختص بالبطيخ فقد تم الاتفاق على تبادل هذا الصنف بين القطرين على أساس التعريفة الجمركية الموجودة ، على أن تصدر مصر البطيخ الى فلسطين فى شهرى مايو يونية وتصدره فلسطين الى مصر فى شهرى يولية واغسطس .

كما تم الاتفاق على تصدير المانجو المصرية الى فلسطين بعد ان كانت السلطات الفلسطينية تمنع دخولها اليها من قبل ، كما تم الاتفاق كذلك على تصدير الخضر المصرية الى فلسطين فى الأوقات الملائمة (١٠٧) .

وقد تم توقيع الاتفاقية النهائية بين مصر وفلسطين فى اغسطس ١٩٣٦ ، وهى لا تختلف عن الاتفاق التمهيدى السابق . وقد جعلت هذه الاتفاقية مؤقتة لسنة واحدة ثم جددت لسنة أخرى . وقد ادت هذه الاتفاقية الى تنشيط التجارة بين البلدين (١٠٨) .

الحواشى

(١) ازيد من التفصيلات عن التقسيم الادارى لسوريا فى العهد العثمانى انظر ، أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الادارى لسوريا فى العهد العثمانى. حولية كلية الآداب جامعة عين شمس ، مجلد ١ ، سنة ١٩٥٢ ، عبد العزيز محمد عوض ، الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤ دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ، فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان ، جـ ٢ ترجمة كمال اليازجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ ، يوسف الحكيم سوريا والعهد العثمانى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦ .

(٢) عبد العزيز محمد عوض ، فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ملامح اجتماعية واقتصادية ، بحث منشور فى كتاب « تقدير وعرفان للاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم » ص ٢٤١ ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٧ .

(٣) أحمد أحمد الحنة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، ص ٣١٠ مكتبة النهضة المصرية .

(٤) أمين مصطفى عفيفى عبد الله ، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ص ٢٨٦ ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٦) احمد الحنه ، المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٨) على لطفى ، التطور الاقتصادى ، ص ٢٩٩ . القاهرة ١٩٧٠ .

(٩) راشد البراوى ومحمد حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ص ٨٥ ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .

(١٠) محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ٩٥-٩٦ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٢٧ .

(١١) أمين مصطفى عفيفى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

(١٤) احمد عبد الرحيم مصطفى ، علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ، ص ٥ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ .

(١٥) محمود متولى ، الأصول التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها ص ١٥٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

(١٦) أمين مصطفى عقيقى ، المصدر السابق ص ٣٠٩ ، على لطفى المصدر السابق ص ٣١٠ .

(١٧) محمد كرد على ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٦ ، عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ص ١٧٩ ، أمين مصطفى عفيفى ، المصدر السابق ص ٣٠٩ ، احمد الحنه ، المصدر السابق ، ص ٣١٤ ، على لطفى ، المصدر السابق ص ٣١١ .

(١٩) احمد عبد الرحيم مصطفى ، المصدر السابق ص ١٧٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٢١) محمود متولى ، المصدر السابق ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢٢) المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٢٣) راشد البراوى ، ومحمد حمزة عليش ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٢٤) نجيب يوسف ، علم المالية العامة والتشريع المالى ، ص ١٠٩ ، القاهرة ١٩٤٦ .

(٢٥) راشد البراوى ومحمد حمزة عليش ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٢٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٧) نجيب يوسف ، المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٢٨) محمود متولى ، المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٢٩) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٣٠) اتفاقية بين أمانة الرسومات الآستانة وبين ادارة عموم الجمارك المصرية الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠ أنظر الملحق رقم ١ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

(٣٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣٣) اعلان ملحق الى الاتفاقية المؤرخة فى ١٨ دسمبر ١٨٩٠ المعقودة بين أمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الكمارك المصرية ، الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩٠ ص ٣١٠ انظر الملحق رقم ٢ .

(34) F. O, 371/9016, E 7844, Dated, July 30, 1923.

(35) Ibid.

(٣٦) سعيد حمادة ، النظام الاقتصادى فى فلسطين ، ص ٥٦٣، المطبعة الامريكانية ، بيروت ١٩٣٩ .

(٣٧) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ مقال بعنوان المبادلات التجارية بين مصر وفلسطين .

(٣٨) مجلة الاقتصاديات العربيـة ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ١ مقال بعنوان الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين .

(٣٩) محمد كرد على ، المصدر السابق ص ٩٦ .

(٤٠) عبد العزيز عرض ، فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ، ملامح اجتماعية واقتصادية ص ٢٣٤ .

(٤١) محمد انيس والسيد رجب حراز ، الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٥٣٥ دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٤٢) سعيد حماده ، المصـدر السابق ص ٥٣٥ .

(٤٤) عادل غنيم ، الحركة الوطنية الفلسطينية ، ص ١٨٩ ، الهيئة العامة للكتاب المصرى القاهرة ١٩٧٤ .

(٤٥) محمد انيس والسيد رجب حراز ، المصدر السابق، ص٥٣٥ .

(٤٦) كامل محمود خله ، فلسطين والانتداب البريطانى ، ١٩٢٢ — ١٩٣٩ ص ٧٧ ، بيروت ١٩٧٤ .

(٤٧) المصـدر السابق ، ص ٧٥ .

(٤٨) عادل غنيم ، المصـدر السابق ، ص ٧٣ .

(٤٩) المصـدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥٠) المصـدر السابق ، الصفحة نفسها .

(51) F. O, 371/9016, E 7844 From Sir Herbert Samul to Lord Duke, June, 15, 1923.

(52) Ibid.

(53) F. O, 371/9016, E 10443, From Colonial Office to the High Commissioner for Palestine, Oct. 23, 1923.

(54) F. O, 371/9016, E 9934, From M. R. Scott to Curzon, Spt, 27, 1923.

(55) Op. Cit.

(56) Op. Cit.

(57) F. O, 371/9016, E 10443, From Colonial Off ice to the High Commissioner for Palestine, Oct, 23, 1923.

سعيد حمادة ، المصدر السابق ص ٥٦٨ .

(٥٩) ابراهيم رضوان الجندى ، سياسة الانتداب البريطانى الاقتصادية فى فلسطين ص ٢٠٤ ، رسالة لنيل رسالة الماجستير ، كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ غير منشورة .

(٦٠) عادل حامد الجادر ، أثر قوانين الانتداب البريطانى فى اقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، ص٣١٩ .مركز الدراسات الفلسطينية جامعة بغداد ١٩٧٦ .

(٦١) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ ، مقال بعنوان المبادلات التجارية بين مصر وفلسطين مجلة الاقتصاديات العربية ٢٨ آذار « مارس » ١٩٣٦ ص ١ .

(٦٢) نجيب يوسف ، المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٦٣) أمين مصطفى عفيفى ، المصدر السابق ص ٣١٣ .

(٦٤) محمود متولى ، المصدر السابق ص ١٥٥ .

(٦٥) على لطفى ، المصدر السابق ص ٣٢٣ .

(٦٦) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(٦٧) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية ، عام ١٩٢٥ صحيفة الاقتصاد والتجارة ١ مارس ١٩٢٧ ، ص ١٣٢ .

(٦٨) مجلة الاقتصاديات العربية ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ، القدس، مقال بعنوان « الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين » ص ١ .

(٦٩) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٤ ، مجلة صحيفة الاقتصاد والتجارة أغسطس ١٩٢٥ ص ٣٩٤ .

(٧٠) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٥ ، صحيفة الاقتصاد والتجارة ، مارس ١٩٢٧ ص ١٣٥ .

(٧١) مجلة الاقتصاديات العربية ، « مايو » ١٩٣٥ مقال بعنوان الروابط الاقتصادية بين مصر وفلسطين ص ١ .

(٧٢) تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٥ .

(٧٣) تقرير تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٦ من تقرير مصلحة الجمارك ، صحيفة الاقتصاد والتجارة سبتمبر ١٩٢٧ ص ٣٩٢ .

(٧٤) مجلة الاقتصاديات العربية ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ١ .

(٧٥) تصريح رئيس البعثة التجارية الفلسطينية الى مصر فى ٢١ مايو ١٩٣٥ الى الصحفيين بالقـــاهرة ، المصـــدر السابق ، ١٥ حزيران « يونيو » ١٩٣٥ ص ٣٠ .

(٧٦) المصدر السابق ، آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ٢ .

(٧٧) ابراهيم رضوان الجندى ، المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٧٨) مجلة الاقتصـــاديات العربيـــة ، ١٥ نيسان « أبريل » ١٩٣٥ ص ٣٣ .

(٧٩) المصـــدر السابق ص ٣٢ .

(٨٠) ابراهيم رضوان الجندى ، المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٨١) المصـــدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٨٢) عبد العزيز عوض ، فلســـطين فى أواخر العهـــد العثمـــانى ص ٢٣٣ .

(٨٣) طولـــكرم هى احدى مدن نابلس وتبعد عنهـــا مسافـــة ٢٩ كيلومتر . مصطفى مراد الدباغ بلادنا فلســـطين ، الجزء الأول ، القسم الأول ، يافا ، ١٩٤٧ .

(٨٤) الاهرام ، ١١ يونية ١٩٣١ .

(٨٥) المصـــدر السابق .

(٨٦) ابراهيم رضوان الجندى ، المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٨٧) المقطم ٩ أكتوبر ١٩٣١ .

(٨٨) مجلة الاقتصاديات العربية ١٥ نيسان «أبريل» ١٩٣٥ ص٣٢ .

(٨٩) المقطم ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(٩٠) مجلة الاقتصاديات العربية آيار « مايو » ١٩٣٥ ص ٣ .

(٩١) المصـــدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٩٢) الاهرام ، ١١ يونيـــة ١٩٣١ .

(٩٣) بيـان البعثة الفلسطينية التجارية ، المقطم ٢٤ مايو ١٩٣٥ كما صرح رئيس البعثة الفلسطينية الى الصحفيين بأن « البعثة تواقة الى تحسين العلاقات التجارية بين مصر وفلسطين لفائدة البلدين وأن التبادل التجارى بين القطرين المتجاورين يجرى الآن بحالة غير مرضية فان فلسطين تستورد من مصر سـنويا بضـائع بنصف مليون جنيه ولـكنها لا تصـدر الى مصر الا بمبلغ ٧٥ الف جنيـه والأمل كبير فى الوصول الى تسـوية تساعد على تعادل هذا التبادل التجارى لاسيما أن فى فلسطين مصنوعات لا يوجد مثلها فى مصر فلماذا لا نجد سـوقا لها فيهـا » « أنظر مجلة الاقتصاديات العربية » ١٥ حزيران « يونيو » ١٩٣٣ ، ص ٣٠ .

(٩٤) المقطم ٢٤ مايو ١٩٣٥ مجلة الاقتصاديات العربيـة ١ حزيران « يونيو » ١٩٣٥ ، ص ٣١ .

(٩٥) المقطم ٣٠ مايو ١٩٣٥ ، كلمة فى البعثة الفلسطينية ، بقلم أمين سعيد .

(٩٦) مجلة الاقتصاديات العربيـة ، ١٥ حزيران « مايو » ١٩٣٥ ص ٣١ .

(٩٧) الاهرام ، ٢٨ مايو ١٩٣٥ .

(٩٨) الاهرام ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(٩٩) الاهرام ، ٢٨ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٠) المقطم ، ٢٦ مايو ١٩٣٥ .

(١٠١) المقطم ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٢) الاهرام ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٣) مجلة الاقتصاديات العربيـة ١٥ حزيران « مايو » ١٩٣٥ ، ص ٣١ .

(١٠٤) الاهرام ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٥) مجلة الاقتصاديات العربيـة ١٥ حزيران « يونيو » ١٩٣٥ ، ص ٣١ .

(١٠٦) الاهرام ، ٣٠ مايو ١٩٣٥ .

(١٠٧) مجلة الاقتصـاديات العربيـة ، ١٥ حزيران « يونيو »١٩٣٥ ص ٣١ .

(١٠٨) سعيد حمادة ، النظام الاقتصادى فى فلسطين ، ص ٥٦٤ .

ملحــق رقــم (١)

اتفاقية بين امانة الرسومات بالآستانة وبين ادارة عموم الجمارك المصرية

« الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١ »

حيث انه مقتض حسب الاختــلافات المتــواترة الحاصلة بين أمانة الرسومات وادارة عموم الجمارك المصرية بشأن تحصيل رسوم الكمرك .

وحيث أنه من أهم صوالح الادارتين المذكورتين الاعتنــاء والاهتمام بتأمين ووقاية ايراداتهما على المبدأ المقرر منهما القــائم بوجوب تحصــيل الرسوم الكمركية فى محل استهلاك البضــائع وذلك بدون اخلال بأحكام المعاهــدات وبنــاء على الارادة الشاهانيــة الصادرة فى ٤ رمضان سنة ١٣٠٧ الموافق ١١ نيسان سنة ١٣٠٦ «١٨٩٠» بالتصــديق على المبدأ المذكور قد تقرر ماهو آت :

بنـــد اول

ان البضائع الأجنبية المصدرة من مصر الى قسم من اقسام المملكة العثمانية أو احدى الايالات الشاهانية الى مصر ترفق كالمــاضى برفتيــة حسبية مثبتة لدفع الرســوم عنها ، ولدى وصول هذه البضــائع الى المحل المقصود المقتضى بيانه . بالرفتية

فالــكمرك المحلى يقــدر رسم الدخول على تلك البضــائع بحسب أصوله المرعية الاجراء فاذا كانت تلك البضائع مما يؤخــذ عليه رســوم بحسب القيمة فيقدر الكمرك تلك القيمة عند استلام البضاعة واذا كانت من البضائع التى لها تعريفة فتقدر رسومها بحسب صنفتها المبينــة بتلك التعريفة وعليه فاذا اتضح للــكمرك الوارد اليه البضاعة أن الرســوم

المقتضى تحصيلها على تلك البضاعة هى اكثر من الرسوم المبينة بالرفتية التى أجرى تحصيلها عنها كمرك التصدير فتحصل الفرق لحسابه واذا اتضح له أنها أقل منها فلا يلتزم برد الفرق لصاحبها .

بنـــد ثانى

كل من الادارتين يفتح حسابا جاريا خصوصيا تقيد فيه باعتناء الرفاتى التى تعطى حسب ماتوضح بالبند السابق وبهذا الحساب تقيد لتركيا على حساب مصر الرسوم المدفوعة باحدى المين المصرية عن البضائع المتصدرة لاحدى الجهات العثمانية وبعكس ذلك تقيد لحساب مصر على حساب تركيا الرسوم المدفوعة باحدى الاساكل العثمانية عن البضائع المتصدرة لاحدى الجهات المصرية ويكون القيد فى الحساب المذكور بحسب القواعد الآتية :

اذا كانت الرسوم الموضحة بالرفتية هى أقل من الرسوم التى يقدرها كمرك الجهة الواردة اليها البضاعة أو معادلة لها تقيد كما هى بالحساب الجارى واذا كانت أزيد منها فيصير قيدها بعد خصم الزيادة التى تظهر أو بهذه الحالة كل من الادارتين يحصل على مايخصه قانونا كما لو كانت البضائع التى استهلكت فى دائرته قد وردت له رأسا من بلاد أجنبية وفى كل ثلاثة شهور تعمل كل من الادارتين موازنة الأصول والخصوم من واقع حسابها الجارى فالادارة التى تكون استولت على المبلغ الأكبر تدفع الفرق تماما الى الادارة الأخرى بعمله ذهب « جنيه عثمانى أو جنيه مصرى حسب الحالة » أما الزيادات الناتجة من فرق التثمين أو التعريفة وتكون استولت عليها احدى الادارتين كما توضح بالبند السابق فلا يصير درجها بالحساب الجارى بل تبقى حقا للادارة التى أجرت تحصيلها .

بنـــد ثالث

يقرر من الآن فصاعدا رسم كمركى على محصولات تركيا ومصر الزراعية والصناعية انما يكون ذلك فى الجهة التى تستهلك فيها تلك

المحصولات وبحسب الطريقة الاكثر ارجحية المتبعة بتركيا ومصر فى حق البضــائع الأجنبية المماثلة لها أى أن البضائع تثمن اذا كان ما يماثلهــا من البضائع الأجنبية جاريا أخذ الرسوم عليه بحسب القيمة ويدفع عنهــا رسوم بحسب التعريفـــة الأكثر أرجحية اذا كان ما يماثلها من البضــــائع الاجنبية جاريا أخذ الرسوم عليه بواقع التعاريف .

والرسوم الــكمركية المقتضى تحصليام بحسب القيمة سواء كان فى القطر المصرى أو فى باقى الممالك العثمانية تكون بواقع المائة ٨ وذلك لحين الاجراء بمقتضى الاتفاقيات التجارية الجديدة .

أما الرفاتى التى كان جاريا ارفاقها بالبضائع المحلية فتستبدل باعلام خبر مشتملة على كل الايضاحات الضرورية لاثبات أصل وحقيقة البضائع المتصـــدرة .

بنـــد رابع

لا يضرب رســـم تصـــدير على محصـــولات تركيا ومصر الزراعيـــة والصناعية عند ارسالها بين الجهتين .

بنـــد خامس

لا تسرى أحكام هذه الاتفاقية على الدخان والتنباك بكافة أشكالهما ولا على الملح والنطرون والحشيش والبارود والأسلحة القاطعة والحربية ولا على صنف من الموارد الممنوعة أو التى لها أصول خصوصية فى تركيا أو فى مصر .

بنـــد سادس

تعمل لائحة خصوصية بمعرفة أمانة الرسومات وادارة عموم الكمارك المصرية تبين فيها كيفية اعطاء الرفاتى عن البضائع الأجنبيـــة والشروط اللازمة لقبول تلك البضائع مع بيان هيئة الدفاتر التى تخصص للحساب الجارى وكيفية اجراء القيد فيها .

بنـــد سـابع

يكون العمل بموجب أحكام هذه الاتفاقية اعتبارا من ١٣ أكتوبر سنة ٩٠ ولا يسرى مفعولها الا على البضائع التى ترد للاساكل العثمانيـة أو المصرية مرفوقة برفاتى أو اعلام خبر من ابتداء التاريخ المذكور .

بنـــد ثامن

تكون ملغاة كل الأحكام المخالفة لهذه الاتفاقية

عمل بالاستانة على نسختين فى ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٠٨ الموافق ١٨ دسمبر سنة ٩٠ (٦ كانون أول سنة ١٣٠٦)

قد تصدق على هذه الاتفاقية بارادة شاهانية تاريخها ٢١ ربيع الثانى سنة ١٣٠٨ — الموافق ٢٢ تشرين الثانى سنة ١٣٠٦ .

مدير أمانة الرسومات
(حسن فهمى)
(خــتم)

عن مدير عموم الكمارك المصرية
(أورسستين)
(خــتم)

ملحــق رقــم (٢)

اعلان ملحق الى الاتفاقية المؤرخة فى ١٨ دسمبر سنة ١٨٩٠
المعقودة بين أمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الـكمارك المصرية
« الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١ »

حيث أن البند السابع من الاتفاقية المذكورة يقضى باتبـاع الاجراء بموجبها اعتبارا من ١٣ أكتوبر سنة ١٨٩٠ .

وحيث أن التاريخ المذكور قد مضى وأنه من الضرورى تحديد ميعاد لتبليغ التعليمات الناتجة عن الاتفاقية المذكورة لسائر الكمارك العثمانية .

وحيث أنه لا يمكن الاتيان بأى تغيير كان لاتفاقية مصدق عليها بارادة شاهانية فأمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الكمارك المصرية قد اتفقنا على تنفيذ مفعول الاتفاقية المحكى عنها وملحقاتها من ابتداء أول ينـــاير سنة ١٨٩١ .

حرر على نسختين بالاستانة فى ١٨ دسمبر ١٨٩٠ ـــ (كانون اول سنة ١٣٠٦) .

المصــــادر

أولا : الوثائق :

(أ) وثائق غير منشورة :

Public Recopd Office .

F. O, 371/Vols : 9016, E 7844, 9934, 10443.

(ب) وثائق منشورة :

١ ــ اتفاقية بين أمانة الرســـومات بالاســـتانة وبين ادارة عموم الـسكمارك المصرية (الوقائع المصرية ، ٧ فبراير ١٨٩١) .

٢ ــ اعلان ملحق الى الاتفاقية المؤرخة فى ١٨ ديسمبر سنة١٨٩٠، ــ المعقودة بين أمانات الرسوم العثمانية وادارة عموم الكمارك المصرية (الوقائع المصرية ٧ فبراير ١٨٩١) .

٣ ــ تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٤ ، صحيفة الاقتصاد والتجارة (أغسطس ١٩٢٥) .

٤ ــ تقرير الجمارك عن تجارة مصر الخارجية عام١٩٢٥ (صحيفة الاقتصاد والتجارة مارس ١٩٢٧) .

٥ ــ تجارة مصر الخارجية عام ١٩٢٦ ، من تقرير مصلحةالجمارك المصرية (صحيفة الاقتصاد والتجارة مارس ١٩٢٧) .

ثانيا : المراجع العربيـــة :

١ ــ ابراهيم رضـــوان الجنـــدى ، ســـياسة الانتداب البريطانى الاقتصادية فى فلسطين رسالة لنيل درجة الماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ ، غير منشورة .

٢ ــ أحمد أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، طبعة ثانية النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٨ .

٣ ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل دار المعارف القاهرة ١٩٦٧ .

٤ ـ احمد عزت عبد الكريم التقسيم الادارى لسورية فى العهد العثمانى ، ـ حولية كلية الآداب ، جامعة عين شمس مجلد « ١ ، مايو ١٩٥١ » .

٥ ـ امين مصطفى عفيفى عبد الله ، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤ .

٦ ـ راشد البراوى ومحمد حمزه عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .

٧ ـ سعيد حمادة ، النظام الاقتصادى فى فلسطين ، المطبعة الأميركانية ، بيروت ١٩٣٩ .

٨ ـ عادل حامد الجادر ، اثر قوانين الانتداب البريطانى فى اقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد ١٩٧٦ .

٩ ـ عادل حسن غنيم ، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٧ ـ ١٩٣١ ، الهيئة العامة للكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٠ ـ عبد العزيز عوض ، فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ـ ملامح اجتماعية واقتصادية بحث منشور فى كتاب « تقدير وعرفان للاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم » بمناسبة مرور عشرين عاما على سمنار التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٧ .

١١ــ عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية فى ولاية سوريا ١٨٦٤ ــ ١٩١٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٢ ــ على لطفى ، التطور الاقتصادى ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٣ــ فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان ، الجزء الثــانى ، ترجمة كمال اليازجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ .

١٤ــ كامل محمود خله ، فلسطين والانتــداب البريطانى ١٩٢٢ ــ ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٧٤ .

١٥ــ محمد أنيس والسيد رجب حراز ، الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٦ــ محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، مطبعــة الترقى ، دمشق ١٩٢٧ .

١٧ــ محمود متولى ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٨ــ مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين الجزء الأول القســم الأول ، يافا ١٩٤٧ .

١٩ــ نجيب يوسف ، علم المالية العامة والتشريع المالى ، القاهرة ١٩٤٦ .

٢٠ــ يوسف الحكيم ، سوريا والعهد العثمانى ، المطبعة القانونية، بيروت ١٩٦٦ .

الــدوريات :

١ ــ الأهرام ، أعوام ١٩٣١ ، ١٩٣٥ .

٢ ــ صحيفة الاقتصاد والتجارة أعوام ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ .

٣ ــ مجلة الاقتصاديات العربية أعوام ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ .

٤ ــ المقطم ، أعوام ١٩٣١ ، ١٩٣٥ .

٥ ــ الوقائع المصرية ، فبراير ١٨٩١ .

٨

أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر

بقلم الدكتور نسيم مقــار

وجه الأهمية فى دراسة تاريخ الهوارة :

لقد نزحت الى مصر بعد ظهور الاسلام قبائل عربية كثيرة ، بيد أنه لم يقدر لقبيلة منها ، وبخاصة القبائل التى نزلت بصعيد مصر ، أن تحظى بالشهرة والمــكانة التى حظيت بها قبيلة الهوارة فى الصعيد بل لم يقدر لواحدة منها أن تبسط نفوذها وسلطانها على مناطق واسعة من الصعيد بمثل ما فعلت هذه القبيلة .

فقد حكم شيخ العرب همام زعيم قبيلة الهوارة الصعيد جنوبىأسيوط حتى اسنا فترة من الزمن ، بل لقد امتد نفوذه الى أبعد من ذلك حتى بلاد النوبة (١) ، وأقام دولة فى صعيد مصر عرفت فى التاريخ باسم دولةشيخ العرب همام استمرت مالا يقل عن أربع سنوات (١٧٦٥ — ١٧٦٩ م) .

والباحث فى تاريخ الهوارة يجد أن نفوذهم فى الصعيد قــد استند الى دعامتين رئيسيتين : احداهما تتمثل فى نشاطهم البــارز فى زراعة الأرض ، ومثابرتهم — دون سائر القبــائل الأخرى — فى استصــلاح الأراضى الصحراوية ، التى أمكنهم استغلال المساحات الــكبيرة منها فى الانتاج الزراعى ، والدعامة الأخرى تتمثل فى شهرتهم الواسعة فى تربية الخيول ، وامتلاك الــكثير منها ، وقــد كانت عونا لهم فى صراعهم مع المماليك والحكومة المركزية من أجل السلطة والنفوذ .

والهوارة قبل أن يصلوا الى حكم الصعيد دخلوا فى صراع مع أمراء المماليك ونازعوهم السلطة ، وقاموا بالثورات على الحكومة المركزية فى القاهرة ، واشتبكوا فى حروب معها ، حتى اذا ما انفرد على بك الكبير بحكم مصر شن حربا شعواء عليهم وانتهت بزوا لسلطتهم ، وان لم تقض كلية على نفوذهم ، الذى ظل متغلغلا فى مراكز وقرى الصعيد ، الى أن تولى محمد على حكم مصر ، فسعى الى القضاء على نفوذهم اذ امعن بالسيف والاعدام فيهم حتى قتل العديد منهم ، كما دمر قراهم واستولى على ممتلكاتهم ، فارتاح من منافستهم له على السلطة ومناواتهم لحكومته على نحو ما فعل مع المماليك .

وهكذا كان لهوارة الصعيد دور بارزا على مسرح الأحداث فى مصر فى القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر فى الصراع من أجل السلطة والنفوذ .

وعلى الرغم من أهمية هذا الدور التاريخى لهوارة الصعيد ، وأثرهم فى الحياة السياسية والاقتصادية فى البلاد ، فان المؤرخين المحدثين يقصرون عن معالجته ، أو حتى الاشارة اليه حين يتعرضون لحكم المماليك أو لحكم محمد على فى صراع كل منهما ضد القوى المنافسة له فى حكم البلاد — مع أن المؤرخين المعاصرين من أمثال الشيخ عبد الرحمن الجبرتى قد عرضوا له ، اذ تناول هذا المؤرخ المصرى الجليل فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » قصة الصراع بين الهوارة والمماليك ، وأفاض بصفة خاصة فى الحديث عن الحرب الأخيرة التى دارت بين على بك الكبير وشيخ العرب همام زعيم الهوارة فى الصعيد ، كما عرض لهذا الدور التاريخى لقبيلة الهوارة بعض الرحالة الموثوق بهم مثل الرحالة بوركهارد Burchardt الذى ضمنه بعض ملاحق كتابه Travels in nubia (رحلات فى النوبة) وقد زار هذا الرحالة السويسرى مصر والسودان فى اوائل القرن التاسع عشر ، واتيحت له فرصة التعرف على بعض زعماء الهوارة والاتصال بهم ، وأمكنه أن يلم بجوانب هامة من تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظم معيشتهم فى المناطق التى كانوا قد بسطوا نفوذهم عليها ، وبخاصة فى مراكز وقرى قنا ، مما يعد صفحة هامة مطوية فى تاريخهم .

واذا كان قد اتيح لبعض الأساتذة المصريين فرصة ترجمة كتاب رحلة « بوركهارد » السالف الذكر الى اللغة العربية ، مما يعد فى حد ذاته مجهودا علميا يستحق التقدير ، اذ يخدم جانبا هاما من الدراسات الأفريقية بالمكتبة العربية ، الا ان يد الترجمة لم تمتد الى ملاحق هذا الكتاب رغم اهميتها ، وهى التى تناولت فيما تناولت من الموضوعات السياسية والاجتماعية والتاريخية الهامة موضوع بسط الهوارة نفوذهم على الصعيد وموقف محمد على العدائى منهم .

وربما كان هذا القصور وغيره من الدوافع الرئيسية التى دفعتنى للتصدى للكتابة فى هذا الموضوع ، مما قد يلقى الضوء على صفحة هامة مطوية من تاريخنا القومى ، باعتبار أن الهوارة قبيلة من العرب نزحت الى مصر حيث استوطنت مناطق واسعة من الصعيد امتدت كما أسلفنا ، جنوبى اسيوط حتى اسنا ، واستقرت بهما وارتبطت بأرضها ارتباطا وثيقا ، بعد أن أفلحوها بكدهم وكفاحهم ومدوا يد العمران اليها ، وتصدوا للحكام من المماليك والأتراك ونازعوهم السلطة عندما سعى هؤلاء الحكام للقضاء على سلطانهم ونفوذهم الذى اقاموه فى مناطق الصعيد وقد تأصلوا فيها وارتبط تاريخهم ومستقبلهم بها .

وسأتناول فى هذا البحث تاريخ نزوح الهوارة الى مصر ، وازدياد نفوذهم فى الصعيد ، وقيام دولة شيخ العرب همام زعيمهم ، ونظام حكم الهوارة فى الصعيد ، وما يدور من حديث حول جمهورية همام واخيرا زوال شيخ العرب همام على يد على بك الكبير ، ثم موقف محمد على بعد توليه حكم مصر من الهوارة فى الصعيد ، وما كان من أمر تخلصه من معارضتهم لسلطانه بالقضاء على زعمائهم وتدمير قراهم على يد ابنه ابراهيم باشا .

تاريخ نزوح قبيلة الهوارة الى مصر :

يقول مكمائيل Macmichael (٢) البريطانى الذى عنى بدراسة تاريخ القبائل العربية فى مصر والسودان « ان قبيلة هوارة نزحت من بلاد المغرب الى مصر حيث استقرت فى مديرية البحيرة ثم اضطرت فى القرن الرابع عشر الميلادى تحت ضغط قبائل زنارة وحلفائهم من عرب

هذه المديرية الى الهجرة جنوبا ، فاستقر الـكثير منهم فى مديريات الصعيد المختلفة ، وهناك اخذ يعلو شأنهم عندما استقروا في جرجا وما حولها عام ١٣٨٢ زمن حكم الأمير برقوق أول أمراء المماليـك البرجيـة ، اذ بفضل مهارتهم ومثابرتهم فى الزراعة أمكن استخلاص الأراضى من براثن الصحراء، بعد أن كانت رمال الصحراء قد طغت عليها ، ونجح الهوارة دون سـائر القبائل الأخرى التى هاجرت الى مصر من بلاد المغرب فى توطيد أقدامهم فى وادى النيل (٣) . ويمضى الزمن زاد عددهم وقوى بأسهم حتى انتشروا فى معظم الوجه القبلى ، وبسطوا نفوذهم فى مراكز قنا .

ازدياد نفوذ الهوارة وقيام دولة شيخ العرب همام :

على أن نفوذ الهوارة فيما يبدو قـد امتد الى الجنوب من قنا حتى اسوان اذ يضيف مكمايكل Macmichael الى ذلك « انه قرب نهاية القرن الرابع عشر هاجم الهوارة بالاشتراك مع أولاد كنز مدينة أسوان ، وبعد ذلك ببضع سنوات انقلبوا على حلفائهم ، واستولوا على المدينة بأنفسهم بعد ان اعملوا السيف فى أهلها » (٤) .

أما الرحالة « بوركهارد » Burchardt الذى زار وادى النيـل فى أوائل القرن التاسع عشر ، فبعد أن وصف انتشار الهوارة فى وقت زيارته فى القرى الممتدة على الضفة القريبة للنيل من أسيوط شمالا الى فرشوط جنوبا ، وبالقرب من قنـا على الشـاطىء الشرقى ، وتمتعهم بالقوة والثروة ، فانه يروى لنا بالتفصيل كيف أن أسرة زعيمهم همام أبو يوسف (فى القرن الثامن عشر) قد ادعت لنفسـها حكم مصر العليـا (الصعيد) جنوب أسـيوط ، وان المماليك فى ذلك الوقت قـد اضطروا الى الاذعان والاتفاق معهم على ترك هـذه البـلاد تحت نفوذهم « نفوذ الهوارة » (٥) .

ثم يضيف « بوركهارد » الى ذلك « أن همام المذكور قـد أمكنه أن يبسط سلطانه شمال النوبة التى زارها مرات عديدة وتوغل جنوبا حتى المحس » (٦) .

نظام حكم الهوارة فى الصعيد :

هكذا نجح الهوارة بزعامة همام أبو يوسف فى اقامة دولة لهم فى الصعيد عرفت باسم دولة شـــيخ العــرب همــام . وبعض الــكتاب المجتهدين يرى أن نظام الدولة التى أقامها همام فى الصعيد كان جمهوريا، وأن همام أول من أقام النظام الجمهورى فى مصر ، وان مصر بذلك تكون قد عرفت تجربة النظام الجمهورى على يد همـــام قبل الثورة الفرنسية نفسها بسنوات ، ويستدل على ذلك بأقوال بعض المؤرخين والكتاب الذين عاصروا هذه الحقبة من الزمن التى قامت فيها هذه الدولة فى القرن الثامن عشر (١٧٦٥ — ١٧٦٩) .

ان الدكتور لويس عرض فى كتابه « المؤثرات الأجنبيـــة فى الأدب العربى الحــديث (البحث الثانى) الفكر السياسى والاجتماعى » يؤكــد هذا الرأى مستندا الى اقوال بعض المعاصرين أمثال رفاعة الطهطاوى فى كتابه « تخليص الابريز » وما ورد فى مذكرات المعلم (الجنرل يعقوب) فى مشروع استقلال مصر الذى قدمه عام ١٨٠١ م الى الدول الأوربيـــة مشيرا فيه الى حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد كمثل يمكن أن تكون عليه حكومة مصر عند حصولها على الاستقلال .

فقد ذكر رفاعة الطهطاوى فى وصفه لحالة الرأى العام فى فرنسا عام ١٨٣٠ بأن ثورة لويس فيليب ملك الفرنســـيين على شارل العــاشر قوله « اعلم أن هــذه الطائفة (يقصــد الفرنسيين) متفرقة فى الرأى فرقتين أصليتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية أتباع الملك القائلين بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء والآخرون يميلون الى الحرية بمعنى أنهم يقولون لا ينبغى النظر الا فى القوانين فقط والملك انما هو منفذ للاحكام طبق ما فى القوانين فــكأنه عبــارة عن آلة ، ولا شـــك أن الرأيين متباينان .. ومن الفرقــة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة الى ملك أصلا.

« ولــكن لمــا كانت الرعية لا تصلح أن تــكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل منها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو مثل مصر فى زمن حكم الهماوية فكانت امارة الصعيد جمهورية التزامية » (٧) .

ويعلق الدكتور لويس عوض على ذلك بأن هذا الكلام خطير لأن معناه أن مصر قد عرفت تجربة النظام الجمهوري قبل الثورة الفرنسية نفسها بسنوات قليلة . واهمية هذا الكلام من انه صادر من مفكر كبير مثل رفاعه الطهطاوى العارف ادق معرفة بالنظم والمذاهب السياسية ، وهو لا يمكن ان يطلق القول على النظام الجمهورى فى فرنسا ويشبهه بالنظام الجمهورى فى مصر الا اذا كانت معلوماته عن ثورة همام تؤكد ذلك (٨) .

ويفسر الدكتور لويس مفهوم الجمهورية عند رفاعه فى جمهورية شيخ العرب همام « بأن اركان الفكرة الجمهورية عند رفاعه الطهطاوى كما حددها هى « أن يكون الحكم بالكلية للرعية » اى أن الأمة مصدر السلطات كما نقول نحن فى الدساتير الحديثة وانه « لا حاجة للملك أصلا » اى أن يكون للدولة رئيس وجهاز حكم غير متوارث وانما نابع من القاعدة الشعبية وان الأمة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا التوكيل سواء تم عن طريق الانتخاب أو عن طريق الاستفتاء أو عن طريق البيعة أو عن طريق آخر هو المقابل لفكرة التوكيل أو التفويض » (٩) .

اما بالنسبة لما ورد عن جمهورية همام فى مشروع المعلم يعقوب (الجنرال يعقوب) الخاص باستقلال مصر الذى قدمه عام ١٨٠١ الى الدول الأوربية كنموذج لنظام الحكم الذى يقترح قيامه فى مصر المستقلة ، ففى القسم السابع من مذكراته (مذكرات المعلم يعقوب) التى قدمها سكرتيره الفارس لاسكارس الى الكابتن جوزيف ادموندز ، قومندان السفينة بالاس لرفعها الى مجلس الوزراء البريطانى عن طريق وزير البحرية البريطانية، يذكر المعلم يعقوب « واذا ما اجازت الحكومات الأوربية استقلال مصر فالسؤال هو كيف يحكم المصريون انفسهم ، وكيف يدافعون عن استقلالهم . . فلتكن الحكومة الجديدة عادلة وقاسية وقومية كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت لك قصتها فهى بالتأكيد سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب » .

ومهما يكن من أمر نظام الدولة التى اقامها شيخ العرب همام فى الصعيد ، فان الذى يعنينا فى هذا المقام هو الوقوف على نظام حكم الهوارة

لبلاد الصعيد التي خضعت لنفوذهم ، وهو ما عنى بابرازه الرحالة بوركهارد Burchardt الذى جاء الى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ، وزار مناطق الهوارة فى الصعيد واختلط ببعض زعمائهم ، وتعرف على عاداتهم وتقاليدهم وجوانب هامة من تاريخهم ونظم حكمهم سجلها فى ملاحق كتاب رحلته .

ان الرحالة بوركهارد Burchardt يصف نظام حكم الهوارة فى الصعيد بالصرامة والتعالى ، ويذكر أنهم كانوا يفرضون ضريبة على الأرض وكذلك كانت تفرض المكوس على التجارة وبخاصة فى قنا وفرشوط وجرجا ، ويضيف « بوركهارد » الى ذلك أن كثيرا من اقارب همام كانوا يحكمون فى مراكزهم بالقسوة وان القبط كانوا أكثر تأثرا بقسوتهم ، فقد تعرضوا — باستثناء من كان يعمل منهم لدى الهوارة ككتبة أو صيارفة — لأعمال الاغتصاب وبخاصة من كان يعمل منهم فى الزراعة أو صناعة النسيج ... وكان الفقراء منهم يعملون كرقيق للارض مقابل تمتعهم بالحماية أو امدادهم بالقوت والكساء واذا حدث أن أصاب أحدهم الثراء فانه يعفى من الأعمال الشاقة ويحمى من استبداد أى شيخ آخر ، ولكن يضطر الى تقديم الهدايا لسيده من وقت لآخر فى كل مناسبة » (١٠)

ويحدثنا « بوركهارد » عن نظام فرض الضريبة على الأرض الزراعية « بأن شيوخ القرى كانوا يتسلمون ضريبة الأرض من الفلاحين ، وفى كل جزء من المناطق التى خضعت لنفوذ الهوارة كانت الضريبة على الأرض لا تفرض على الفدان كما هو الحال الآن ، وانما كل مركز يدفع المبلغ الاجمالى للضريبة المقررة عليه وشيوخ القرى كان لهم الحرية فى توزيعها على الفلاحين حسب هواهم ، وعن هذا الطريق جمعوا ثروة كبيرة » (١١) .

أما مناطق الصعيد التى خضعت لنفوذ الهوارة وطبق عليها هذا النظام الضريبى فان الرحالة « بوركهارد » يؤكد أن قبيلة الهوارة كانت تحتل جميع القرى على الشاطىء الغربى للنيل من قرب أسيوط شمالا حتى فرشوط جنوبا ، وبالقرب من قنا على الشاطىء الشرطىء الشرقى للنيل وان اكثر الفلاحين ثراء فى هذه القرى كانوا يتبعون هذه القبيلة وحتى تولى محمد على حكم مصر كانوا أقوياء جدا ، وفرع أولاد يحيى الذين استقروا على

الضفاف الشرقية للنيل من بهجوره وحتى قنا وتشمل القرى الكبيرة للسلامية والقصير والصياد وفاو والشناورية ، حازوا على شـــهرة كبيرة بأعمـــالهم الثورية وقيامهم بالثورات (١٢) .

واخيرا يشرح الرحالة « بوركهارد » الدعائم التى ارتكز عليهـــا حكم الهوارة فى الصعيد بقوله « ان اقليم الهوارة اشتهر بأنه اغنى بقاع مصر بالخيول وكل فلاح كان يمتلك حصانا ، ومن ثم فان كتيبة كبيرة من الفرسان كان يمكن جمعها فى اللحظة الحاسمة . وفى الوقت نفسه كانت أراضيهم تزرع جيدا ومن أكثر البقاع المصرية ازدحاما بالسكان . ومن تل بمدينـــة طهطا الصغيرة استطعت أن احصى حسب امتداد بصرى ٣٥ قرية » (١٣) .

ولقد امتدح الرحالة « بوركهارد » طبيعـــة الـــكرم التى اشتهر بها شيوخ الهوارة وقد بات ليلة عند واحد منهم بقرية مقابل ابيدوس . ويذكر انه وجد فى بيت هذا الشيخ الهوارى فى تلك الليلة أكثر من ستين شخصا يتناولون طعام العشاء فى فناء البيت (١٤) .

اما عن علاقات الهوارة بجيرانهم من البدو والقبائل الأخرى المجـــاورة فان الرحالة « بوركهارد » يذكر أن حكم الصعيد لم يخلص للهمامية تماما ، فقد كانوا يتعرضون للهجمات المتواصلة من بدو ليبيـــا ، وكذلك من القبائل القاطنة فى الصحراء غرب أسيوط فى السهل المواجه لبنى عـــدى ، وان معارك دموية كانت تنشب بينهم ولا يزال الهوارة يذكرونها حتى اليوم ، وكذلك كانوا يتعرضون لهجمات اعدائهم التقليديين من قبيلة « قصاص » التى تقطن البلاد الواقعة على الضفاف الغربية من طيبـــة الى القرب من اســـنا (١٥) .

هزيمة الهوارة وزوال دولتهم على يد على بك الـــكبير :

على أن الخطر الحقيقى الذى كان يتهدد دولة الهوارة لم يكن يتمثل فى البدو أو القبائل الأخرى المجاورة لهم التى كانت تشن عليهم الغـــارات من وقت لآخر ، وانما كان يتمثل فى منافسيهم الأصليين على السلطة والحكم من المماليك . فهؤلاء وان كانوا قد اتفقوا معهم على ترك حكم الصعيد لهم فانما كان ذلك تحت ضغط ازدياد قوة الهوارة فى هذه البلاد وعدم قدرة المماليك

على مواجهتها . بيد أن ذلك لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما استعاد المماليك قوتهم عقب انفراد على بك الكبير بحكم مصر ، فتوالت هجماتهم على الهوارة الذين انهزموا أمامهم فى عدد من المعارك الدموية ، وقد جرح خلالها الزعيم همام الهوارى ، واضطر الى الفرار الى اسنا ، حيث توفى ودفن بالقرب من نقاده مقابل قوص (١٦) .

ولقد وصف الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى المعاصر المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين المماليك والهوارة من أجل السلطة، وما كان من أمر الحرب الفاصلة التى دارت بين قوات على بك الكبير بقيادة محمد بك أبو الذهب والهوارة ، والتى انتهت بهزيمة شيخ العرب همام وزوال دولته ، وما كان لخيانة ابن عم همام من اثر فى الهزيمة .

يقول الجبرتى « وكان من أمرهم أنه لما ذهب محمد بك أبو الذهب الى جهة قبلى لمنابذة شيخ العرب همام كما تقدم وجرى بينهما الصلح على أن يكون لهمام من حدود برديس (١٧) وتم الأمر على ذلك ورجع على بك الى مصر أرسل على بك يقول له انى امضيت ذلك بشرط أن تطرد المصريين الذين عندك ولا يبقى منهم احدا بدائرتك فجمعهم وأخبرهم وقال لهم اذهبوا الى اسيوط واملكوها قبل كل شىء ، فان فعلتم ذلك كان لكم بها قوة ومنعة ، وانا امدكم بعد ذلك بالرجال والمال واستصوبوا رأيه وبادروا وذهبوا الى اسيوط ، وكان بها عبد الرحمن كاشف من طرف على بك الكبير وذو الفقار كاشف ، وكانوا قد حصنوا البلدة وجهاتها وبنوا كرانك والبوابة ، وركبوا عليها المدافع.. واشعلوها وأحرقوا الباب وهجموا على البلدة ولم يكن بهم طاقة لكثرتهم وهم (جماعة صالح بك وباقى القاسمية وجماعة الخشاب وجماعة الفلاح وجماعة مناو ويحيى السكرى ... وغيرهم ومعهم كبار الهوارة وأهالى الصعيد فملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها ، وقد وردت الأخبار بذلك الى على بك فعين للسفر ابراهيم بك بلقيا ومحمد بك أبو شنب ... ومن كل وجاق جماعة وعساكر ومغاربة ... ثم سافر محمد بك أبو الذهب ورضوان بك وعدد من الأمراء والصناجق وضم اليهما ماجمعه وجلبه من العساكر المختلفة الأجناس من ولاة ودروز ومتاولة وشوام ... وذهب الجميع الى

أن وصلوا الى قرب أسيوط ...وتيقظ القوم واستعدوا لهم فالتطموا معهم وهم قليلون بالنسبة لهم ووضع الحرب واشتد الجلاد وبذلوا جهودهم فى الحرب ... وانجلت الحرب عن هزيمتهم ونصرة المصريين عليهم وذلك عند جبانة اسيوط ...واقاموا بأسيوط أياما ثم ارتحلوا الى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة ، واجتمع كبار الهوارة مع من انضم اليهم من الأفراد المهزومين ، وراسل (محمد بك أبو الذهب) محمد بك اسماعيل ابو عبدالله وهو ابن عم همام ومناه ووعده برياسة بلاد الصعيد عوضا عن شيخ العرب همام ، حتى ركن الى قوله وصدق تمويهاته وتقاعس وتثبط عن القتال وخذل طوائفه . ولما بلغ شيخ العرب همام ما حصل ورأى فشل القوم خرج من فرشوط وبعد عنها ثلاثة أيام ، ومات مكمودا مقهورا ، ووصل محمد بك ومن معه الى فرشوط فلم يجد مانعا فملكوها ونهبوها ، واخذوا جميع ما كان بدوائر همام واقاربه واتباعه من ذخائر واموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن » (١٨) .

محمد على ومذبحة الهوارة :

على أن هزيمة الهوارة على يد على بك الكبير عام ١٧٦٩ وان كانت قد قضت على دولتهم التى زالت نهائيا منذ هذا التاريخ ، الا أنها لم تقض تماما على نفوذهم فى المراكز التى انتشروا فيها فى الصعيد ،اذ يبدوا أنهم سرعان ما جمعوا شملهم واستعادوا قوتهم بعد زوال دولة على بك الكبير . وهو ما يؤكده الرحالة « بوركهارد » Burchardt الذى زار مراكز الهوارة واختلط بهم من خلال زيارته لمصر عام ١٨١٣ ، اذ يذكر هذا الرحالة « ان سلطان الهمامية قد قضى عليه تبعا لذلك ، ولكن فيما يتعلق بقوة الهوارة ، فقد ظلت قائمة ، وانه على الرغم من ان بكوات المماليك كانوا فى حرب دائمة معهم ، فانهم لم يستطيعوا كسر شوكتهم » (١٩) ويستدل « بوركهارد » على ذلك — على سبيل المثال — بأولاد يحيى الذين ظلوا دائما محافظين على استقلالهم ، وكذلك بشيوخ القرى انفسهم الذين كانوا يتسلمون ضريبة الأرض من الفلاحين (٢٠) .

وعند تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥ وجـد الهوارة يتمتعون بالقوة فى المناطق التى بسطوا عليها نفوذهم فى الصعيد ، ومن ثم عمل على القضاء على نفوذهم فى هذه البلاد بمثل ما فعل مع المماليك . وقد قضى عدة سنوات قبـل أن يتمكن من اخضـاع الهوارة فى المراكز التى انتشروا فيها . والرحالة « بوركهارد » قد أوضح لنا الوسائل التىانتهجها محمد على للقضاء على نفوذ الهوارة فى الصعيد .

يقول الرحالة « بوركهارد » Burchardt لقـد قام حكام محمد على فى الصعيد : عابدين بك وصـالح اغا وحسين باشا ، بنهب الكثير من قراهم . ولـكن ابنه ابراهيم باشا هو الوحيد الذى استطاع أن يثبت سلطته فى هذه الجهات عن طريق القسوة والصرامة التى اتبعها مع زعماء الهوارة بأن قتل بالسيف أو عن طريق تنفيذ حكم الاعدام فيما يقرب من الفى هوارى على اقل تقدير . كما غير شيوخ القرى بنفس الطريقة التى غير بها الزعيم الوهابى شيوخ شبه الجزيرة العربية ، فمزق وحدة القرى بينهم ، وعاقب بشدة وبدون رحمة جميع الذين كانوا يبدون أدنى معارضة او مقاومة لسلطته . وآخر قرية من قرى الهوارة دمرها ابراهيم فىالصعيد كانت ارمنت المقر الرئيسى للقصـاص ... ففى خريف عام ١٨١٣ أنقض ابراهيم ليلا على القرية وقتل حوالى الثلاثين من الشخصيات البارزة فيها وسلب الجميع أموالهم وممتلكاتهم » (٢١) .

ويضيف الرحالة « بوركهارد » الى ذلك « أنه منذ ذلك التاريخخضع الصعيد كله لسلطانه ، واضطر الهوارة الآن الى أن يتركوا خيولهم ،ولا أحد غير شيوخ القرى يجرؤ على الاحتفاظ بها ، وتبعا لذلك تضاءلت قوة فرسانهم الرهيبة (٢٢) .

مراجع البحث

— Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III.

— Macmichael : A history of the Arabs in the Sudan Vol. I.

ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

ـ رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز طبعة القاهرة ١٩٠٥ .

ـ لويس عوض (دكتور) : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العـــربى الحديث (المبحث الثانى) الفكر السياسى والاجتماعى .

ـ محمد عوض محمد (دكتور) : السودان الشمالى .

ـ مذكرات الجنرال يعقوب .

الحواشى

(1) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 152 ـ 531 - 533.

(2) Macmichael : A history of the Arabs in the Sudan, Vol. I. p. 152.

(٣) يحدثنا مكمايل Macmichael عن وجود قبيلة تعرف باسم « الهوارة الجلابة » تعيش فى اقليم دارفور غرب السودان احترفوا التجارة . ولعلهم قد انتقلوا الى شمال هذا الاقليم برفقة جلابة الغوز، وبعض هؤلاء الجلابة اتخذ كردفان موطنا له حيث أخذ فى تشييد القرى فى المنطقة الممتدة من بارة الى الأبيض وفى منطقة أم روابه ، بعد أن استولوا على الأرض من الجوامعة .

(Macmichael : Op. Cit., p. 335).

وهناك قبيلة أخرى تعرف « بالهواوير » فى اقليم دنقلة التى اشتهرت بتربية الأبل ، وقد كانت هجرتهم الى هذا الاقليم ـ كما يذكر الدكتور/ محمد عوض محمد فى كتابه السودان الشمالى ـ على فترات وأزمنة مختلفة ، ولعلهم قد اتخذوا الطريق المحاذى للنيل فى هجرتهم الى هذا الاقليم . (محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ص ٢٤٩) .

ويضيف مكمايكل Macmichael الى ذلك أن نشاط الهواوير امتد فى موسم المطر الى مراعى شمال كردفان ، حيث أصبحوا يجاورون الكبابيش من ناحية الشمال الشرقى .

(Macmichael : Op. Cit., p. 335).

(٤) المصدر السابق ص ١٥٢ .

(5) Burchardt : Travel s in Nubia, Appendix III, pp. 531 - 533.

(٦) المصدر السابق ص ٥٣١ ـ ٥٣٣ .

(٧) رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز : ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٨) لويس عوض (دكتور) : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ـ البحث الثانى ـ الفكر ص ش .

(٩) نفس المصدر والصفحة .

(10) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 531 - 533.

(١١) نفس المصدر ص ٥٣١ـ٥٣٣ .

(١٢) نفس المصدر ص ٥٣١ـ٥٣٣ .

(١٣) المصدر السابق ص ٥٣١ .

(١٤) المصدر السابق ص ٥٣٣ .

لايزال الهوارة فى الصعيد يتحلون بصفة الكرم بصرف النظر عن المستوى المادى لأى واحد منهم وهم يمدون العون للفقير والمحتاج ، ويسارعون لنصرة الضعيف والمظلوم وتغلب عليهم النخوة والشهامة فى معاملاتهم ومن هنا اكتسبوا محبة الناس وتقديرهم .

(15) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, p. 532.

(16) Burchardt : Op. Cit., 532.

ويضيف « بوركهارد » الى ذلك ، وقد اتيحت له فرصة زيارة هذه المراكز التى خضعت لنفوذ الهوارة « ان شيخ العرب همام كان يملك كنزا من الأموال التى جمعها اثناء حياته . وقد حاول خصومه العثور عليه . وتحت ضغط الاضطهاد الذى تعرض له أهله اعترفوا بأنه كان قد دفن هذا الكنز فى الجبال بالقرب من بلدة هو (مركز نجع حمادى ـ قنا). ولكن لم يعثر على شىء منه على الرغم من أن الكثيرين حتى اليوم ومن بينهم فلاحون معدمون وتجار متجولون وعرافون يتجولون فى هذه المنطقة على أمل العثور على هذا الكنز » .

Burchardt : Op. Cit. p. 532.

(١٧) ففى عام ١٧٦٩ م (١١٨٣هـ) أرسل على بك الكبير محمد أبو الذهب بتجريدة الى الهوارة وعين ايوب بك سنجقا على جرجا . ولم تحدث مناوشات بين جيش محمد أبو الذهب وجيش همام الذى كان يمتد حكمه من المنيا حتى الشلال ، وتم الصلح بلا قتال على تقف حدود همام عند برديس (قرب جرجا) ويضيف الجبرتى الى ذلك أن محمد أبو الذهب قائد على بك الكبير انجب ولدا فى ذلك العام فنزل له همام عن برديس أيضا اكراما له وهبة للمولود (الجبرتى ـ ص ٣٣٥) .

وربما كان ذلك من قبيل الرشوة التى لم تفلح بدليل تجدد الحرب بين على بك والهوارة التى انتهت بهزيمتهم وزوال دولتهم .

(١٨) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراحم والأخبار جـ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

(19) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 532 - 533.

(20) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, p. 533.

(21) Ibid.

(22) Ibid.

1

QUELQUES HOMMES CELEBRES

DU TEMPS PHARAONIQUE JUSQU'AU DEBUT DE L'EPOQUE CHRETIENNE DANS LES PROVINCES DE MOYENNE ET DE HAUTE EGYPTE

-suite-

RAMADAN EL SAYED

Dans notre précédent article les hommes célèbres de **THEBES,** nous avions étudié la question jusqu'au temps de Thoutmosis IV (1); nous continuerons maintenant l'étude pour la deuxiéme moitié de la XVIII dynastie, toujours à Thèbes.

Du temps des Pharaons Amenophis III et IV, nous gardons le souvenir des célébres **RAMOSE** et de **PARENNEFER.** Menna et Ramosé ont ce point commun d'avoir des tombeux admirés par nombreux visiteurs de Thèbes. Le tombeau du gouverneur de la ville et vizir, no. 55 à Cheick abd el Gournah (2) est splendide, sculpté dans sa plus grande partie, restauré par les soins de Sir Robert Mond, en 1923-1928; on a dégagé la salle hypostyle, refait en bois le toît, mais la tombe est restée inachevée; de plus elle s'est ressentie des perturbations politiques, et c'est là, curieusement, une cause de l'intérêt qu'elle présente. Toute la première partie de sa grande chapelle funéraire est sculptée à la manière classique (3) du temps d'Amenophis III, le dieu Amon y intervient à l'occasion et on devine son nom sous les martelages postérieurs. Sur la paroi Nord-Ouest, tout change; elle n'est qu' à moitié sculptée; le reste, encore peint à grands traits noirs, représente Akhnaton et Nefertiti apparaissant à une fenêtre du temple d'Aton à Karnak; leurs fillettes, trop jeunes

encore sans doute, ne sont pas à côté d'eux. Au-dessus de leurs têtes, le disque solaire émet des rayons terminés par des mains dont quelques unes portent le ankh au nez du roi et de la reine. Parmi les courtisans se tient Ramosé, converti au nouveau culte et le roi semble lui parler mais malheureusement les inscriptions sont devenues illisibles; le texte pourait dire que le roi eut une sorte d'expérience religieuse mystique pendant laquelle Aton, symbolisé par le disque solaire, se révèle à lui .... les nations de l'Empire pouvaient toutes communier dans le culte du Soleil, c'était un moyen d'unification. A Thèbes où le pontificat d'Amon était supprimé, on agissait avec violence. Des équipes formées par le roi, et qui, comme Ramosé, avaient la foi, parcoururent tous les monuments thébains pour y marteler le nom d'Amon, faire disparaître le dieu. Quand la vie devint impossible à Thèbes, le roi fonda la ville nouvelle d'Akhet-Aten où la foi nouvelle était répandue, et Ramosé, bien qu'il fût déjà âgé à ce moment, se montra un néophyte de grande qualité.

PARENNEFER vécut aussi sous les deux rois et il adopta la foi amarnienne; le roi le remercia en lui permettant de construire deux tombeaux, l'un à Thèbes, l'autre à Amarna. Celui d'Amarna, no 7 est bien dessiné, mais inachevé (4); celui de l'Assassif, no 188 (5), construit pour «le majordome royal aux mains pures» (6), intendant d'Amenophis IV, est d'un très beau plan, mais le vestibule seul subsiste et les cartouches ont été martelés.

Sous Toutankhamon, est resté le souvenir d'un homme de génie, Amenhotep, nommé **HOUY**, l'architecte d'Abou-Simbel. Il fut chargé par le souverain qui voulait rentrer en grâce avec le clergé d'Amon, de commencer la restauration des monuments qui avaient subi des dommages sous Akhnaton, de restituer les inscriptions, mais la carrière de Houy, fut essentiellement en Nubie dont il était le vice-roi (7). Les vice-rois n'étaient généralement pas choisis parmi les fonctionnaires qui

avaient fait carrière en Nubie mais Houy fut une exception, et c'est en Nubie qu'il accomplit un chef-d'oeuvre; «le triomple de la XIXe dyn (8). doit être cherché, semble-t-il, dans ses colosses»; ce qui est le plus étrange, c'est que les colosses de la façade d'Abou-Simbel demeurent si humains, si harmonieux, si bien proportionnés; ils témoignent de leur puissance et de leur force, ils n'écrasent pas; pour tempéreur leur stature énorme, les artistes prennet de plus en plus l'habitude de loger entre leurs jambes, leurs femmes ou princesses qui demeurent ainsi protégées dans le sillage du roi. C'est Houy qui est aussi l'auteur du grand tableau représentant la bataille de Kadesh, sur la paroi Nord de la salle hypostyle; il a éprouvé, par fierté sans doute, le besoin de signer son oeuvre : «fait par le prêter pur, à la tête de l'Etranger, comme prêtre à mystère, Houy, pour Son Seigneur» (9). Cependant il ne fit pas creuser son tombeau en Nubie mais à Gournet Mourrayi, tombe no 40 (10), avec son premier nom Amenhotep; une scène représente Toutankhamon, assis sous son dais, Houy vice-roi, en tenue d'apparat devant son maître, a le cou orné du triple collier d'or qu'il vient de recevoir; il présente au roi tous les trésors des pays du Sud (11); des prisonniers nègres apportent les poutres, les défenses d'éléphants, des corbeilles chargées d'or, un char en or, des boucliers; les peintures sont très mutilées mais Houy est représenté trois fois; il est acclamé par les siens et il reçoit le sceau royal (12).

A la XIXo dyn., Il y eut plusieurs hommes célèbres à Thèbes. Nous parlerons de Nébounef et de Bakenkhonsou sous Ramses II, Méneptah et peut-être Sethi II et de Rome-Roy qui vécut sous Ramses II, Mineptah, Sethi II, et aussi de Bai qui vécut tout à fait à la fin de cette dynastie.

NEBOUNEF, Curieuse destinée que celle de ce Nébounef dont le père était premier prophète d'Hathor dame de Dende-

rah et qui, logiquement, succéda à son père, à Dendereh, en devenant premier prophète d'Hathor ainsi que premier prophète d'Onouris, chef de tous les dieux, au Sud jusqu'à Heri-hi-amoun, au Nord jusqu'à Thinis (13). Mais voilà que dans la première année du règne de Ramses II, l'office du Grand prêtre d'Amon était vacant et le roi vint lui-même officier pour la fête d'Opet. A l'issue de la cérémonie, le roi, au lieu de choisir un grand prêtre dans le clergé d'Amon, reprend son bateau .. on aborde dans le nome thinite, on amena .... Nebounef devant Sa Majesé ... qui lui dit : Tu es désormais grand-prêtre d'Amon. Ses trésors et ses greniers sont sous ton sceau. Tu es le chef de son temple, tous ses serviteurs sont sous ton autorité. Le temple d'Hathor .... passera sous l'autorité de ton fils ... Aussi vrai que m'aime le dieu Rê et que me loue mon père Amon, je lui ai nommé tout le personnel de la cour, le chef des soldats .... les prophètes des dieux et les dignitaires de Sa Maison qui se tenaient devant Sa Face : Il ne fut satisfait d'aucun d'eux, excepté quand je lui dis ton nom ! Sois lui donc dévoué car Il te réclame (14)». Après les félicitations hypocrites de toute l'assemblée .... Sa Majesté donna à Nebounnef ses deux anneaux d'or et sa canne d'électrum (15) ; il fut nommé grand-prêtre d'Amon, directeur de la Double Maison de l'argent et de l'or, directeur du Double Grenier, directeur des travaux, chef de tous les corps de métiers dans Thèbes (16). On fit partir un messager royal pour faire savaoir à toute l'Egypte que la maison d'Amon lui était remise, ainsi que tous ses biens et tous ses gens «grâce à toi, ô Chef d'Amon qui sera jusqu'à la fin des temps (17)».

L'intronisation (18) de Nebounnef nous est connue par l'inscription gravée à droite et à gauche de l'entrée du magnifique tombeau (no 157) qu'il se fit creuser à Drah abou Neggah (19). Depuis vingt ans, le texte a beaucoup souffert bien que le tombeau ait été enfin débarrassé des fellahs qui l'occupaient. remis en état et clos. Sans doute est-ce au titre de directeur des

travaux que Nébounnef fit édifier à Gournah (20), pour son propre compte, tout en surveillant les travaux du temple voisin de Sethi I, une chapelle. Il introduisit sa femme Takhaat dans le temple de Karnak, comme supérieure des concubines d'Amon (21). On ne saura sans doute jamais les motifs qui amenèrent Ramses II à choisir ce prêtre d'un autre clergé, d'une autre ville, comme grand-prêtre d'Amon à Karnak. Etaient-ce pour les qualités du personnage (22) ? par défiance du clergé d'Amon ? Avait-il écouté le conseil d'un ami de Nébounnef qui avait audience auprès du roi ? (23).

BAKENKHONSOU, Il y eut plusieurs personnages de ce nom et même plusieurs grands-prêtres d'Amon (24). Nous voulons parler ici du 2ème du nom, sous Ramses II (25), que nous connaissons d'après sa statue aujourd'hui à Munich (26) et une autre au Caire, découverte par Legrain à Karnak en 1904 (27), d'après aussi son tombeau à Drah Abou el Naggah no 35 (28). Il nous raconte lui-même l'histoire de sa vie : «chef des prophètes de tous les dieux (29, premier prophète à Karnak .... je suis un serviteur utile à son maître. discret, équitable ... se complaisant dans la vérité ...., marchant sur les voies de son dieu, faisant des choses utiles dans son temple car je suis grand directeur des travaux dans la Maison d'Amon, à la complète satisfaction de son maître .... Je passai quatre ans en qualité d'enfant accompli; je passai douze ans en quqalité d'adolescent et j'étais alors à la tête de l'écurie d'entraînement du roi (Sethi I); je fus prêtre ouab d'Amon pendant quatre ans; je fus père divin d'Amon pendant douze ans; je fus 3ème prophète d'Amon pendant quinze ans; je fus 2ème prophète d'Amon pendant douze ans; le dieu me récompensa! Il me distingua à cause de mon mérite et me nomma 1er prophète d'Amon, fonction que j'ai exercée pendant 27 and déjà. Je fus un bon père pour mes subordonnés, instruisant les jeunes gens, donnant la main à ceux qui étaient malheureux, faisans des choses utiles dans son tem-

ple, en ma qualité de grand directeur des travaux dans Thèbes pour le compte de son fils (Ramses II) ... Je fis pour lui un temple appelé Ramses-Meri-Amon-qui-écoute-des prières (30) .... j'y élevai des obélisques en pierre de granit dont la beauté atteint le ciel .... un pylône s'élève par devant le temple ..... faisant face à Thèbes; il est inondé et les jardins sont plantés d'arbres; je fis des portes très très grandes en or-djem dont la beauté rejoint le ciel .... Je construisis de grandes barques allant sur le fleuve pour Amon, Mout et Khonsou .... J'ai été depuis ma petite enfance jusqu'à ma vieillesse dans la Maison d'Amon, le servant .... voyant ses deux uraeus. Puisse-t-il me compléter une existence heureuse de 110 ans .... (31).»

Cette biographie est sur la statue de Munich, celle du Caire ajoute peu de choses (32) : «Je sui un homme de Thèbes par mon père et ma mère, fils d'un 2ème prophète d'Amon de Karnak; je sortis de l'école des écritures située dans le temple de la Dame du Ciel, étant un enfant accompli .... Je fus instruit aux fonctions sacerdotales dans le temple d'Amon ... le dieu me distingua à cause de mon mérite .... J'ai marché sur son sol, me tenant courbé et manifestant ma crainte de sa puissance. Je n'ai pas terrorisé mes serviteurs .... J'ai assuré des funérailles à celui qui n'avait pas d'héritiers .... (33)». Voilà donc un Thébain de naissance qui, sans impatience gravit tous les échelons depuis sa naissance. Si l'on fait l'addition des années qu'il indique, on voit qu'il avait 91 ans quand il fit sculpter la statue de Munich. Né sous Horemheb et débutant sous Sethi I, grand-prêtre d'Amon avant la quarantième année du règne de Ramses, peut-être connut-il dans son extrême vieillesse (34), Merenptah et Sethi II ?. On ledéposa dans son beau tombeau orné de statues et de peintures. Sa femme, Meritseger était supérieure des concubines d'Amon (35). Sa puissance se limita d'ailleurs à Thèbes; il n'est pas question pour lui de Memphis et d'Héliopolis et il ne fut pas vizir (36).

ROME-ROY, à la fin de la XIXo dyn., est aussi un homme en qui tout semble avoir réussi et, lui auusi, nous donne avec complaisance sa biographie, ou, plus exactement, nous avons la chance de posséder sa statue au Caire no 42180 (37), ainsi que la statue CG 42186 de Karnak (38); de plus il subiste une stèle biographique au Gebel Silsileh (39). une autre statue au Caire également no 42185 (40); une dernière : JE 37874 (41). Quelle abondance !

On a cru longtemps que cet ensemble appartenait à deux personnages (Maspero, Wreszinski, Breasted) (42), mais, en fait, on emploie indifferemment l'un ou l'autre nom sur les monuments, en l'honneur du seul Rome-Roy; c'est ce qui a causé la confusion. Nous ignorons l'origine de la famille de Rome-Roy, mais il parle avec abondance de lui-même : «Je suis parvenu à l'adolescence dans la Maison d'Amon; j'étais un prêtre ouab parfait; mon esprit était avisé, mon mérite excellent .... ayant été choisi à cause de mes bonnes actions dans son temple et ayant été promu père divin .... Amon découvrit mes qualités et me récompensa à cause de mon mérite (43). Il me fit connaître du Roi, mon nom était prononcé devant les courtisans .... Amon me fit 2ème prophète .... ainsi que chef des greniers et du Trésor du temple ...... Il me plaça comme chef suprême dans son temple en qualité de 1er prophète d'Amon ...». Tout ceci se passait sous Ramses II et Rome-Roy succéda sans doute à Bakenkhonsou. Sa carrière se poursuit sous Meneptah et, de plus, il est «chef des prophètes de tous les dieux de la Haute et de la Basse Egypte», titre rarement conféré sous la XIXo dyn.; il est aussi «sacrificateur ? de Kamoutef, prêtre Sem de l'Horizon d'Eternité, grand des voyants de Rê dans Thèbes», car il sait profiter de la faiblesse de Meneptah pour assurer plus fortement sa situation. Il va jusqu'à faire graver des inscriptions à son nom ainsi que son image sur l'un des murs de Karnak

face Est du VIIIo pylône (44); les textes ont été malheureusement martelés, comme sur les status du Caire, mais on peut deviner le cartouche de Sethi II. Rome-Roy traversa donc sans ennui manifeste, les périodes troublées qui suivirent la mort de Ramses II et occupa 25 ans environ la charge de grand-prêtre. Ainsi il parvint à la vieillesse comblé des faveurs d'Amon, en touré de sa femme Tamout, chanteuse d'Amon (45), de ses enfants et petits-enfants, tous prêtres au temple de Karnak.

Sur la statue 42185 du Caire, il se félicite d'être : «un homme vaillant, vigilant, utile à son maître, ayant fait des monuments dans sa maison, d'un coeur affectueux ....», il se félicite aussi de sa bonne santé, bonne vue, de son bon estomac ... (46). Architecte, comme la plupart des grands-prêtres dont nous avons parlé, il dut aller chercher des matériaux à Silsileh, mais il ne se fit pas construire un cénotaphe comme plusieurs de ses collègues; il se contente d'une stèle le représentant en adoration devant Amon et à côté de Meneptah (47). Cette fonction d'architecte aidé sans doute beaucoup à son renom et il se vante d'être «.... d'une intelligence aiguisée, d'avoir fait divers monuments dans la Maison d'Amon, des statues en argent et or .... un naos muni de grandes portes en or incrustées de toutes pierres précieuses véritables .... des barques allant sur le fleuve pour Mout et Khonsou (48) .....» Surtout, il fit construire la demeure des Grands-prêtres, dans la partie Sud-Est du Domaine d'Amon, en dehors de la cour, entre le VIIo et VIIIo pylônes sur les bors du Lac sacré (49). Il fait restaurer le bâtiment réservé aux boulangers et brasseurs et c'est là qu'il ose se faire représenter. Il explique qu'il a trouvé la pièce complétement en ruines, pourrie, qu'il l'a fait agrandir et rendue confortable (50). Il mourut fort âge et fut enterré à Drah abou el Naggah dans un tombeau aujourd'hui ruiné (51).

BAI, trésorier, fut le ersonnage le plus considérable par son influence, sous le règne de Méneptah-Septah (52). Il fut

aussi chancelier et vizir, mais nous savons peu de choses sur lui. Son tombeau, dans la Vallée des Rois, no 13 est en partie remblayé (53). C'est la reine Taousret qui l'autorisa à se faire construire un sépulcre en ce lieu, tant elle tenait Bai en estime. On sait que cette reine Taousert avant d'épouser Meneptah-Septah (de gré ou de force, on ne sait pas), avait déjà eu comme époux, d'abord son frère Menmiré-Amenmesses, puis un autre frère Méneptat-Septah lui-même et enfin, quand au bout de six ans, celui-ci sera renversé par Sethi II, elle épousera en 3ème noce le nouveau roi (54).

RAMSESNAKHT fit carrière sous Ramses IV et ses successeurs à la XXo dynastie. De famille sacerdotale (55) il sut s'imposer et imposa sa famille dans le temple d'Amon à Karnak; pour la 1ère fois la charge de grand-prêtre d'Amon fut transmise de père en fils; il eut pour successeur ses deux fils. Le personnage nous est bien connu grâce aux deux statues que Legrain retira de leur cachette 56, toutes les deux fort belles, et, l'une au moins célèbre et connue comme «le prêtre au singe» avec le petit cynocéphale Thot perché sur sa tête tandis qu'il médite. Ramsesnakht nous apprend qu'il est «directeur des travaux concernant tous les monuments de Sa Majesté, chef des prophètes de tous les dieux de Thèbes, secrétaire du Roi, grand intendant du Château royal (Medinet-Habou), grand des voyants de Ré-Atoum dans Thèbes, 1er prophètes de tous les dieux d'Ounou (Hermopolis), secrétaire du Roi, Majordome du Maître du Double-Pays, Meribastit» (57), c'est-à-dire que sa famille était originaire d'Hermopolis ((800 ou 900 ans avant Petosiris); c'est pourquoi il se place sous la protection de Thoth. C'est sur cette même statue faite par les soins de Nesiamon, fils de Ramsesnakht, que nous comprenons que le fils succède à son père dans la charge de pontife.

Une des filles de Ramsesnakht était «supérieure des concubines d'Amon» et épousa un prêtre d'Amon, de Rê et de Mout

(58). Ramsesnakht ne semble pas avoir suivi toute la filière dans la hiérarchie des prêtres et, peut être par faveur royale, il devint rapidement grand-prêtre d'Amon ainsi que «chef des prophètes de la Haute et Basse Egypte». En même temps, il était «grand confident de Sa Majesté»; également, comme tous ceux que nous avons suivis. il était archietecte dirigeant les travaux concernant tous les monuments d'Amon dans Karnak (59). L'épisode le moins brillant est celui de l'expédition dirigée par Ramsesnakht, non au Gebel Silsileh, comme ses devanciers, mais à Ouadi Hammâmât où l'on trouvait une sorte de schiste pour la contruction, «la bonne pierre de bekhen». Le roi, qui avait environ quarante-cinq ans, se rend en ce lieu, la 2ème année de son règne, à la suite d'une révèlation (60); l'année suivante, il envoie une expédition dirigée par le Grand-prêtre et composée de 8362 hommes + 900 qui moururent en cours de route ou pendant l'opération, par manque d'eau, maladie, ou attaques des Bédouins. Les spécialistes : carriers, tailleurs, dessinateurs, sculpteurs étaient 130 sous la direction de deux ingénieurs des mines.

Ce grand-prêtre qui jouissait de la considération de tous, n'eut pas à remplir de charges publiques, il ne fut pas vizir. Sa tombe creusée à Drah abou el Naggah, no 293 est aujourd'hui complètement ruinée (61).

La ville de Thèbes à la fin de la XXo dynastie a laissé le souvenir de deux hommes très célèbres et à des titres bien différents. L'un est **OUNAMON** dont les voyages sont connus de tous, et c'est **HERIHOR** qui lui ordonnera ces voyages, Hérihor, grand-prêtre d'Amon qui deviendra roi.

Les mésaventures d'OUMANOM furent plusieurs fois traduites (62). On sait que le papyrus fut trouvé en 1891 dans les environs d'El Hibeh et acquis par Golenischeff qui fut le 1er à

traduire le texte aujourd'hui à Moscou. Moller l'attribue à la XXIIo dynastie, mais faisant allusion à des évènements qui se seraient déroulés à la fin du règne de Ramses XI. C'est à dire qu'il y a une base historique au récit d'Ounamon. Le papyrus actuel serait peut-être la copie d'un original écrit du vivant d'Ounamon, selon le rapport officiel rédigé par celui-ci. L'Egypte, sous les derniers Ramssides, avant la prise de pouvoir par Hérihor, était en pleine décadence et peu respectée à l'étranger, comme le montrent les mésaventures du héros. Il fut d'abord difficile de recueillir l'argent nécessaire pour la réparation de la grande barque Ousir-hat-Amon. Ensuite, il fallait aller au Liban chercher le bois nécessaire pour cette réparation. Hérihor, de sa propre autorité, envoie Ounamon pour cette mission. Celui-ci accompagnera la statue Amon-du-chemin dont on doit faire don au roi, mais les mésaventures du pauvre Ounamon seront nombreuses et racontées avec beaucaup de charme et de vie :

1) Dans le pays de Tekel (entre Beirut et Hazifa), Ounamon est volé de l'or et argent nécessaires à son voyage; il ne peut obtenir justice.

2) Après escale à Tyr et Byblos, il expose au roi l'objet de sa mission; les négociations sont pénibles et durent plusieurs mois; il faut envoyer en Egypte une ambassade pour obtenir un supplément de cadeaux.

3) Le Roi de Byblos accepte enfin de faire abattre les cèdres nécessaires à la réparation de la barque.

4) Ounamon embarque avec sa cargaison, fait naufrage à Chypre où les habitants le malmènent, mais la reine, heureusement, le traite avec bienveillance. On ne sait pas la fin de l'histoire .... le manuscrit s'arrête là ... Mais si Ounamon eut la possibilité de faire un rapport sur son voyage,

c'est que, finalement, il réussit à arriver à destination, à rejoindre Thèbes.

L'histoire du grand-prêtre d'Amon **HERIHOR** est celle d'un inconnu (63) qui deviendra grand-père, puis roi. On ne sait rien de positif sur ses origines et les suppositions sont dangereuses (64). Il appartenait sans doute à l'armée car souvent les titres de «général en chef» et «chef des bandes étrangères» lui sont donnés, ainsi que, bien entendu, celui de «grand-père, d'Amon» bien qui'l ne semble pas avoir suivi de filiere sacerdotale. Moins de deux ans après sa nomination de grand prètre le roi le nomme vice-roi de Nubie et vizir (65) «en l'an 19 de Ramses XI». Ounamon est dépêché en Syrie, non par le roi, mais par «Hérihor. mon maître» (66). Sur les murs de l'hypostyle du temple de Khonsou s'étalent ses titres d'«Administrateur de la Haute et Basse Egypte, directeur des travaux concernant les monuments de Sa Majesté, général des troupes du Sud et du Nord, chef des bandes étrangères, noble placé à la tête du Double Pays.... (67)». Le roi abandonne la décoration du temple de Khonsou à Hérihor dont le nom se retrouve partout, au moins aussi fréquemment que celui du roi. Ailleurs sur les parois du temple, c'est Hérihor qui est montré officiant, au lieu de la personne royale; le roi est encore nommé dans la salle hypostyle, par un reste de déférence, mais dans la cour du temple, la situation a changé, et, de toute évidence. Hérihor a pris alors la place du roi, il a ceint la couronne et s'est donné un protocole royal, avec nom, prénom, cartouches; son prénom est son titre même de 1er prophète d'Amon, son second cartouche renferme son nom personnel, Hérihor et son surnom, Si-Amon (68). La transition s'est faite grâce à l'intervention d'Amon, comme le dit l'inscription sur le mur Nord de la cour, promettant au grand-père d'Amon la royauté, alors que Ramses XI était encore sur le trône. Hérihor était qualifié alors de : «directeur des greniers et fils royal de Koush». inscription postérieure à la 17ème année de Ramses XI; c'est de cette époque que doit dater l'unique statue de Hérihor trouvée par Legrain

dans la favissa de Karnak (69). Sur les inscriptions de la statue, Hérihor, avec tous ses titres, ne reconnaît plus qu'un maître, son Dieu. Il était âgé lorsqu'il devint roi et ne le resta que quelques années.

A la XXVo dynastie, Thèbes eut un patriote célèbre en la personne de **MONTOUEMHAT.** On a beaucoup écrit sur cette intéressante figure dont les statues sont nombreuses, celle du Caire 42236 en particulier (70). On s'est longuement occupé de traduire la grande inscription dans le temple de Mout à Karnak où Montouemhatt a raconté sa vie (71). Nous suivrons la dernière étude qui met le mieux au point la question et rectifie des erreurs (72). Il faut remarquer d'abord que notre personnage a tenu à se présenter aux dieux et la postérité, sous un aspect idéal de sorte que sa biographie reste très imprécise et, en dépit de la mazse de documents, il est assez malaisé de préciser la nature des pouvoirs dont a pu jouir Montouemhat et son rôle dans la société d'alors (73); à coup sûr, sa personnalité fut hors du commun, mais elle nous échappe. On peut dire que ce fut un habile politique qui suvit Taharqa, comme nomarque de Thèbes alors occupée par les Assyriens (74); on sait qu'il termina sa carrière à un âge assez avance, vers la fin du règne de Psammétique; c'était peut-être une âme pieuse et certainement soucieuse de la tradition puisqu'il chercha à restaurer sa ville; ses oeuvres témoignent en sa faveur. Montouemhat n'était pas un nègre comme on l'a souvent écrit, mais il avait sans doute du sang éthiopien dans ses veines. C'était un Hamite dont on connaît, dans sa famille jusqu'à vingt cinq générations (75). Cette famille occupa les plus hautes fonctions politiques et dans le sacerdoce thébain ce sont des Thébains relliés. On ne saurait non plus affirmer que notre personnage a gagné la confiance de «l'épouse du Dieu, Amenirdes, fille de Piankhi» et qu'il gouvernait au nom de cette princesse, mais ses activitée furent personnelles et réelles. Ses ancêtres sont des prophètes d'Amon

et des gouverneurs de la ville, des vizirs; l'un est grand-prêtre à Hermopolis, un autre grand-prêtre de Montou; son père est prince de la ville, prophète d'Amon et de Montou. De sa mère, on ne connaît que le nom, la dame Isatenkheb (76). Lui-même fut «Prince de la Ville, comme son père, et il y adjoignit «gouverneur de la Haut Egypte» (77); attaché au clergé d'Amon, il restera 4éme prophète. Sur sa vie privée, nous savons qu'il eut plusieurs épouses; la 1ére se nommait Chepenmout; la 2éme, Neskhonsou, fut mère de Nesiptah, fils et héritier de Montouemhat; plusieurs groupes statuaires les associent ainsi que les inscriptions de la chapelle du temple de Mout, et c,est Nesiptah qui accomplit les rites funéraires dans la grande tombe de l'Assassif; la 3ème épouse, Oudjarenes, la mieux connue, est avec lui dans la tombe de l'Assassif, no. 34; c'est elle qui, à la suite de Montouemhat, fait des dons à nouvelle divine Adoratrice sur la stèle de l'adoption de Nitoris (78); elle est «prêtresse d'Hathor» .... «chanteuse d'Amon .... la noble unique du roi.... fille d'un royal» (éthiopien?). Une fois Montouemhat disparu, sa descendance ne connut pas une destinée particulièrement glorieuse. Dans le bilan du personnage, inutile de discuter l'hypothèse de Legrain selon laquelle il aurait pu être en fonction du Chepenoupet et d'Amenirdis I (elles étaient défuntes). Sa place, par contre, du temps de Taharqa, est bien connue grâce à la célèbre inscription du temple de Mout, antérieure à la prise de Thèbes par les Assyriens en 663. Auparavant déjà, les Annales d'Assurbanipal font connaître Montouenbhat parmi les princes qui reçurent l'investiture du roi Assarhaddon. Au temps de Psammétique I, l'activité de Montouemhat eut pour centre, le Delta et, jusqu'à ces dernières années, on pensait voir la fin de sa carrière avec la l'adoption de Nitocris, selon laquelle, en l'an IX de ce roi, il vivait encore comme prince de Thèbes mais, la découverte de l'inscription de Ouadi Gassous (79) montre que Montouemhat exerçait encore son activité en l'an XIV ou XVI de Psammétique I et c'est ce pharaon qui est représenté dans la

tombe de l'Assassif(80). Donc, sauf pour un moment dans le Delta, c'est à Thèbes et en Haute Egypte qu'on trouve notre personnage «grand de monuments dans Thèbes, grand de magnificence dans les nomes de Haute Egypte, amulette de protection pour la Haute Egypte...». De Thèbes jusqu'à Achmounein au moins s'exerçait son autorité : «la Haute Egypte tout entière était sous ma dépendance, la limite méridional allant jusqu'à Elephantine et septentrionale jusqu'à Hermopolis»...(81). On le trouve aussi à Ouadi Hammamat et Ouadi Gassaus, à Abydos(82). Sa richesse personnelle est attestée par la splendeur de sa tombe à Assassif. Ses inscriptions insistent sur la prospérite de la région qu'il administre et il voulut ètre un bienfaiteur en même temps qu'un bâtisseur, mais, en fait, il est assez difficile de préciser dans l'abondance de ses titres, souvent laudatifs et honorifiques(83), à la manière saite, les limites réelles de ses pouvoirs : «gouverneur de la Haute Egypte, chef de nome, prince de la ville, régent des contrées étrangères...», il était sûrement préposé à la police des frontières, plus vers Ouadi Gassous que vers Eléphantine. De toutes façons, ce sont surtout des titres locaux, très rarement des titres auliques. Ses titres sacerdotaux sont modestes, il n'est que 4éme prophète d'Amon (les qlus hauts titres sont occupés par des princes de la famille royale) ; il est scribe sacerdotal du domains d'Amon, prophète de Khonsou et de Sokar, père divin, chef de phylé(84). A coup sûr, ce puissant chef local, dans une période troublée, sut maintenir le pays dont il avait la charge, à l'écart des dangers.

MO'ALLA

La tombe **d'ANKHTIFI,** à **MO'ALLA** donne de précieux renseignements sur l'histoire des nomarques à la Xo. & XIo. dynasties et sur l'histoire de ce personnoge qui fut célèbre à son epoque. Un prince d'Hiérakonpolis, inquiet des ambitions thébaines se résolut à agit. A ce moment, les nomarques thébains reconnaissaient au souverain d'Hiérakonpolis une sorte de suze-

raineté (85). C'est pourquoi le prince envoie son fils Aikhtifi pour essayer de déposer Khoui, nomarque d'Edfou, coupable de fidélité au prince de Thèbes; Ankhtifi est victorieux et il gouverne les nomes d'Edfou et d'Hiérakonpolis(86); puis il s'allie au prince d'Eléphantine et ose s'attaquer aux forces thébaines qui venaient attaquer Ermant et l'assiéger; là encore Ankhtifi est victorieux(87). Le prince était alors «chef des interprêtes» en Nubie, c'est-à-dire une sorte de haut commissaire de l'Egypte en Nubie, en même temps que» prince et noble, trésorier du roi de Basse Egypte, compagnon unique, chef des prophètes, chef des régions montagneuses, grand chef des nomes d'Edfou et de Hiérakonpolis (88)» Les nomarques thébains cependant, princes énergiques et prudents, attendaient leur heure de revanche(89). Ankhtifi fut interrompu dans sa guerre par une terrible famine qui désola la Haute Egypte; il se vante d'avoir nourri le pays d' Oùaouat plusieurs mois durant cette famine (90). Aucun prince thébain n'est nommé sur sa tombe car ils étaient ses aversaires, l'un d'eux surtout était un rival dangereux, mais, ce que ne dit pas l'inscription de Moc alla c'est que ce prince thébain, Antef, par la suite, fut victorieux; il s'arrogea la dignité royale, fondant la dynastie des Antef (I, II, III) qui allait refaire l'unité de l'Egypte.

A EL KAB, entre Edfou et Louxor (nom moderne de Nekheb), on trouve plusieurs tombeaux, parmi lesquels celui de l' Amiral AHMES, fils d'Abana né à El kab(91). Nous connaissons la vie d'Ahmes par l'inscription qui est sur sa tombe, ce qui nous reseigne, en mème temps, sur l'expulsion des Hyksos(92). Cet Ahmès portaite le mème que son roi. Plein de courage, à maintes reprises, «il captura une main au cours des combats» (= il tranche la main de l'adversaire). Il ne fut pas récompensé moins de sept fois avec «l'or de la vaillance», par le roi Amosis et ses successeurs, recevant des colliers, des figurines en or, lions ou mouches, symboles de courage. Il raconte : «mon père était officier du roi et je grandis dans la ville d'El-Kab;

dans ma jeunesse, alors que j'étais encore celibataire, je devins officier sur le « Taureau sauvage » (= le bateau), mais, après que j'eusse fondé un foyer, je fus affecté à la flotte du Nord, à cause de ma vaillance .... Lorsque on mit le siège devant Avaris, je luttai à pieds devant Sa Majesté et prouvai ma vaillance. Je fus ensuite affecté au bateau « Resplendissont dans Memphis ». Lorsqu'on se battit sur l'eau.... à Avaris, je fus courageux et rapportai une main; on en informa le héraut et l'on me donna l'or de la vaillonce»... Envoyé en Haute Egypte pour un soulévement, Ahmès ramena un prisonnier à la nage .... nouvelle récompense en or. Avaris vaincu, il reçut un homme et trois femmes comme esclaves. Il lutte aussi en Palestine, près de Sharouhen, puis en Nubie, contre les tribus du desert «Sa Majesté en fit grand carnage». Bien que l'Amiral donne bien peu d'explications, on arrive à sairsir que la tâche de repousser les Hyksos fut dure. Il fallut peut-être dix ans pour la chute d'Avaris, on guerroya trois ans en Palestine, plusieurs années en Nubie(93). Ahmès, fils d'Ibana, lutte toujours courageusement, non seulement sous Ahmosis, mais sous Amenophis I, sous Thoutmosis I. Il est nommé «chef des nautonniers et des navigateurs», il capture un char de combat, continue les massacres, les prises d'otages; finalement, il arrive dans sa viellesse....» je fais mon entrée dans la tombe rupestre que je me suis faite moi-même à Nekheb...».

Notre Ahmès n'est pas à confondre avec **AHMES-PANNEKHEBET** qui mourut pendant le règne d'Hatshepsout (94). Au cours de l'expédition d'Ahmosis en Phénicie, Ahhmès-Pennekhebet fit un prisonnier, c'est, malheureusement le seul détail qui nous soit parvenu sur lui !

A côté de la tombe de l'amiral Ahmès, fils d'Ibana, est celle de son petit-fils PAHERI. La tombe possède de belles peintures ne représentant pas scènes de gurres(95). Le petit-fils ne marche pas sur les traces de son grand-père en ce qui concerne les combats, les victoires, les récompenses. Son père avait été chargé de l'éducation d'un fils royal(96). le prince Ouadj-

mes (97); Paheri est représenté avec un enfant royal sur ses genoux un autre prince Ouadjmes, sans doute frère cadet de Thoutmosis III (98) dont il est chargé de l'éducation. On peut lire le souhait de Paheri : «Puisses-tu traverser l'éternité en douceur de coeur, dans les faveurs du dieu qui est en toi» (99). On voit qu'il s'agit surtout d'expériences intérieures....» j'ai été placé sur balance, j'en suis sorti examiné, intact, sauvé; j'allsai et je venais, mon coeur possdant les mèmes qualités. Je n'ai pas dit de mensonges contre quiconque, car je connaissais le dieu qui est dans l'homme; j'en étais parfaitement instruit et je savais distinguer ceci de cela. J'ai accompli toutes choses conformément aux paroles... «Le langage est volontairement sybillin, mois le souci spirituel est évident (100).

EDFOU

Une colline de décombres, le Kom d'Edfou, constitue les restes de la ville antique. C'est là qu'on a retrouvé le tombeau du très célèbre vizir divinisé **ISI** (101). Le premières fouilles sont dues à Alliot(102) et à Ragheb Ibrahim(103), Inspecteur des Antiquités à Edfou en 1932-3 qui mit à jour le mastaba du gouverneur Isi. Celui-ci vécut à la V-VIo. dynastie. On possèdo une statue C 250 au Louvre et une stèle de cet Isi, fonctionnoire du Double Trésor sous les rois Isesi et Ounas. Il fut directeur des bureaux royaux à Memphis, puis grand chef de province à Edfou sous le règne de Teti (104). On sait aussi qu'un de ses fils Kar-Merirê-nefer(105) fut, plus tard gouverneur de la même province. Récemment, une mission franco-polonaise continua les founilles dans ce Kom d'Edfou et le Louvre a acquis une partie du mastaba d'Isi (106). Il n'y aurait jusqu'une destinée de haut fonctionnaire telle que la vécurent des milliers de hauts fonctionnaires mais la célébrité d'Isi tient à ce qui se passa après sa mort. Le mastaba a été rempli, à partir du début du Moyen-Empire, de stèles maçonnées dans murs, de statues enfumées dans des naos et de tables d'offrandes(107). Tout cela, dédié

par les habitants d'Edfou et de la province, «au saint vizir, au dieu vivant». La religion populaire(108) a connu ainsi de véritables divinisations de modestes individus, réputés sans doute pour leur sagesse ou leurs vertus. Isi, à la fin de l'Ancien-Empire, recevait un culte dans son tombeau, mais ce culte local ne semble pes avoir duré plus de cinq siècles, jusqu'à la fin de la XIII dynastie. Quelques unes de ces stèles dédiées au «dieu Isi» avaient été signalées avant les fouilles d'Edfou(109) et semblaient mystérieuses jusqu'à leur découverte.

ASSOUAN

«Eléphantine est une forteresse, un poste douanier, un poste de transit, capitale du nome sous la direction de Princes explorateurs dont les tombes perchées sur la haute rive d'Occident, nous renseignent par leurs textes». Ces princes seront des hommes célèbres saus l'Ancien Empire(110).

Le 1er prince dont nous retenons le nom est **HARKHOUF.** Sa tombe, no. 35 est à mi-hauteur du Gebel (III); on y accède par deux escaliers encadrant une rampe qui servait à hâler le sarcophage jusqu'à la terrasse sur laquelle s'ouvraient les tombeaux des princes d'Elephantine, entre la VI et XII dynastie. Cette tombe est très simple, avec une salle soutenue par des piliers non décorés, mais ce qui est de grand intérêt, ce sont les textes gravés à l'extérieur, de chaque côté de la porte. Harkhouf était: «prince et gouverneur du Sud(112)», fonction dans laquelle il dut succéder à son pére Iri. II était aussi « porteur du sceau royal, compagnon unique, prêtre ritualiste, conducteur de caravanes, intendant de la chambre, attaché à Nekhen, maître de Nekheb». II exerçait toutes ces fonctions sous Mernrê. Ce sont ses voyages dans l'extrême Sud qui donnèrent à notre prince sa renommée. Le 1er voyage, avec Iri, dura 7 mois et consista à tracer la route d'Eléphantine vers le pays de Iam, dans la direction de Ouadi-Halfa; il rapporta un gros butin. Le 2ème

voyage est au pays de Irtet; Harkhouf dirige seul cette fois l' expédition qui dure 8 mois et il trouve une route différente, par les pays de Mekher (113, de Tereres, pour le retour, ce qui est un exploit dont il rapporte beaucoup d'objets précieux. Le 3ème voyage est au pays de Iam dont le prince était en guerre contre les Bédouins dans l'oasis de Salimeh. Il veut battre les Bédouins jusqu'à «l'angle occidental du ciel» Il pacifie le pays et revient avec une caravane de butin : 300 ânes chargés d'encens, de peaux, d'huile, d'ébène, de blé, d'ivoire, de boomerang. Il suscite l'admiration des tribus qu'il rencontre et qui lui offre des présents; le pharaon envoie en remerciement, du vin de datte, du pain, de la bière. Le 4ème voyage, sous le règne de Pépi II encore enfant, conduit Harkhouf encore plus loin vers le Sud et c'est lors du retour de ce voyage qu'Harkhouf annonce au roi qu'il rapparte un nain danseur(114). Le cadeau à venir est si apprécié par ls roi-enfant qu'il adresse de suite une lettre réponse à Harkhouf .. «année 2, 15 ème jour du 3ème mois de l'inondation, lettre adressée à l'ami unique, chef drogman .... tu as dit que tu as rapporté un deng pour les danses du dieu, provenant du pays des Esprits, semblable au nain qu'on a rapporté de Pount .... du temps du roi Djed-Ka-Rê- Isesi (c'était un pygmée rapporté par un certain Baourdjedt)......(115)». Nous en savons plus sur les précautions à prendre pour garder le nain en bonne forme jusqu'à son arrivée à la cour que sur les résultats du voyage lui-même. Harkhouf fit graver le contenu de la lettre royale sur le montant de la porte de sa tombe. Des ordres avaient été donnés aux gouverneurs des villes, aux grands prêtres, tout le long du voyage, pour qu'ils prélèvent les approvisionnements nécessaires à toute la compagnie.

PEPINAKHT, surnommé **HEKAIB,** sous Pepi II également, fut pour les mêmes raisons qu'Harkhouf et leur tombes sont voisines et bâties sur le même plan; mais cette dernière est en partie comblée par le sable de sorte que les inscriptions contenant des textes biographiques et le récit de ses expéditions en

Nubie sont en partie effacées (116). Pepi II voulait aussi envoyer un bateau au pays de Pount, mais, tandis que le chef de l'expédition surveillait la construction du bateau, les Bédouins les attaquèrent et les massacrèrent. Pépinakht fut envoyé pour venger l'affront et ramener les dépouilles des victimes (117).

MEKHU et **SABENI.** Les tombeaux mitoyens (118) du pére et du fils (VI dynastie) sont parmi les plus importants de la nécropole d' Assouan et situés dans l'axe des escaliers et de la rampe d'accès. Grâce à l'inscription sur la tombe de Mekhu, nous connaissons l'histoire. Ce nomarque avait été tué lors d' une expédition en Nubie; il était : «l'ami unique, le prince héréditaire» (119). Son fils Sabeni lui a succédé dans ses fonctions; de plus, il fut : «chef de l'ouverture de la porte d'Eléphantine» (120). Il rassemble les troupes de son nome et se rendit avec elles en Nubie pour retrouver la dépouille de son pére. Il emmena aussi cent ânes chargés de tout ce qui est nécessaire à l'embaumement d'un cadavre, et, de plus, des présents pour les Barbares. Ilréussit à obtenir le cadavre, confectionna un cercueil pour l'y placer et le chargea sur un âne. Il parvint ainsi a le ramener de Nubie à Assouan. Ce fut un exploit dont Sabeni informa le roi et celui-ci le loua d'une action aussi admirable.

HEKAIB était nomarque à Assouan sous la VI dynastie. Réputé sans doute pour sa sagesse et ses vertus, il lui arriva, après sa mort, une aventure semblable à cells d'Isi d'Edfou, il fut divinisé et reçut un culte dans son tombeau (120). Aux Moyen-Empire un sanctuaire fut élevé dans l'île d'Eléphantine en son honneur et il fut invoqué au même titre que les autres dieux (122). Les fouilles récentes de Labib Habachi en 1949 ont révélé l'existence d'un culte local important (123); ces cultes, en général, ne duraient que quelques siècles, seul celui d'Amenhotep, fils de Hapou, resta pratiqué jusque sous les Ptolémées.

La célébrité du prêtre **PENANOTQUI** (124), à Assouan,

sous Ramses IV & V fut de mauvais goût. C'est pour ses vilaines actions qu'il fut connu. Tout allait mal alors en Egypte; le temple de Khnoum était cependant toujours prospère, enrichi par la générosité des rois. Quelques prêtres de ce temple suivirent malheureusement les conseils d'un des leurs, Penanouqui, et d'un batelier, son ami. Nous connaissons les faits parce que les personnages furent mis en accusation. Pénanouqui avait vendu les animaux sacrés à des prêtres ou à des militaires. Lors d'un voyage à Thèbes, il avait été mêlé à une sombre histoire d'oracle et il avait débauché deux femmes mariées. Dans le temple de Khnoum il multipie les vols : une riche amulette protectrice, des coffrets précieux contenant des étoffes; il renvoie le personnel mécontent de ses procédés et prend à son service des prêtres moins délicats; il malmène les protestataires en coupant les oreilles et en crevant les yeux; il vole vingt boeufs du temple, incendie plusieurs édifices. D'autres, naturellement, suivirent son exemple et on rompit même les scellés du trésor du dieu, on puisa sans façon dans le grenier à blé, on prit les pièces de drap, les habits. Quand le procès eut lieu, Pénanouqui acheta les autorités (scribes et préfets), grâce à l'argent de ses vols (125). Le texte ne dit malheureusement pas l'issue du procès mais certains prêtres compromis continuèrent quand même une brillante carrière. Cet état de choses s'expliquait évidemment par la faiblesse du gouvernement.

DERR- en- NUBIE

Un temple de l'époque de Ramses II, consacré à Amon-Rê, avait été excavé dans la colline, et, sous Ramses VI, le prêtre PENNOUTI (126) était chargé de l'entretien. Il était aussi gouverneur du pays des Ouaouat et chargé du temple d'Horus à Kasr Ibrim. Deux des membres de sa famille occupaient aussi des postes de trésorier et de prince d'Ibrim. Les inscriptions de sa tombe située non loin, sur une colline rocheuse, à Aniba(127) expliquent sa biographie. Le fils royal de Kouch annonce au roi que Pennout a rendu à son souverain les terres qu'il

à conquises sur les peuples du Sud. On célèbre la donation de territoires pour le service du culte de de trois statues royales dans la ville de Myem (= Ibrim). Pennout avait fait aussi ériger une statue de Ramses VI dans le temple de Derr; en récompense le roi lui envoie deux plats d'or et d'argent pour mettre les gommes et roi dit au vice-roi de Kouch(128) : «Donne les deux plats au gouverneur»; je ferai ainsi» répond le vice-roi, «cet heureux jour sera célébré dans tout le pays»(129).

Ces inscriptions nous informent de tout ce que nous savons sur l'administration égyptienne en Nubie, à l'époque (130).

NOTES

(1) Revue de la Société égyptienne des Etudes historiques, t.25 (1978), p. 33-63

(2) Davies, **The Tomb of the Vizir Ramosé,** p. 23-4, pl. 25; Settgest, **Unter. zu Altagypt. Bestattungs dorstellugen,** p. 33 = PM **Private Tombs,** p. 108(5).

(3) Daumas, **La civil. de l'Egypte pharaon.,** p. 319 320, 325.

(4) PM IV, p. 219-221(7) = Davies, **The Rock tombs of El Amarna** VI, pl. 1-10 & p. 1-6 = Bouriant-Legrain-Jequier, MIFAO 8, p. 123-7, pl. 82-5 = Daressy, RT 15, p. 37.

(5) PM. **Private Tombs** (1970), p. 293-5 = Davies, **JEA 9,** p. 136-145 pl. 23 = Sandman, Texts from the time of Akhnaton (BAe 8), p. 140-2.

(6) Pour ce titre, voir Lichtheim, JNES 7, p. 163-179, p. 9-16; Leclant, **Recherches sur les nom. thébains,** p. 385; id., **Enquêtes sur les sacerdoces,** p. 3, 104; id., **Karnak Nord IV,** p. 114-5; id., JNES 13, p. 160, 167, 183; Sander-Hassan, **Gottesweib,** p. 25-6 & 40-1.

(7) Gauthier, RT 39, p. 179-238; Reisner, JEA 6, p. 28-55, 73-88; Save-Soderbergh, **Agypten und Nubien lund,** p. 175-230; Habachi, **Nubie,** p. 51-68 & id., **Kush 9,** p. 210-225; Cerny, Egypte from the death of Ramesses III dans CAH I p. 29-40; id. **Kush** 7, p. 71-5; Drioton-Vandier, **L'Egypte**, p. 443-505.

(8) Daumas, **o.c.,** p. 435, 493.

(9) Drioton-Vandier, o.c., p. 417; Daumas, o.c., p. 435.

(10) PM, **Private Tombs,** 1970, p. 75-7 = Davies-Gardiner. **The tomb of Huy,** p. 14-18, pl. 10-39; Champollion, **Notes descr.** 1, p. 477-80; L.D. texte III p. 301-6; Helk, Urk p. 2064-37 (792)

(11) Davies-Gardiner, **o.c.,** pl. 19-21 & 28-30= **L D** III, 115-6.

(12) Gardiner, **The Tomb of Huy,** pl. 4-9, 29, 40, p. 10-14, 20-1.

(13) Lefebvre, **Hist. des grands-prêres d'Amon,** p. 117, 120, 249.

(14) Lefebvre, **o.c.,** p. 118-120.

(15) Lefebvre, **o.c.,** p. 121..

(16) Lefebvre, **o.c.,** p. 121.

(17) Lefebvre, **o.c.,** p. 121-2.

(18) Lefebvre, **o.c.,** p. 122 = Sethe, **ZAS 44**, p. 30-5, pl. 1-3 = Champollion, **Not descr. I,** p. 851-2.

(19) PM. Private Tombs, p. 266-8 = Fisher, in Penn. Mus. Joun. 15. p. 45-7 = Borchardt, ZAS 70, p. 27 fig. 5 = **L D texte** III, p. 239 = Champollion, **o.c.,** p. 852

(20) PM. o.c., 1972, p. 421 = Petrie, **Gurneh,** p. 14 pl. 47 = Lefebvre, o.c., p. 122 & n. 2.

(21) PM. o.c., p. 266.

(22) Lefebvre, o.c., p. 123.

(23) c'est une opinion personnelle.

(24) Lefebvre, o.c., p. 290 (indices); PM. o.c., p. 481 index.

(25) Lefebvre, o.c., p. 253-4 (22).

(26) Lefebvre, o.c., p. 127-136, 253 (22a).

(27) Lefebvre, o.c., p. 253 (22b) = PM. o.c., p. 63.

(28) PM. o.c., p. 61-2 = Champollion, o.c. I, p. 538 = LD texte III, p. 240 = Fisher in Penn. Journ. 15. p. p. 47 = Lefebvre o.c., p. 253 (22d).

(29) Lefebvre, o.c., p. 129.

(30) Lefebvre, o.c., p. 129.

(31) Lefebvre, o.c., p. 130.

(32) Lefebvre, o.c., p. 130-1.

(33) Lefebvre, o.c., p. 131.

(34) Lefebvre, o..c., p. 134. On sait que l'âge idéal était 110 ans = Traunecker, **BIFAO 69**, p. 224 = Janssen, **OMRO 31, p. 33-43 = Lefebvre, L'âge de 110 ans et la viellesse chez les Egyptiens** dans **CR** de **AIBL,** 1944. p. 106-119.

(35) PM. o.c., p. 61.

(36) Lefebvre, Hist. des grands-prêtres p. 135.

(37) Texte traduit par Lefebvre, Inscr. no 10.

(38) Lefebvre, Hist des grands prêtres p. 150-153, 256 (23c).

(39) Lefebvre, o.c. p. 256 (23h) = **LD** III, 200a.

(40) Lefebvre, o.c., p. 148, 256 (23a).

(41) Lefebvre, o.c., p. 150, 256 (23b).

(42) Lefebvre, o..c.. p. 141.

(43) Lefebvre, o.c., p. 145.

(44) Lefebvre, o.c., p. 146.

(45) PM. o.v., p. 365.

(46) Lefebvre, **o.c.,** p. 148.

(47) Lefebvre, o.c., p. 149.

(48) Lefebvre, o.c., p. 150.

(49) Lefebvre, o.c.. p. 150-1.

(50) Lefebvre, o.c., p. 151.

(51) PM. o.c., p. 365-6; Fisher, **in Penn. Mus. Journ.** 15, p. 41-3; Davies, **JEA 10,** p. 11-2 pl. 6.

(52) Drioton-Vandier, L'Egypte, p. 355.

(53) PM. o.c., 1964, p. 527 = Lefebvre, **Les hypogées royeux de Thèbes, MIFAO** 3 D, p. 122.

(54) Drioton-Vandier, o.c., p. 377-8.

(55) **Lefebvre Hist. desgrands-prêtres,** p. 177-33 & 263-6.

(56) Legrain, Stat. CG 42163, pl. 27 & 42162 pl. 26= Lefebvre, o.c., p. 263 (28a-b).

(57) Lefebvre, o.c., p. 179.

(58) Lefebvre, o.c., p. 265.

(59) Lefebvre, o.c., p. 266.

(60) Piankoff, BIFAO 43, p. 1-50 ; Weigall. **Hist de l'Egypte anc.,** p. 179.

(61) PM. o.c., p. 376.

(62) Lefebvre, **Romans et contes égyp.,** p. 204-220; Golenischeff **Voyage de l'Egyptien Ounou-Amon en Phénicie, p. 6-30; Breasted, AR IV & 557-591; Leclant, Les relations entre l'Egypte et la Phénicie du voyage d'Ounamon à l'expédition d'Alexandre** (extr. The role of th Phen. in the interac. of Mediterr. Civilis., Beirut), 1968, p. 9-31.

(63) Cerny, **Egypt from the Death of Ramesses III** dans CAH, p. 32; Lefebvre, **Hist. des grands-prêtres**, p. 205-213, 274-5; Breasted, AR IV 619-626; Gauthier, L R III p. 232-240; Gardiner, Egypt of the Pharaons, p. 305; id. A political crime in Ancient Egypt, p. 59-62; Nims, JNES 7, p. 157-168, pl. 8; **Kees Hohenpriester,** p. 87-91; id., **Das Priestertum, p. 220; id., Herihor und die Aufrichtung des Thebanis. Gottesst.,** p. II; Wrezinski, **Die Hohenpriester des Amon** ; 35; Wente, JNES 26, p. 164-170; Young, JARCL II, p. 99-100.

(64) Lefebvre, o.c., p. 205-7:

(65) Cerny, o.c., p. 32-4.

(66) Lefebvre, o.c., p. 207.

(67) Lefebvre, o.c., p. 274-5 = Gauthier. LR III, p. 237 (XIX); Wente, JNES 26 p. 162=PM **Theban Temples,** p. 230(18); Cerny, o.c., p. 46 ; M. Bon heme, BIFAO 79, p. 267-83

(69) Lefebvre, o.c., p. 273 (31 f) = traduit par le même auteur dans ASAE 26, p. 63-5.

(70) Leclant, **Moutuemhat, BdE 35,** p. 3-20.

(71) Leclant, o.c., p. 193-238.

(72) Leclant, o.c., p. 259-279.

(73) Leclant, o.c., p. 259.

(74) Leclant, o.c., p. 260-1 & 266-7.

(75) Leclant, o.c., p. 263-4.

(76) Leclant. o.c., p. 262.

(77) Leclant, o.c., p. 251-8.

(78) Leclant, o.c., p. 239.

(79) Leclant, o.c., p. 188-195.

(80) PM. **Private Tombs,** p. 56-61; Leclant, o.c., p. 171-186.

(81) Leclant, o.c., p. 268.

(82) Leclant, o.c., p. 268.

(83) Leclant. o.c., p. 273

(84) Leclant, o.c., p. 251-258

(85) Vandier, Moc alla, BdE 18, p. 172-180, 185-197; Drioton. Vandier, **l'Egypte,** p. 211, 217, 230, 237, 269 = **PM** V, p. 170

(86) Vandier, **Moc alla,** p. 162 (inscr. 2)

(87) Vandier, o.c., p. 185-6 (inscr. 5), 198 (6), 202 (7)

(88) Vandier, o.c., p. 162, 186

(89) Vandier, o.c., p. 198, 202

(90) Vandier, o.c., p. 220-I (inscr. 10), 239-240 (12); id, **La famine dans l'Egypte ancienne,** p. 107

(91) **PM. V,** p. 182 (5)

(92) Loret, **L'inscription d'Ahmes, fils d'Abana,** BdE 3, p. 1-5, 13= de Rougé, **Inscription du tombeau d'Ahmès.** p. 18 = Sethe, **Urk IV,** p. I; Breasted, **AR II** I-16, 38-9, 78-82; Gunn-Gardiner, **JEA 5,** p. 48; Smith, **ZAS** 103, p. 72; Drioton-Vandier, o.c., p. 300-I; James, Egypt form the Expulsion **of the Hyksos, CAH 1965,** p. 7-8; Goedicke, JARCE II, p. 30; Vandersleyen, **Les guerres d'Amosis,** p. 31-40

(93) Erman, **L'Egypte des Pharaons,** p. 168-171

(94) **PM. V**, p. 176-7 (2) = **Urk IV,** p. 32-5 (9), 36-7 (9) = Breasted, **AR II**, 41; Vandersleyen, o.c., p. 31

(95) Tylor-Griffith, **The Tomb of Paheri.** in Naville, **Ahnas el Medineh,** p. 19-20 pl. 5= Settgast, **Bestattungs,** p. 100 pl. 11-12= Scandone, **Orient. antiqui.,** p. 161 fig. 8= Vandier, **Manuel d'Archéologie** 11, p. 561 fig. 313 (7) = id., **CdE 19,** p. 42= PM. V, p. 180 (9)

(96) Gauthier, **LR 11,** p. 209 (54 A) = Tylor-Griffith, o.c., pl. 4

(97) Champollion, **Mon.** pl. 385 (2) = **LD 111,** 11 (c)

(98) Gauthier, o.c. 11, p. 209

(99) Daumas o.c., p. 266-7, 331, 408= Urk IV, 127 (47) B, cf. aussi Bergan, Das Buch vom Durch-Wandeln der Ewigteit, p. 31

(100) Maspero, **ZAS 17,** p. 61-2

(101) **PM. V, 201-2**

(102) Alliot, **Tell Edfou, fouilles de l'IFAO.** 8-38, pl. 38, (1932-3)

(103) **ASAE 33,** p. 132-4

(104) Vandier, **Religion,** p. 220

(105) **PM. V.,** p. 200

(106) Fouilles franco-polonaises dues à Mme Descroches-Noblecourt

(107) **PM. V,** p. 201

(108) Drioton-Vandier, **o.c.,** p. 77

(109) Engelbach, **ASAE 22,** p. 136-8

(110) Posener, **Dict. de la civil. Egypt.,** p. **101**

(111) **PM V,** p. 237= Vandier, **Manuel 11,** p. 310

(112) Breasted, **AR 1,** p. 150

(113) Drioton-Vandier, o.c., p. 209-10; Weigall, **Hist. de l'Egypt. anc.,** p. 52-3

(114) Erman, **ZAS 30,** p. 79 A; id. **ZAS 31,** p. 65-70; **Urk 1.** 110-131

(115) Erman, **Egypte des Pharaons,** p. 105-8; Dawson, **JEA 25,** p. 185-9; Save-Soderbergh, **Egypt. und Nubien,** p.II-36, l'auteur discute des rapports entre l'Egypte et la Nubie

(116) **PM. V.,** p. 237

(117) Sethe, **Urk 1,** 131-5 (27); Weigall. o.c., p. 54-5; Daumas, o.c., p. 78; Breasted, **AR 1** 362-374, Smither, **JEA 28,** p. 16-19

(118) PM. V., p. 231 = Bissing, **ASAE 15,** p. 2-4; Capart, **ASAE 6,** p. 127; Bouriant, **RT 10,** p. 183

(119) Sethe, Urk 1, 135-40 (28) = Breasted, AR 1, p. 164-5; Drioton-Vandier, o.c., p. 228; Erman, o.c., p. 105

(120) pour ce titre, cf. Kees, **ZAS 70,** p. 83

(121) **PM. V,** p. 232 (28)

(122) Vandier, **Religion,** p. 229

(123) Bouriant, **RT 10,** p. 186 = Sethe, **Urk VII.** p. 9-10 (3 B)

(124) Lire pa-enankt (voir PN 1, 106, 22 & aussi Sauneron, **RdE 7,** p. 53-62 relativement à certaines accusations portées contre des prêtres et fonctionnaires de la région d'Assoun, à la XXo dyn. dans le temple de Khnoum

(125) Sauneron, **Les prêtres de l'ancienne Egypte,** p. 15-6

(126) Deux personnages portent ce nom, cf. PM VII, p. 76, 79

(127) **PM VII,** p. 76-7 = Steindorff, **Aniba 11,** p. 242-5, pl. 101-104

(128) Drioton-Vandier, o.c., p. 380

(129) Breasted, **AR IV** 474-483

(130) Save-Soderbergh, o.c., p. 197-9

Addendum

Tehna

Le site de Tehna a connu à la V. dynastie un personnage célèbre : **Nou Kankhou** qui fut «Intendant de la grande Résidence, chef de nouvelles villes, chef de prophetes d'Hathor de Tehna». On sait que le roi Menkaourê avait institué un domain de deux pièces de terre cultivée, en faveur des prophètes de la déesse Hathor, pour subvenir aux depenses du culte. Le roi Ousirkaf a institué Noukankhou prêtre d'Hathor, et par là même, L'a investi de tous les privilèges et devoirs de cette position (= voir Maspero, ASAE 3 (1902), p. 132-133; pour le point de vue juridique de cette donation, voir Harari, ASAE 54 (1957), p. 317-344). Dans l'inscription de sa tombe Noukankhou proclame ses enfants «prêtres d'Hathor, dame de Raânit» (= voir Maspero, op. cit., p. 130-137; Sethe, Urk 1, 24-31 (17) (D); Fraser, ASAE 3 (1907), p. 123, 136; PM IV, p. 131). On peut ajouter un detail interessant qui se trouve sur le mur est de la tombe, c'est lacitation de noms des mois et des saisons de l'année (= voir Maspero, op. cit., p. 126-127 Holscher, dans Egypte. Forsch 4 (1937), p. 15 = Urk 1, 25-28).

2

Political Relations between the Safavids of Persia and the Mamluks of Egypt and Syria in the early Sixteenth Century

Dr. HASSANEIN RABIE

The purpose of this paper is to investigate the evolution of political relations between the Safavids and the Mamluks during a very critical period in their history. At the beginning of the sixteenth century there were three competent powers in the Eastern Mediterranean. i.e. the Ottomans, the Safavids and the Mamluks. The Ottoman Empire was the most powerful among them. After it had established itself in Europe, the Ottoman Empire turned its face to the east in order to prove its identity and qualifications as the most powerful Muslim Empire at that time(1).

The game of paramount power was complicated and sensivive.. The Ottomans won in the end because they isolated the Mamluks from the conflict circle by encouraging the deterioration of relations between the Safavids and the Mamluks. After they had defeated the Safavids, they destroyed the Mamluk Sultanate and thus became the most powerful Muslim state in the area. The losers were the Mamluks, who, because of their internal and external weeknes, could not participate in the game from the beginning. It would seem as though the Mamluks themselves were expecting their fate to be decided at the hands of the winner, either the Ottomans or the Safavids (2).

In the summer of 906-7 A.H./1501 A.D. Ismail the Safavid entered Tabriz and proclaimed himself Shah Ismail the First although his domain at the time was only Azarbayjan. He

declared Shieism to the formal doctrine of the new state. Shah Isma,il not only distinguishe his new state from the Sunni Ottoman Empire, but re-established national unity in Persia. Since the Arab conquest in the 7th century, Persia had been a mere geographical province belonging to the Caliphs of Medina or Damascus or Baghdad, and was often divided into a number of petty dynasties. But after 1501, Persia became one state(3).

During the ten years following the fall of Tabriz, Shah Isma,il conquered all of Persia and extended his state to the Fertile Crescent. In 908 A.H./1503 A.D. he defeated the ak-Koyunlu forces near Hamadan and established himself in central and south Persia. A few years later he conquered Mazandaran and Gurgan, the provinces of the Caspian Sea, extending his realm to Diyar Bakr. In 914\1508 Shah Ismaeil captured Baghdad and in the next years he conquered Shirvan, Khurasan and Samarquant. In brief, within a very short time Shah Ismaeil extended the borders of his empire from the Persian Gulf in the south to the Caspian Sea in the north, from the Euphrates in the west to Transoxania in the east, and his state thus became an opponent to the Sunni Ottoman empire(4).

As for Egypt and Syria, they had been ruled from Cairo by the Mamluk Sultans since 648/1250. In the late 15th century, or even before, the Mamluk Sultanate suffered from Maladministration of week sultans and corrupt amirs, in additions to troubles caused by the qadis fuqaha and common people. This was accompanied by economic decline as a result of the deterioration of the inta system, (5) the frequent occurrences of the plague and epidemics with their catastrophic effects on a country that relied mainly on agriculture (6). Egypt during the late 15th century lost its important commercial position in the apice and other oriental trade because of the arrival of the Portuguese on the coasts of the Indian Ocean. In 892/1487 the Portuguese

discovered the Cape of Good Hope and after a few years they reached India(7).

In the year 907/1501, according to the contemport historian Shams al-Din Ibn Tulun (d. 953/1546) disturbing news circulated in Damascus concerning Shah Ismaeil's victorious campaigns and his intention to conquer Syria(8). Sibay, the Mamluk vice-Sultan in Syria imposed illegal additional taxes on the people in order to prepare and equip an army of infantry to be quartered in Aleppo in fear of a Safavid invasion(9).

The Ottomans moved at that time to prevent war between the Mamluks and the Safavids. It seems that the Ottomans realized that il Shah Isma.il destroyed the weak Mamluk Sultanate, he would gain control of Syria and Egypt, thus putting the Ottoman's own plans in jeopardy. They might have thought at this stage of having the Mamluks on their side. or at least of isolating them in their future struggle with the Safavids. They pretended that they i.e. the Ottomans wanted to establish an alliance with the Mamluks to stop the Safavids from reaching the heart of the Sunni world. The contemporary Mamluk historian Ibn Iyas (d. 930/1524) reports that in Rabi II 908/October 1502, the envoy of the Ottoman Sultan Bayezid II arrived in Damascus carrying correspondence addressed to the Mamluk Sultan al-Ghouri. The envoy was well received in Damascus and was made even more welcome in Cairo. He transmitted the presents and the messages of his master, which contained information about the Ottoman's intention concerning Safavid preparetions for war. The Ottoman envoy left Cairo in Rajab 908/January 1503 carrying the reply of the Mamluk Sultan(10).

When news of the Ottoman-Mamluk rapprochement reached Shah Isma-c-il, he waited until 913/1507 before he marched westwards to the borders of the Mamluk Sultanate near Aleppo. Meanwhile, more money was being collected from the inhabi-

tants of Damascus to prepare troops for the defense. The Mamluk vice-Sultan ordered a parade of Mamluk troops, and they marched under his command to Aleppo on Thursday 7, Jumada II 913/14 October 1507 (11). Sultan al-Ghawri in Cairo was disturbed by this news. He consulted his amirs and they decided to send troops to stop the Safavid invasion. The Mamluk army for this campaign comprised 5 high-ranking amirs of thousands, 20 amirs of forty and amirs of Ten, and 1500 Sultani Mamluks(12).

The Egyptian troops did not leave Cairo however, because news arrived that the Safavid army had crossed the Mamluk borders at the Euphrates in the same month (Jumada II 913\ October (1507), and had met the army of the amir Ali Dulat, of the Mamluk buffer principality Dulgadir (Dhu al-Ghadir). According to Ibn Iyas. the Safavid army was defeated. The amir Ali sent to Cairo a number of Safavid soldiers' heads and a distinguished Safavid prisoner of war. Sultan al-Ghowri was so pleased he ordered the heads to be hung on the Zuwayla Gate in Cairo, and halted the preparation for sending troops to Syria. All this happened during the presence of an Ottman envoy in Cairo. The Mamluk sultan bestowed robes of honor on him and his comrades and sent them back to the Ottoman sultan with the good news(13). The Syrian Mamluk troops subsequently returned from Aleppo to Damascus in Sha-ban 913/December 1507(14).

In the same month (Sha-ban 913\December 1507) Shah Ismai-c-il sent his envoy to Sultan al-Ghawri with a letter contain ing an apology for what had happened at the Euphrates and for any initiative his troops may have taken. The Shah emphasized in his letter that the incident was not intended, that the Safavid soldiers had lost their way, and that the Shah did not give his personal order for such action or even have any knowledge of it. Sultan al-Ghawri accepted this apology and set the

Safavid prisoner free to return to Persia accompanied by the Safavid delegation. Ibn Iyas comments that : «the Safavid envoys were very impudent, they wore red conical caps on their heads but were not as elegant as the Ottoman envoys»(15).

From his incursion of 913/1507 to the Emphrates and his subsequent mission to Cairo. It would seem that Shah Isma-c-il wanted not to attack the Mamluk sultanate directly, but to keep it at bay and prevent it from impeding his future invasion of Iraq or any future conflict with Ottomans. This assumption is supported by the statement of Ibn Iyas, that in the next year (914/1508) Shah Isma-c-il conquered Iraq and captured Baghdad the ruler of Baghdad the Sultan Khan Ibn Ya'cq-ub Ibn Hassan al-Tawil arrived Cairo in Ramadan 914\December 1508 asking the Mamluk Sultan to provide him with troops to fight the Shah. Sultan al-Ghawri refused to do so because he was not ready to face the Safavid. It seems also that Sultan al-Ghawri was aware, at that time, of the movements of the Venetians and Hospitalers in the Mediterranean and the Portuguese in the Indian Ocean and the Red Sea. The Protuguese went too far in their policy.

Albuquerque sent his envoys to Shah Isma-c-il urging him to agree with the Portuguese that the Safavids should invade the Mamluk Sultanate from the east, while the European naval powers would invade the Syrian coasts. The plan was intended to remove the Mamluk sovereign in Syria and to revive the old trade toute i:e: the persian Gulf - Iraq - Syria - Europe(17).

It seems that Shah Isma'il took the plan to heart and made it his own. he decided to put it into effect even if he would have to face both the Ottomans and the Mamluks. No doubt Ismail wented to have control of the trade route, to reach the Red Sea area and to become the guardian of the two holy cities, Mecca and Medina in the Hijaz. Shah Isma'il wrote escretly to the consuls of the Franks in the main Egyptian and Syrian cities

asking them to write to their kings to invade Egypt from the sea, whilst he would invade by land the territories of both the Mamluk and Ottoman sultans. In 916/1510 the Mamluk ruler of al-Bira on the eastern Mamluk borders in Syria captured some Safavid envoys carrying letters addressed to these consular officials, and sent them to the Mamluk Sultan in Cairo(18). Ibn Tulun adds that in the same year some Franks from Aleppo and its invirons arrived in Damascus under arrest. It was said that they were carrying letters from the Franks to Shah Ismail, hiding them in their walking-sticks(19).

When Sultan al-Ghawri was informed of these incidents on 23 Dhu al-Qada 916/21 February 1511 he summoned the European consuls, including those of Alexandria, of Damascus and of Tripoli. He insulted and threatened them with hanging. Then he ordered them to be handed over to the **Nasir al-Khass** for further investigation of the matter (20).

The response of Shah Ismail was to send a squadron to attack al-Bira because its Mamluk ruler had captured the Safavid envoys who had passed nearby. Sultan al-Ghawri was disturbed and reacted as if he believed this Safavid incursion was the beginning of a campaign against the Mamluk Sultanate. He sent a delegation headed by the **amir Tamur-Bay** to discuss the matter with Shah Ismail. In Tabriz the Shah met the amir Tamur-Bay only once and kept him as a prisoner for about two years (21).

Relations between the Mamluk Sultanate and the Safavid Empire deteriorated as went by. In Dhu al-Hijaz 916\March 1511 Shah Ismail defeated and killed Ozbeg Khan, a Tartar chieftan. Sultan al-Ghawri was disquieted by such news(22). A Safavid envoy to the Mamluk Sultan arrived in Damascus on Safar 917/10 May 1511, (23) and in Cairo on 18 Rabi I\15 June 1511 of the same year. The Mamluk Sultan was very anxious and concerned about the purport of such a mission. He sent

his amirs to welcome the envoy outside Cairo. The Sultan himself went personally, but in disguise, to the Matariyya, outside Cairo, to watch the arrival of the Safavid envoy. Ibn Iyas comments that it was something very old for the Sultan to do so. After two days the Safavid envoy met the Sultan. The letter of Shah Ismail was read in the presence of the Mamluk amirs and the Safavid envoy presentted the gifts of his master : a copy of the Holy Quran, a prayer carpet, a crossbow and a small box. When the box was opened in the presence of the Sultan, they found inside the head of Ozbeg Khan whom the Shah had killed in previous year. Sultan al-Ghawri ordered the head to be buried and the crossbow was broken.

Ismail's gift to al-Ghawri had its dangerous and unequivocal implications. It suggested that al-Ghawri — in the view of the Safavid Shah — was an old man who could not participate in battle, so he should keep himself to the prayer carpet, praying to God and reciting the Quran, leaving the Mamluk Sultanate to vigorous men, like Shah Ismail, who were able to kill their enemies. like Ozbeg Khan, on the battle field.

Al Ghawri was furious at the Safavid letter which the envoy handed him. It contained abusive verses insulting the Mamluk Sultan who used to visit parks and enjoy himself in gardens and festivas. The verses say :

The sword and the dagger are our flowers

fie on the narcissus and the myrtle

Our wine is the blood of our enemies

And our cup is an empty skull (25)

Sultan al-Ghawri ordered some of his close and trusted Mamluks especially the amir Ozdamur, to take care of the Safavid envoy during his stay in Cairo, to prevent anyone whats-

oever from approaching him, and not to let nyone of the Safavid delegation go to market tomeet anyone of the inhabitants. Only once the Safavid envoy was permitted to visit the tombs of the Imam al-Shafii and the Imam al-Laythi accompanied by the amir Oz-damur (26). No doubt the Sultan's instructions reflected his fear that the Safavid envoy was sent to approach foreign personalities in Cairo, and his order preventing the delegation to go to the markets of the city may have been motivated by his concern that they should not contaminate the Sunni doctrine of the Egyptians.

The two abusive verses which Shah Ismail sent in his letter to al-Ghawri became a topic of competition among the Egyptian poets and writers, such as Ibn Iyas, al-Ushmuni, al-Hijjar, al-Shirbini, Ibn al-Tahhan and others, to write verses in reply. Sultan al-Ghawri chase two verses written by Safiyy al-Din al-Hilli which say :

I have a horse for good purposes and that is its rein

I have a horse for evil purposes and that is its saddle

Whoever wants to show me the right way. I am ready to respond in kind.

Whoever wants to lead me astray, I will repay him in kind

After being kept in Cairo for two months (from Rabi. I to Jumada I 917) the Safavid envoy returned to his master carrying al-Ghawri's letter of reply (28).

However, relations between the Safavids and the Mamluks went form bad to worse. In Muharram 918/ April 1512, bad news reached Sultan al-Ghawri from Aleppo to the effect that Safavid infantry battalions had arrived at al-Bira. This news disturbed the Sultan because he had at that time to face disor-

ders caused by the Bedouin tribes of al-Buhayra, the Fayyum and other Egyptian provinces. These were accompanied by devastation of crops. plunder and disorder. Ibn Iyas comments that Sultan al-Ghawri found himself in great difficulties with the Bedeouin disorders on one side and the Safavid problem on the other (29).

On Thursday 18 Rabi I 918/3 June 1512 the Mamluk ruler of Sis sent to the Sultan in Cairo ten heads topped with red conical caps of Safavid soldiers whom he had killed while they were rampaging through his domain. Sultan al-Ghawri immediately ordered these heads to be struck on lances and put on display in the streets of Cairo, and finally to be hung on the gates of Bab al-Futuh and Bab al-Nasr. (30) No doubt Shah Ismail was unhappy when he heard this news. He sent a Safavid delegation of about 100 men to Cairo. He sent with them the Mamluk delegation headed by the amir Tamur-Bay which the Shah had kept in Tabriz for two years (31). Two Safavid envoys met Sultan al-Ghawri on 14 Rabi II 918/ 29 June 1512 and handed him a letter which contained «abusive and hard words». Al-Ghawri was enraged. It seems that Shah Ismail blamed the Sultan for parading the Safavid heads in the streets of Cairo and even mocked the Sultan with taunts that he could not engage in combat with him. The Safavid delegation stayed in Cairo for less than one month. It was sent back to Persia with al-Ghawri's reply which also contained abusive words. Ibn Iyas comments on this event by saying that it was the beginning of the enmity between the Sultan and Shah Ismail (32).

Al-Ghawri, by virtue of these experiences, was more conversant with the tactics of Shah Ismail, and more aware of his intentions, than were the Ottomans themselves. When the news of the death of the Ottoman Sultan Bayezid II reached Cairo on 2 Jumada I 918/16 July 1512, al-Ghawri mourned him and expressed his grief for the loss. The inhabitants of Cairo were

ordered to mourn the Ottoman Sultan by prayer in the mosques of al-Azhar, al-Hakim and others (33). But when the Mamluk vice-Sultan in Aleppo reported in Rabi II 919/June 1513 that Shah Ismail had been defeated by some of his Tartar enemies, had lost many thousands of troops, and that he himself had been injured and was in hiding — no one knew where, Sultan al-Ghawri was pleased with the news, obviously, because he thought that with this setback Shah Ismail would or could not attack the Mamluk Sultanate at that time (34).

In fact the only thing which saved the Mamluk Sultanate from a definite clash with the Safavid was the transference of the circle of conflict to the Safavid — Ottoman axis. There were many reasons for the emergence of armed struggle between the Safavids and the Ottomans. The Ottomans Empire, the most powerful Sumni authority of the time, could not allow a Safavid defeat of the weakened Mamluk Sultanate because, if it happened, it would mean that the Shi i Shah would become the guardian of the two holy cities of Islam in the Hijaz and the master of the Red Sea trade. Of course there were other reasons such as the case of the amir Ahmad, brother of Sultan Selim I and his rival, who was welcomed by the Shah offered asylum. Other reasons were the Shi ite mutiny which occurred in Asia Minor, against the Ottomans, and the persecution of the Sunni **Fuqaha** in Iraq and Iran(35).

The Safavid and the Ottoman armies met at Chaldiran, near Tabriz, on 2 Rajab 920/23 August 1514. Shah Ismail was defeated and Sultan Selim entered Tabriz. The Ottomans tried to follow Ismail who withdrew eastwards devastating the villages on his way in order to weaken the Ottoman advance and lengthen their supply lines. Sultan Selim was forced to withdraw because of bad roads, cold weather and over-extended supply routes (36).

The news of the defeat of Shah Ismail reached the Mamluk Sultan al-Ghawri a few days on 10 Rajab/31 August after its occurrence. At the beginning, the Sultan could not believe the news, although he was happy enough with it. He ordered the Quran to be recited in some of the mosques of Cairo and Fustat (37). News of the Ottoman victory was circulated among the inhabitants of Cairo next month (Sha-ban 920\November 1514), but the Sultan did not order the drums to be beaten for festivals as usual in such caases, since he ws determined to wait for confirmation of the news (38). At last on 29 Ramadan 920/17 November 1514 an Ottoman envoy arrived in Cairo carrying a detailed correspondence concerning Ismail's defeat at Chaldiran. The most important point was that even after the arrival of the official news, Sultan al-Ghawri did not order the drums to be beaten and did not declare that Cairo should be decorated in celebration of this occasion. The contemporary historian Ibn Iyas comments : «the reason was not known» (39).

The reason was obvious later on; no doubt Sultan al-Ghawri was aware of the consequences of such a victory, and realized that he would drink from the same cup as Shah Ismail. The Ottomans, after defeating the Safavids, turned their attention to the Mamluks, to the conquest of their lands, to the guardianship of the two holy cities, to extending their influence into the Red Sea and to becoming the hole Muslim power in the area. Ibn Abi al-Surur al-Bakri states that Sultan Selim wanted to destroy the Mamluk Sultanate because good relations had been established between Shah Ismail and al-Ghawri, and during the Ottoman-Safavid war, al-Ghawri had sent his orders to Aleppo to prevent the Ottoman supply trains from reaching the army of Sultan Selim (40). Ibn Tulun reports also that it was circulated among the people that the reason for the Ottman conquest was that Sultan Selim had captured al-Bahlawan, one or al-Ghawri's men, who was carrying a letter from his master to Shah Ismail. In this letter the Mamluk Sultan asked the Persian Shah for help

to fight Sultan Selim(41). In other version al-Ghuzzi states that Sultan al-Ghawri announced among his troops that the purpose of his movement to Syria was to arrange peace between Selim and Shah Ismail. Al-Ghawri adds that when al-Ghawri wrote to Selim about his peace mission, Selim was suspicious of the reasons for such movement and decided to fight the Mamluk Sultan (42).

In the absence of more date one cannot refute or accept such information. In any case, it was two years after the battle of Chaldiran, on Sunday 25 Rajab 922/24 August 1516 Sultan Selim met Sultan al-Ghawri on the field of battle at Marj Dabiq north of Aleppo. Of course the by then weakened Mamluk army could not face up to the firepower of the Ottomans. The Mamluk army was defeated and the Mamluk Sultan al-Ghawri was killed on the battle field. The Ottoman Sultan Selim conquered the cities of Syria and at last reached Cairo. The last Mamluk Sultan Tuman-Bay was defeated at al-Raydaniyya, near Cairo, and in other places, and was hanged at the Zuwayla Gate on 22 Rabi I 923/14 April 1517 (43). In the end Egypt became a provincial territory. but attached to the Empire of the Sunni Ottomans, rather than the Shii Safavids.

Footnotes

(1) Inalcik, K., **The Ottoman Empire, The classical age 1300—1600** (London, 1973), pp. 23-40; Holt, P.M. **Egypt and the Fertile** Crescent 1516—1922, (London, 1966), pp. 23-32

(2) For the decline of the Mamluk Sultanate in the later middle age, cf. Lapez, Miskimin and Udovitch, «England to Egypt. 1350-1500», in Cook, M., **Studies in the economic history of the Middle East**, (London, 1970), pp. 115-128.

(3) Savory, R.M., 'Safavid Persia', in **The Cambridge History of Islam,** I. p. 398.

(4) Sharaf Khan al-Bidlisi, **Sharaf nama,** Arabic translation by Muhammad 'Ali Awni, (Cairo, 1962), II, pp. 118-129; Sykes, p., **A History of Persia,** 3rd ed. (London 1963), II, pp. 158-62; Savory, 'Safavid Persia'. p. 399.

(5) For the iqta system during the Heyday of the Mamluk Sultanate, ef. Rabie, H., **The financial system of Egypt A.H. 564-741\A.D. 1169-1341**, (London, 1972), pp. 26-72.

(6) See, al-Maqrizi (Ahmad ibn Ali), **Ighathat al-umma bi-kashf al-Ghumma,** (Cairo, 1940), pp. 32-47; Rabie, op. cit. pp. 20-22, 49; Dols M. W., **The black death in the Middle East,** (1976).

(7) Serjeant, R. B., **The Portugeuse off the South Arabian Coast,** (London, 1963), pp. 13-21.

(8) Ibn Tulun (Shams al-Din Muhammad). **Mufakahat al-Khillan fi hawadith al-zaman,** ed. Muhammad Mostafa, (Cairo, 1962), I, p. 252.

(9) Ibid., I. p. 261.

(10) Ibn Iyas (Muhammad ibn Ahmad), **Bada'i al-Zuhur fi waqa'i al-duhur,** 2nd edition, ed. Muhammad Mostafa, Vol. IV (Cairo 1960), pp. 46-7.

(11) Ibn Tulun, **Mufakaha,** I. pp. 316-17.

(12) Ibn Iyas, Bada i, IV, p. 118; for the Mamluk **army of.**, Ayalon, D., 'Studies on the structure of the Mamluk army', BSOAS, XV (1953), pp. 203-28, 448-76, XVI (1954). pp. 57-90.

(13) Ibn Iyas, Bada i, IV, pp. 118-9, 121-2.

(14) Ibn Tulun, Mufakaha, I, p. 318.

(15) Ibn Iyas, **Bada i,** IV. pp. 123-4.

(16) Ibid., IV, p. 146.

(17) Cf. Ibn Iyas, Bada i , IV, pp. 82, 129, 163; Darrag, A. **al-Mamalik wa al-Firanj,** (Cairo, 1961), pp. 127-57.

(18) Ibn Iyas. Bada i, IV, pp. 191, 205.

(19) Ibn Tulun, Mufakaha, I, pp. 342-3.

(20) Ibn Iyas, **Bada i**, IV, p. 205; for the **Nazer al-Khass** who became the most important official in the Mamluk Sultanate after 1329, cf., Rabie, H., op. cit., pp. 142-4.

(21) Ibn Iyas, Bada i, IV. pp. 184, 265, 271, see below, p.

(22) Ibid., IV, p. 207.

(23) Ibn Tulun, **Mufakaha,** I, p. 354.

(24) Ibn Iyas, Bada i, IV, pp. 218-20.

(25) Ibid., IV, pp. 221-2; Ibn Tulun Mufakaha, I, p. 357; for al-Ghawri's gardens, cf. Azzam (Abd al-Wahhab), **Majalis al-Sultan al-Ghawri.** (Cairo, 1941), pp. 29-30.

(26) Ibn Iyas, Bada i, IV, p. 221.

(27) Ibid., IV, pp. 222-7.

(28) Ibn Tulun, **Mufakaha**, I, p. 357.

(29) Ibn Iyas, Badai, IV, pp. 256-7.

(30) Ibid., IV, p. 262.

(31) Ibid. IV, p. 265 ff. see above, pp. 41-2.

(32) Ibid., IV, p. 271.

(33) Ibid., IV, p. 270.

(34) Ibid., IV, p. 311.

(35) cf. al-Ghuzzi, **al-Kawakib al-sa ira fi a yan al-mi a al-ashira,** MS., Dar al-Kutub (Egyptian Nationnal Library), no. 1206 **Tarikh,** Vol. I, fol.. 398; Savory, Safavid Persia, pp. 399-400; Helt, op. cit., pp. 35-5; Inalick, op. cit., p. 32.

(36) Sharaf Khan al-Bidlisi, **Sharaf Nama, II**, pp. 140-1; al-Ghuzzi, al-Kawakib, I, fols. 398-9; Savory, Safavid Persia'. pp. 400-1; Inalcik, op. cit., p. 33.

(37) Ibn Iyas, **Bada i,** IV, p. 393.

(38) Ibid., IV, p. 396.

(39) Ibid, IV, pp. 402-4.

(40) Ibn Abi al-Surur al-Bakri, **al-Minah al-rahmaniyya fi al-dawa al-Uthmaniyya**, MS. Dar al-Kutub, Cairo, no. 1926 **Tarikh,** fol. 21 r-v; id., **al-Kawakib al-Sa'ira fi Akhbar Misr wa al-Qahira,** (available in photocopy as No. 2112 Tarikh Taymur, Dar al-Kutub, Cairo), fol. 18 t.

(41) Ibn Tulun, **Mufakaha.** II, p. 23.

(42) al-Ghuzzi, al-Kawakib, I, fol. 399.

(43) Ibn Iyas, **Bada'i al-Zuhur**, Vol. V ed. M. Mostafa (Cairo - Wiesbaden 1961), pp. 60-177; al-Tshbili (Ali ibn Muhammad), **al-Durr al-musan fi sirat al-Muzaffar Selim Khan,** ed. H. Ernst, (Cairo, 1962), pp. 8-16; Ibn Tulun, **Mufakah.** II, pp. 23-4; (Cairo, 1962), pp. 8-16; Ibn T uluSultanal-**Ghawri ma a Selim al-Uthmani**, ed. Abd al-Mun im Amir (Cairo, 1962), pp. 26 ff; Ibn Abi al-Surur al-Bakri, al-**Minah,** fol. 21 v; Ziada, M.M., Nihayat Salatin al-Mamalik, **al-Mijalla al--Tarikhiyya al-Misriyya, Vol. IV, i (1951);** Lewis. B., Egypt and Syria; in **the Cambridge History of Islam** I, pp. 229-230; Holt, op. cit., pp. 37-41,